

أم اللغات

دراسة فى
خصائص اللغة العربية والنهوض بها

سعيد أحمد بيومى

أم اللغات

دراسة فى خصائص اللغة العربية والنهوض بها

تأليف

سعيد أحمد بيومى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

الطبعة الأولى

بسم ا   الرحمن الرحيم

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُون إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ

صدق الله العظيم
(النحل : ١٠٣)



إلى روحي جدىّ :

الشيخ الفقيه علي حامد بيومى

والدكتور إبراهيم بيومى مدكور رئيس مجمع اللغة العربية

اللذين تعد هذه الدراسة ثمرة

غرس الأول بذرها بتنشئتى على حب لغة القرآن

ورعاها الثانى بتوجيهى ونصحى

راجيا من الله أن تكون ثمرة طيبة

في بستان لغتنا الجميلة

محتويات الكتاب

الموضـــوع **الصفحـــة**

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

الترقيم المحلى :	١٣١٠٠ / ٢٠٠٢
الترقيم الدولى :	I.S.B.N.

تصدير

بقلم الأستاذ الدكتور
محمد عبد البديع عسران

لقد سعدت أيما سعادة إذ أتاح لي الكاتب الأستاذ / سعيد بيومي قراءة مؤلفه القيم " أم اللغات " قبيل طباعته .

ولقد ربطتني بالمؤلف صداقة أساسها المتين حب اللغة العربية والإخلاص لها والغيرة عليها ، وكلما جمعتنا الظروف يدور حديثنا كله حول هذه اللغة ، ولو يتاح لنا الوقت بغير حساب لامتد حديثنا ساعات وساعات دون أن يتطرق إلينا ملل ؛ بل كلما طال حديثنا أضحى الشوق إلى استمراره أقوى لأن الكاتب عميق الفهم للغة العربية ، واسع المعرفة بنشأتها وتاريخها وآدابها ومدرك إدراكا يستحق الإعجاب والثناء بمناقب هذه اللغة ، وهو من قبل ومن بعد شديد الغيرة عليها ، وهي غيرة تستحب ولا تستهجن .

وقد استهل المؤلف كتابه بما يصدق عليه وصف " براعة الاستهلال " ، وهو الوصف الذي أطلقه النقاد الأقدمون على براعة افتتاحيات بعض عيون القصائد . والقسم الأول من الكتاب بحث عميق شيق في نشأة اللغة العربية وموقعها بين لغات العالم قاطبة واللغات السامية خاصة مع إيضاح جلي لخصائص اللغة العربية وسمات تفردها بين سائر اللغات مبرزا في ذلك قوة إيقاعها وتناغم جرسها ، تلك الخاصية التي انبهر بها " نابليون بونابرت " حين قدم على رأس الحملة الفرنسية على مصر واهتز سمعه لهذا الجرس وذلك الإيقاع فقال مقولته الشهيرة " **إذا أردت أن تخاطب جيشا فخاطبه باللغة العربية ، وإذا أردت أن تخاطب امرأة فخاطبها باللغة الفرنسية ، وإذا أردت أن تخاطب كلبا فخاطبه باللغة الإنجليزية " !**

ولقد جاء رد الكاتب على الفرية التي أطلقها الحاقدون على لغة القرآن الكريم بأنها لغة صعبة ؛ جاء رده على ذلك قويا بغير شطط منصفا بغير تحيز أو تعصب ، كما جاء دفاعه عن صلاحيتها لكل فروع العلم وصنوف الفن وألوان الأدب الحديث ؛ جاء دفاعه راسخا وحججه بينة دامغة .

وقد أنصف الكاتب إذ نوه في القسم الثاني من الكتاب – الذي أفرده لكيفية النهوض باللغة العربية – نوه إلى أهمية الشعر في ماضي هذه اللغة وحاضرها ومستقبلها ؛ فاللغة العربية وليدة أبوين يتيمين معجزين هما القرآن الكريم والشعر الجاهلي . وقد أتاح الشعر العربي فيما تلا ذلك من عصور الازدهار أي العصر

الإسلامي والعصر الأموي والعصر العباسي ؛ أتاح للغة العربية انتشارا للسانها ورقيا لآدابها وازدهارا لعصورها .

ومما يحمد للكاتب ما عرج عليه من معضلة اللغة العربيــة في القضاء ، ونبه إلى ضعف وركاكة لغة الأحكام القضائية وحاجتها إلى القوة والرصانة على نحو ما كانت عليه في النصف الأول من القرن العشرين .

وقد انفتح عقل الكاتب ففتح الله عليه بابا واسعا من أبواب العلم بقدرات اللغة العربية واتساع مداها لتشمل دائما كل منجزات العلم خاصة في موقعها على الحاسب الآلي وكل ما يتصل بذلك من استيعاب هذه اللغة لكل طاقات هذا الجهاز مهما عظمت منجزاته ومهما تشعبت في شتى فروع العلم والفنون والآداب والثقافة العامة وروابط الاتصال بالمجتمعات الأخرى والثقافات المتعددة خاصة على شبكة " الإنترنت " .

وعلى ذات القدر من الفطنة والألمعية جاء مبحث الكاتب في اللغة العربية والنشاط الاقتصادي ، وبما عرف عنه من غيرة محمودة على اللغة العربية جاء خطابه المفتوح إلى السيد رئيس الجمهورية بشأن تعريب التعليم وتدريس المناهج العلمية باللغة العربية .

وكم جاهدت نفسي وقت كتابة هذه السطور أن ألتزم الإيجاز الشديد في الإشادة بهذا الكتاب القيم ، ولو أطلقت لقلمي العنان لوضعت مؤلفا في الإشادة بهذا المؤلف ، لأنني لم أستمتع فحسب بقراءتـــه بل أفدت منه أي فـــائدة وسعدت بصحبتــه عين السعـادة ، فكان لزاما علي أن آخذ بعنان قلمي لأتيح للقارئ أن يستمتـــع ويفيــد ويسعد كما استمتعت وأفدت وسعدت .

دكتور مستشار
محمد عبد البديع عسران

مقدمـة المؤلف :

النـهـوض باللغة العربية لا يعني أن يصبح المتحدثون بها كلهم أجمعون نحويين متفاصحين ، أو متشدقين متفيهقين كأبي علقمة النحوي الذي كان الناس يسخرون منه ويتندرون عليه ، ومنهم هذا الطبيب الذي دخل عليه أبو علقمة يوما يشكو له مرضا ألم به ، فقال : إني أكلت من لحوم هذه الجوازل فطسئت طسأة فأصابني وجع من الوالبة إلى ذات العنق فلم يزل يربو حتى خالط الحلب والشراسيف ، فهل عندك دواء ؟ فما كان من الطبيب الذي لم يفهم من كلام أبي علقمة شيئا إلا أن قال له : نعم . خذ حرقفا وسلقفا وسرقفا فزهرقه وزقزقه واغسله بماء روث واشربه ، فقال أبو علقمة : لم أفهم عنك شيئا مما قلت . فقال الطبيب : أفهمتك كما أفهمتني !

وقد سئل الإمام أحمد بن تيمية (المتوفى سنة ٧٢٨ هـ) عن رجل يدعو الله فيلحن (أي : يخطئ في قواعد اللغة) في دعائه ، هل يقبل منه ؟ فأفتى الإمام بجواز ذلك ما دام الرجل يدعو الله مخلصا له الدين ، وكان من رده – رضي الله عنه : ينبغي للداعي إذا لم يكن من عادته الإعراب ألا يتكلفه ، لأن من جعل همته في الدعاء تقويم لسانه أضعف توجه قلبه (الفتاوى الكبرى ، المجلد الثاني ، ص ١٨٧) . وليس معنى ذلك أن ابن تيمية ، وهو شيخ الإسلام في عصره ، لم يكن حريصا على صحة قواعد اللغة العربية في كل ما يصدر عن الإنسان من قول ، ولكنه كان يعي أن البلاغة أو الفصاحة لا تعني التكلف أو المبالغة وإنما هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، فأبى أن تتكلف نفس الرجل البسيط الذي يدعو الله على سجيته ما لا تطيق .

كما أن النهوض باللغة لا يقتصر على تغلغلها في مسالك أنفاس أهلها واستيلاء حبها والاعتزاز بها على شغاف قلوبهم ، وإنما يتعدى ذلك إلى التوجه العملي نحو إثبات قدرتها الدائمة على تلبية متطلبات الحياة نظريا وعمليا فلا يؤثرون عليها لغة غيرها في أحاديثهم ومكاتباتهم ، وفي تعليمهم وتعلمهم ، فضلا عن تطويعها للتعامل مع منجزات العلم الحديث والتعبير عن روح العصر مهما كانت مشدودة إلى تراثها الثقافي برباط متين تجلى للغة العربية في أبهى صوره باستيعاب كلام الله في كتابه المقدس . وليس يجدي أن تثرى حصيلة المرء من ألفاظ اللغة وقواعد النحو ما لم يتسن له استخدامها في تلبية حاجاته العلمية والعملية وإفهام الناس بما عساه أن يريد ؛ فاللغة العربية شأنها شأن أية لغة ، إن هي إلا ظاهرة اجتماعية تتشرب بروح العصر وإلا رماها الناس بالتخلف والجمود . فضلا عن أن اللغة بوجه عام هي أرقى نظام اتصال عرفه المجتمع الإنساني ؛ حيث تتيح لأفراده

التعبير بطريقة تلقائية وطبيعية عن آرائهم وأفكارهم بألسنتهم وأقلامهم ، ويكتسبها الإنسان من المحيط الذي ينشأ فيه ويتأثر لا محالة بـه ؛ لذا فهي توجد أينما وجد البشر ، وتعد بهذه المثابة أهم الوشائج العملية التي تربط بينهم ، فضلا عن كونها من المقومات الأساسية التي تنبني عليها شخصية الفرد ، يقول خالد بن صفوان : " ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة مُمَثّلة ، أو بهيمة مُرسَلة ، أو ضالة مُهمَلة " ! وتتخذ كل جماعة لغتها التي يتعارف عليها أفرادها في التخاطب والتفاهم فيما بينهم ، وتمثل من ثم الوعاء الذي تتشكل فيه ثقافتهم وحضارتهم ، وتعبر عن واقعهم وتطلعاتهم ، ويقاس تقدم أمة من الأمم بمدى حرصها على التمسك بلغتها .

وقد أمضى العرب زمنا يعرفون فيه بين الأمم بأنهم الأبرع في فنون القول ، حتى قيل : إن حضارة العرب قد شيدتها ألسنتهم كما شيدت حضارة اليونان عقولهم وحضارة الصينيين أذرعهم ، وعلى حد وصف (أبي حيان التوحيدي) فإن العرب " منعوا الطعام وأعطوا الكلام " ! ولكن هذا الزمان قد طويت صحائفه اليوم ، لأن الفخر بالكلام وحده لم يعد يسمن اللغة أو يغني أهلها من جوع ، فإنما يفيد اللغة العربية وأهلها إنجازهم ورصيدهم الحالي في مضمار الحضارة ، وقدرتهم على استيعاب العلوم الحديثة ، وإلا ذهب فخرهم باللغة أدراج الرياح ، وضاعت هويتهم وتفسخت الروابط التي تجمع بينهم ، وأمتنها لا شك رابطة اللغة التي اشتادوا عليها حضارتهم .

ولا يجب أن يقتصر مفهوم النهوض باللغة اليوم على إصلاح لحن تقع فيه العامة (أو الخاصة) من نطق غير منضبط لصوت أو تخريج مجترئ لهفوة أو خطأ في استخدام كلمة محل كلمة بل يتعدى هذه الظواهر المؤلمة - دون أن يغفلها إلى النظرة الأشمل لوضع العربية في ظل التطورات العلمية التي تلاحقها من كل صوب وحدب ومدى وتأثرها باللغات الأخرى التي تقض مضجعها وتزاحمها مكانتها في نفوس أبنائها متخفية في رداء وسائل العلم الحديثة .

ولم يخل قرن من القرون في تاريخ اللغة العربية من الحراص عليها الذين يجعلون غايتهم النهوض بها في الواقع العملي كلما اعتور مسيرتها عارض أو صادفها تحد من داخل أو خارج ، فلم يحول العرب أبصارهم إلى لغة غير لغتهم ، حتى في فترات ازدهار العلوم المستحدثة على البيئة العربية (في القرن الرابع الهجري مثلا) حيث قرعت آذان العرب أسماء ومسميات لعلوم ومعارف لم يكن لهم ولا للغتهم عهد بها ، فآثروا منطلقين من وعيهم الحضاري أن ينقلوها أولا إلى لغتهم حتى تتفاعل معها وتتجاوب لمتطلباتها ثم يهصرونها بلسانهم نقدا وتحليلا ثم تأليفا وإبداعا فنضجت اللغة عندما نضجت عقلية العرب وخلدت للعالم إبداعهم الحضاري . ولذا لم تقتصر هذه الدراسة على رصد بعض خصائص اللغة العربية وسماتها التي تجعلها بحق على القمة بين جميع اللغات من حيث القدرة على التجاوب مع معطيات العلم الحديث ، بل ترامت أطرافها أيضا إلى بعض المجالات

العملية التي يمكن من خلالها النهوض باللغة كعلاقتها بمنجزات العلم الحديثة لا سيما " الكمبيوتر " وما يلحق به من تقنيات ، ودور النشاط الاقتصادي الحديث في النهوض باللغة ، وعلاقتها بمظاهر الممارسة الديمقراطية من خلال تتبع لمدى الالتزام بها في القانون والبرلمان والقضاء فضلا عن مناقشة قضية تعريب التعليم والتعريج على دور الشعر الغائب الحاضر في الارتقاء بها ، ولا يعني الاقتصار على تناول هذه القضايا ، وهي غيض من فيض قضايا النهوض الملحة ، إغفال أهمية غيرها من القضايا التي لم تعد تحتاج إلى مزيد من (اللت والعجن) بقدر حاجتها إلى (القرار والفعل) ، ويأتي في مقدمتها وضعها في التعليم بجميع مراحله وطرائقه ، ووضعها في وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة .

وتواجه اللغة العربية الآن تحديات كثيرة ، لكن أصعب هذه التحديات ما يأتيها من الداخل وعلى يد أبنائها الذين تنتظر منهم أن يؤدوا واجبهم نحوها كما ينبغي وكما يؤديه أبناء اللغات الأخرى تجاه لغاتهم ، ولكنهم – ويا للأسف - يتفننون في انتهاك حرمتها ، والتقاعس عن خدمتها في ظل سياسات غير محكمة تزيد وضعها سوءا وتسمح للغات الأخرى – وهذه ثالثة الأثافي – بتبوء مكانة تضاهي مكانة اللغة العربية إن لم تفقها في نفوس أبنائها فتشد إلى اللغة الأجنبية الرحال وتهيأ الأسباب وينحسر أبناء اللغة العربية عنها في أوطانها مما يهدد بتفسخ الروابط بينهم وتميع هويتهم في ظل انفتاح الشعوب بعضها على البعض فيما يسمى بالعولمة .

إننا اليوم ، وأكثر من أي عهد مضى ، في حاجة ملحة إلى نولي وجوهنا شطر لغتنا العربية بالعمل الجاد المثمر لا بالشعارات والادعاءات البراقة ، فحرصنا على اللغة العربية وتشبثنا بها في تلبية متطلبات العلم هو المظهر الأول من مظاهر تحضرنا ، أما الدعوة إلى تجاهل العربية والاهتمام بغيرها من اللغات إنما هي عين الرجعية ، لأنه ليس ثمة أمة متحضرة في العالم تسمح بإهمال لغتها ونحن أولى بأن نحفظ للغتنا ولغة آبائنا قدرها بين اللغات لأنها وحدها وسيلتنا كما كانت وسيلة أجدادنا الأمينة إلى النهوض والتقدم ، وما أصدق قول المتنبي :

فمن جهلت نفســه قدره
رأى غيره منه ما لا يرى !

المؤلف
أبو النمرس في ٢٠٠٢/٧/١م

الفصل الأول

موقع اللغة العربية
على خريطة اللغات في العالم

مَن أحب الله تعالى
أحب رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم
ومن أحبَّ الرسول العربي
أحبَّ العرب
ومن أحبَّ العرب
أحبَّ العربية
التي بها نزل أفضل الكتب
على أفضل العجم والعرب
ومن أحبَّ العربية
عُنيَ بها
وثابر عليها
وصرف همَّته إليها

(أبو منصور الثعالبي)
" فقه اللغة "

فى العالم اليوم حوالي ثلاثة آلاف لغة منطوقة ، منها أكثر من مائة لغة يتكلم بكل منها مليون أو أكثر من الناس .

ومن بين هذه اللغات المائة ، توجد تسع عشرة لغة يتكلم بكل منها ما يربو على خمسين مليون نسمة ، كالصينية ، والإنجليزية ، والإسبانية ، والفرنسية ، والعربية ، والروسية ، والألمانية ، واليابانية ، والإيطالية ، والبرتغالية . وتعتبر هذه المجموعة أهم اللغات الرئيسة المستخدمة في العالم .[١]

والعربية بوصفها إحدى هذه اللغات ، يتحدث بها نحو ٨٩% من سكان العالم العربي في قارتي : إفريقيا ، وآسيا ، ويقدر عددهم بنحو مائتي مليون نسمة ، كما يستخدمها حوالي مائتي مليون مسلم من غير العرب ، إلى جانب لغاتهم أو لهجاتهم الأصلية .

ويتعامل باللغة العربية في قارة إفريقيا وحدها نصف عدد سكانها تقريبا ، وتشكل مع الإنجليزية والفرنسية اللغات الرسمية الثلاث المعتمدة في منظمة الوحدة الإفريقية ، كما أنها – لنزول القرآن الكريم بها – تغدو مطمحا لكل المسلمين الذين يبغون تعلمها والتعامل بها ، ويبلغ عددهم نحو مليار مسلم في شتى أنحاء العالم .

واللغة العربية هي أهم الوشائج العملية التي تربط بين " العرب " ، والوعاء الذي تتشكل فيه ثقافتهم وحضارتهم ، وتعقد عليها الشعوب العربية الآمال العراض في التوحيد الفعلي بين مواقف " الأمة العربية " سياسيا واقتصاديا ، لاسيما في المحافل الدولية . فضلا عن كونها إحدى اللغات الست المعتمدة في هيئة الأمم المتحدة ومنظماتها بعد أن كانت اللغات الرسمية المعتمدة فيها - منذ إنشائها عام ١٩٤٥ م - خمسا فقط هي : الإنجليزية ، والفرنسية ، والإسبانية ، والروسية ، والصينية . ثم صدر في الثامن عشر من شهر ديسمبر سنة ١٩٧٣م ، قرار بضم اللغة العربية إليها . (انظر : الملحق الأول في خاتمة هذه الدراسة) .

---

[١] - الموسوعة العربية العالمية ، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ، الرياض ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٩ ، ج ٢١ ، ص ١٢٢ .

عائلـة اللغـة العربيـة :

تنتمي اللغة العربية - طبقا لتصنيف علماء اللغة المحدثين - إلى عائلة اللغات " السامية " [1] ، وقد أطلق عليها هذا الوصف العالم الألماني " شلوتزرSchlozer " في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، وقصد به أن يكون تسمية مشتركة للغات الشعوب الآرامية ، والفينيقية ، والعبرية ، والعربية ، واليمنية ، والبابلية الآشورية ، وما انحدر منها بعد أن ثبت ما بين هذه اللغات من صلات قرابة وأوجه تشابه في أصواتها وصرفها ومعجمها .

ومن نماذج هذا التشابه في مجال المفردات مثلا ، كلمة (ماء) في العربية هي في الإثيوبية (ماي) ، وفي الأكادية (مو) ، وفي الأوغاريتية (مي) ، وفي الآرامية (مَيَّا) ، وفي العبرية (مَيم) . وكلمة مثل (بيت) في العربية ، نجدها في الإثيوبية (بِت) ، وفي الأكادية (بيتُ) ، وفي الأوغاريتية (بت) ، وفي الآرامية (بيتا) ، وفي العبرية (بَيت) . وكلمة مثل (سلام) في العربية ، نجدها فى الإثيوبية (سلام) ، وفي الأكادية (شلامُ) ، وفي الأوغاريتية (شلم) وفي الآرامية (شلاما) ، وفي العبرية (شلُوم)... إلخ [2] .

ولكن علماء اللغة العرب القدامى كانوا أسبق في التنبه إلى أن اللغات المنتشرة في العالم أسر كالبشر ، وأن كل أسرة منها تجمع بين أعضائها سمات مشتركة ، تعود إلى الأصل الذي تفرعت منه .

فالخليل بن أحمد الفراهيدي (المتوفى سنة ١٧٥ هـ) يذكر عند إيراده مادة (كنع) في معجمه (العين) الذي ابتدئ به التأليف المعجمي العربي أن الكنعانيين كانوا " يتكلمون بلغة تضارع اللغة العربية " [3] .

ويثبت أبو حاتم الرازي في كتاب " الزينة " نصا لابن سلام (المتوفى سنة ٢٢٤ هـ) يدل على إلمامه بالصلة بين قواعد اللغتين العربية والسريانية : " قال أبو عبيد القاسم بن سلام : للعرب في كلامهم علامات ، لا يشركهم فيها أحد من

---

[1] - هذه التسمية " السامية " مأخوذة من الإصحاح العاشر ، من سفر التكوين ، من التوراة الذي يتحدث عن أبناء النبي نوح : سام ، وحام ، ويافث . وعلى الرغم من عدم استساغة هذا الوصف ؛ لأن مصدره التوراة التي لم تسلم من تحريف اليهود وزيفهم المدسوس ، فضلا عن انطلاقه من التصور العنصري البغيض ، وما يعتريه من اختلاط لاشتراك بعض الشعوب في عائلة لغوية واحدة مع انتمائها إلى أصول متباعدة ؛ فإن الأقلام في الغرب قد تداولته ، وتلقفته ، من ثم ، أقلام كثير من علماء اللغة العرب ، فشاع ، وكاد يستقر كمصطلح في الأوساط العلمية ، ويرى العقاد أن الأفضل أن تقسم اللغات ، على حسب تكوينها وتكوين قواعدها وعوامل التصريف في مفرداتها وتراكيبها ، إلى : لغات النحت (اللغات الهندو- أوروبية) ، ولغات التجميع (اللغات المغولية والأمريكية) ، ولغات الاشتقاق (اللغات السامية) وتأتي على رأسها اللغة العربية . " انظر : أشتات مجتمعات : عباس محمود العقاد ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة السادسة ، ١٩٨٨ ، ص ١١٥ " .

[2] - معجم مفردات المشترك السامي في اللغة العربية : تأليف الدكتور حازم علي كمال الدين ، مراجعة وتقديم د. رمضان عبد التواب ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٤ .

[3] - العين : الخليل بن أحمد الفراهيدي ، تحقيق الدكتور عبد الله درويش ، بغداد ، ١٩٦٧ م ، ج ١ ، ص ٢٣٢ .

الأمم نعلمه ؛ منها : إدخال الألف واللام في أول الاسم ، وإلزامهم إياه الإعراب في كل وجه ، في الرفع والنصب والخفض ، كما أدخلوا في " الطور " ، وحذفوا الألف التي في الآخر ، فألزموه الإعراب في كل وجه ، وهو بالسريانية " طورا " على حال واحد ، في الرفع والنصب والخفض . وكذلك " اليم " ، هو بالسريانية " يما " فأدخلت العرب فيه الألف واللام وصرفته في جميع الإعراب " [1]

وفي القرن الرابع الهجري ، وقبل شلوتزر بسبعة قرون ، يبرز ابن حزم الأندلسي ، في كتابه " الإحكام في أصول الأحكام " ، قوة العلاقة بين اللغة العربية وجاراتها من اللغات (السامية) ، قائلا : إن الذي وقفنا عليه ، وعلمناه يقينا ، أن السريانية والعبرانية والعربية ، التي هي لغة مضر – لا لغة حمير – واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها ، فحدث فيها جرش كالذي يحدث من الأندلسي إذا رام نغمة (لهجة) أهل القيروان ، ومن القيرواني إذا رام لغة الأندلس ، ومن الخراساني إذا رام نغمتها ... فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية ، أيقن أن اختلافها إنما هو من نحو ما ذكرنا ، من تبديل ألفاظ الناس ، على طول الأزمان ، واختلاف البلدان ، ومجاورة الأمم ، وأنها لغة واحدة في الأصل .

وقد أشار الجواليقي (المتوفى سنة ٥٤٠ هـ) في " المعرب " فيما تكلمت به العرب من الكلام الأعجمي ، إلى اللغات الفارسية ، والرومية ، والعبرانية ، والسريانية ، والقبطية .[2]

كما أدرك أبو حيان الأندلسي (المتوفى سنة ٧٥٤ هـ) العلاقة بين اللغتين العربية والحبشية ، وله فيها - كما ذكر في " البحر المحيط "- تأليف مستقل ، يقول : " والحبشية إذا نسبت ، ألحقت آخر ما تنسب إليه ، كافا مكسورة مشوبة بعدها ياء ؛ يقولون في النسب إلى الفرس : فرسكي ، وربما أبدلت تاء مكسورة ؛ قالوا في النسب إلى جبر : جَبَرْتي . وقد تكلمت على كيفية نسبة الحبش ، في كتابنا المترجم عن هذه اللغة ، المسمى بـ " جلاء الغبش عن لغة الحبش ". وكثيرا ما تتوافق اللغتان : لغة العرب ، ولغة الحبش في ألفاظ ، وفي قواعد من التراكيب نحوية ، كحروف المضارعة ، وتاء التأنيث ، وهمزة التعدية " .[3]

وعلى الرغم من أن دراسات علماء اللغة العرب القدامى قد اتجهت في مجملها إلى الداخل ؛ فانصبت على الموازنة بين لهجات العرب المختلفة : صوتا ، وصرفا ، ومعجما ؛ فإن إشارات بعض هؤلاء العلماء السابقة ، وغيرها

---

[1] - " الزينة " : أبو حاتم الرازي ، تحقيق حسين الهمداني ، القاهرة ، ١٩٥٨ م ، ج ١ ، ص ٧٧ .
[2] - " المعرب " : موهوب بن أحمد الجواليقي ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، ١٣٨٩ هـ ، من ص ٦٦ إلى ص ١١٠ .
[3] - " البحر المحيط ": أبو حيان الأندلسي ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٢٨ هـ ، ج ٤ ، ص ١٦٣، وانظر : فصول في فقه العربية : دكتور رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ٣ سنة ١٩٩٤ م ، ص ٤٢ .

مما يتناثر في كتب التراث اللغوي ، على مر العصور ، تنم عن إدراكهم لصلات القرابة اللغوية التي تمخضت عن أوجه الشبه والتوافق بين العربية وجاراتها المنبثقة معها من أصل واحد، وهو الأساس الذي انبنى عليه ، في العصر الحديث ، تصنيف اللغات البشرية إلى فصائل وعائلات .

تميز اللغة العربية بين لغات العائلة السامية :

تكتسب عائلة اللغات التي تنتمي إليها اللغة العربية ، وهي العائلة السامية ، من بين جميع العائلات اللغوية ، أهمية قصوى ؛ لنزول الكتب السماوية (القرآن ، والإنجيل ، والتوراة) ببعض لغاتها ، كما أن الأنبياء المعروفين جميعهم بعثوا من أبناء الشعوب التي تتحدث بها ، وتبلغ نسبة هذه الشعوب الآن ٤% من سكان المعمورة ، وهي نسبة ضئيلة – لا شك – إذا ما قورنت بعائلة اللغات الهندو أوروبية التي تبلغ نسبة المتحدثين بها حوالي ٤٧% ، أو بعائلة اللغات الصينية التبتية التي تبلغ نسبة المتحدثين بها ٢٢% من سكان العالم .[١]

وقد توفر للغة العربية عاملان لم يتوفرا لغيرها من لغات عائلتها السامية :

أولهما – أنها نشأت في أقدم موطن للساميين (وهو الجزيرة العربية في أرجح الآراء)[٢] . وترجع أصول العربية الفصحى إلى العدنانيين الذين كانوا يقطنون شمالي الجزيرة العربية ، وهي تختلف عن عربية الجنوب التي عرفت باللغة الحميرية ، وكان يتحدث بها القحطانيون ، وأقدم نص عثر عليه مكتوبا باللغة العربية الفصحى يعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد ، وهو نقش النمارة .

والثاني – أن الموقع الجغرافي لهذا الموطن قد ساعد على تمتعها بالاستقلال وقلت من ثم نسبة احتكاكها وتأثرها بجاراتها ، وهي : اللغة الفارسية من جهة الشرق ، واللغة الآرامية من الشمال ، واللغة الحبشية من الجنوب[٣] . ولذا ، احتفظت اللغة العربية بأكبر قدر من مقومات اللسان السامي الأول ، وبقي فيها من تراث هذا اللسان ما تجردت منه أخواتها في النسب ، وتفردت عن هذه الأخوات من ثم ، بخواص عديدة من أهمها :

---

١ - الموسوعة العربية العالمية ، مرجع سابق ، ج ٢١ ، ص ١٢٧ .

٢- يرى نولدكه أن الموطن الأصلي للساميين كان في إفريقيا ، بينما ذهب رينان إلى أنه أرمينيا ، واعتقد جويدي وهومل أنه منطقة الفرات ، أما جمهرة الباحثين فيكادون يجمعون على أن الجزيرة العربية هي المهد الأول للساميين ، ومنها انطلقوا عبر التاريخ ، إلى بلاد الرافدين وسوريا وفلسطين والحبشة وشمالي إفريقيا ومصر . (انظر : فصول في فقه العربية ، مرجع سابق ، ص ٣٨)

٣- قدر الأب رفائيل نخلة اليسوعي نسبة الكلمات التي دخلت اللغة العربية (على الرغم من العزلة الجغرافية) بـ ٢,٥ % ، وهى نسبة لا تكاد تذكر في محيط اللغات ، لاسيما إذا علمنا مثلا أن نسبة الكلمات غير الفرنسية التي دخلت اللغة الفرنسية تصل إلى ٥٥ % ! (الموسوعة العربية العالمية ، ج ٢١ ، ص ١٣٥)

١ - اشتمالها على جميع الأصوات التي وردت في أخواتها الساميات ، وزادت عنها بأصوات لا وجود لها في واحدة منها ، مثل : الثاء ، والذال ، والظاء ، والعين ، والضاد .
٢ - أنها أوسع أخواتها وأدقها في قواعد النحو والصرف .
٣ - أنها أوسع أخواتها ثروة في أصول الكلمات والمفردات .[1]

ويرى بروكلمان Brockelmann أن اللغة العربية تفترق عن غيرها (من اللغات السامية) في احتفاظها الكامل بالأصوات الأصلية الغنية ، على الأخص بأصوات الحلق وأصوات الصفير المختلفة ، كما أنها تفترق عنها كذلك في احتفاظها التام بالحركات القديمة ، ثم إن طريقة بناء الصيغ في السامية الأولى توجد في العربية في أرقى مراحل تطورها . وقد أيد كل من " نيكلسون Nicholson " و " أوليري Oleary " هذا الرأي مؤكدين أن اللغة العربية هي أصفى اللغات السامية ، وأقربها إلى النبع السامي الأول ؛ لذا فإن أي بحث أو دراسة في فقه اللغات السامية ، ينبغي أن ينطلق منها . ولا غرو إذن أن صمدت العربية وحدها تجابه عوادي الزمن ، في حين بادت سائر لغات عائلتها اللهم إلا بقايا لا تكاد تذكر ومنها الآرامية والسريانية التي تتحدث بها نسبة ضئيلة جدا من سكان سوريا .

ومن المعروف أن اليهود قد أفلحوا في إحياء اللغة العبرية بعد أن مر على مواتها نحو ألفي عام ، ولكنهم حين أقدموا على ذلك لم يجدوا أمامهم غير اللغة العربية ليستقوا منها مواد معجمهم ؛ فراحوا – كعادتهم – يتفننون في أساليب التحايل والسطو وتمويه الحقائق ، يقول إليعازر بن يهودا (١٨٥٨ – ١٩٢٢ م) ، وهو صاحب الدور الكبير في إحياء اللغة العبرية ، في محاضرة عنوانها " سد النقص في لغتنا " ألقاها أمام مجلس اللغة العبرية : " لقد اكتشفت جذورا عبرية ، عشرات ومئات ، لن أخفي المكان الذي وجدت فيه هذه الكنوز ، الحق أنني اكتشفتها في المعاجم العربية ، وكل واحد منكم يعلم مدى غنى المعجم العربي .. كل الكلمات الموجودة في المعجم العربي ليست عربية خالصة ، بل سامية ، وهي على كل حال عبرية أيضا .. إنها ملكنا ، لقد فقدناها وها قد عثرنا عليها ، ربما أصاب بعضها تغير في الشكل ، لكن حين نحورها قليلا ونعطيها شكلا عبريا سيتعرف عليها كل من يراها ، إنها البذور التي باركها الله ؛ أقترح على " مجلس اللغة العبرية " أن يصدر بيانا يعلن فيه أن كل الأصول الموجودة في العربية ، باستثناء ما ليس ساميا هي عبرية أيضا وعلى المجلس أن يجتهد ليجمع من المعاجم العربية كل الأصول التي لا توجد في لغتنا الآن "[2] !

[1] - محاضرات عن اللغة العربية : محمد أحمد حماد ، دار الثقافة العربية ، القاهرة ، ١٩٨٨ م ، ص ٢٤ .
[2] - اللسان العربي (الهوية ، والأزمة ، والمخرج) : عبد الوارث مبروك سعيد ، دار النشر للجامعات المصرية ، القاهرة ، ص ٢١٩ .

اعتزاز الأمم بلغاتها :

إن اعتزاز الأمم بلغاتها الأصلية مطلب حضاري ليس فيه ثمة تعصب أو جمود ، بل هو واجب قومي ، فحين نطالب كل عربي بأن يعتز بلغته العربية قولا وعملا فإنما يجب عليه أن يبادر إلى تلبية هذا المطلب الذي تفرضه على العرب لحظتهم الراهنة ، وليسوا فيه بدعا بين الأمم قديما وحديثا .

فاليونانيون كانوا يرون أن اللغة اليونانية هي أفضل اللغات ، وأن ما عداها من اللغات يشبه – في رأي جالينوس – إما نباح الكلاب ، وإما نقيق الضفادع !

وقد عرف عن اليهود أنهم يستحلون الكذب والحلف على الباطل بغير العبرية لأن الملائكة في زعمهم لا يعرفون غيرها ! ويذهب بعض نحاتهم إلى أن اللغة العبرية هي " أقدم لغة على الإطلاق ؛ حيث إنها هي اللغة التي تكلم بها آدم – عليه السلام – وأن اللغة العربية ما هي إلا لغة مشتقة منها " [١]

وفي محيط الأمم المتقدمة ، يأخذ الفرنسيون أنفسهم بالجد في تطبيق القوانين التي تسنها مجالسهم التشريعية من أجل الحفاظ على لغتهم ، ومنها قانون أطلقوا عليه " قانون لزوم الفرنسية " صدر عام ١٩٩٤ م ، ويحظر على كل مواطن فرنسي استخدام ألفاظ أو عبارات من لغات أجنبية ما دام ثمة ما يماثلها في اللغة الفرنسية ، ويسري هذا الحظر على كافة الوثائق والمستندات والإعلانات ، وكافة المؤتمرات والندوات ومكاتبات الشركات العاملة على الأراضي الفرنسية ، ومن يخالف هذا القانون فإن عقوبته السجن أو غرامة تصل إلى ألفي دولار .[٢]

وتخصص بريطانيا ميزانية سنوية تقدر بمائتي مليون جنيه إسترليني لنشر اللغة الإنجليزية عن طريق دعم المركز البريطاني " British Council " ، فضلا عن برامج تعليم اللغة الإنجليزية التي تبثها هيئة الإذاعة البريطانية ، وغيرها من البرامج وأوجه النشاط الأخرى ، أما الولايات المتحدة ، فتستخدم على الأقل خمس هيئات مختلفة للترويج للغة الإنجليزية ، وهي : وكالة التنمية الدولية " AID " ، ووكالة الإعلان الأمريكية " USIA " ، وفرق السلام " PEACE GROUPS " وإدارة الدولة " SD " ، وإدارة الدفاع " DD " .[٣]

أما الألمان فيرون أن حدود عالمهم هي حدود لغتهم ، وربما لا يعيرون المتحدث اهتماما إذا خاطبهم بغيرها، و تخصص الحكومة حوالي ٥٠% من

---

[١] - دراسات مقارنة بين العبرية والعربية ، د. سلوى ناظم ، دار الثقافة العربية ، القاهرة ، ص ٢ .

[٢] - من المفارقات المضحكة أن عقوبة من ينتهك حرمة اللغة العربية في المكاتبات واللافتات طبقا لمواد القانون المصري رقم ١١٥ لسنة ١٩٥٨ هي الغرامة التي تبدأ من عشرة جنيهات ولا تزيد على مائتي جنيه !

[٣] - اللغة والاقتصاد : فلوريان كولماس ، ترجمة د./ أحمد عوض ، سلسلة " عالم المعرفة " ، المجلس الوطني للفنون والثقافة والآداب ، الكويت ، العدد ٢٦٣ ، نوفمبر ٢٠٠٠ م ، ص ١٤٧ .

الميزانية الثقافية لوزارة الخارجية ، أي حوالي ٥٠٠ مليون مارك في العام الواحد " لترويج اللغة الألمانية " ، وكذلك يعتز اليابانيون ، والصينيون والروس إلى آخر الأمم المتقدمة ، بلغاتهم ولا يبخلون عليها بكل نفيس وغال ، ولم يعقهم هذا الموقف عن تحضرهم أو ينتقص من مدنيتهم ، بل كان لهذا الاعتزاز الفضل في بناء مقوماتهم التي تميزوا بها عن غيرهم من أبناء الأمم الأخرى . وجدير بالذكر أن الاعتزاز باللغة لا يكون بالآمال العِراض والأماني العِذاب فمن طال أمله قل عمله ، وما أحوج لغتنا العربية إلى كل جهد مقدور في تطوير تعليمها وتخديم التقنيات الحديثة لمصلحتها ، وإثبات قدرتها ومرونتها في حمل العلوم المستجدة في شتى الفروع والمجالات .

والعجيب أن تتسع اللغة اليابانية لكل المنجزات العلمية والتقنية ، على الرغم من عقم أبجديتها ، وطريقة كتابتها ، ومحدودية مفرداتها ، وأن تتسع اللغة الصينية للإنجاز والإنتاج الحضاري ، وأن تسترد العبرية من بطون التاريخ والمتاحف ، وتنفخ فيها الروح ، لتصبح لغة العلم والدين والسياسة ، وحتى التعبير عن أدق المصطلحات والمبتكرات العلمية في الفيزياء والرياضيات الحديثة ، وتنشر بها البحوث والدراسات ، وتصدر المجلات المتخصصة ، ويضطر المعنيون بهذه المجالات من أبناء اللغات الأخرى إلى تعلمها للاطلاع على إنتاجها في الوقت الذي تنحسر فيه اللغة العربية (وهي الأقدر والأثرى) بانحسار أهلها ونكوصهم الحضاري .[١]

اعتزاز العرب بلغتهم :

خلبت العربية عقول العرب قديما ، وملأت عليهم شغاف أنفسهم ؛ فاعتزوا بها قولا وعملا ، وتفانوا في خدمتها والغيرة عليها ، شأنهم شأن أبناء الأمم المتحضرة الذين يعتزون بلغاتهم ويتمسكون بها ؛ فخلف العلماء العرب من ثم ، آثارا تشهد بعبقريتها وتفردها بين اللغات في العالم . وقد أدى بهم هذا الاعتزاز والتقدير للغتهم إلى النظر إليها على أنها :

وحي :

يقول ابن جني في " الخصائص " :
" إنني إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة ، الكريمة ، اللطيفة ، وجدت فيها من الحكمة والدقة ، والإرهاف والرقة ما يملك علي جوانب الفكر ، حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر ، فقوي في نفسي كونها توقيفا من الله سبحانه ، وأنها وحي "

[١] - في شرف العربية : إبراهيم السامرائي ، سلسلة " كتاب الأمة " ، الدوحة ، العدد ٤١٠ ، طبعة سنة ١٤١٥ هـ ، ص ٢٥ .

وليس من شك في أن اعتقاد لغة ما وحيا من عند الله هو قمة التفضيل لهذه اللغة ؛ لأن الموحى به من عند الله لا يكون إلا على الدرجة التامة من الصواب والكمال والإحكام .[1]

وكلام أهل الجنة :

يقول الفارابي في " ديوان الأدب " :
" أما اللسان ، فهو كلام جيران الله في دار الخلد ، وهو المنزه من بين الألسنة من كل نقيصة ، والمعلى عن كل خسيسة ، والمهذب مما يهجن أو يستشنع ، فبُنِي مباني باين بها جميع اللغات : من إعراب أوجده الله له ، وتأليف بين حركة وسكون حلاه به ، فلم يجمع بين ساكنين ، أو متحركين متضادين ، ولم يلاقِ بين حرفين لا يأتلفان ، ولا يعذب النطق بهما ، أو يشنع ذلك منهما في جرس النغمة وحس السمع ، كالعين مع الحاء ، والقاف مع الكاف ، والحرف المطبق مع غير المطبق [2] ، مثل تاء الافتعال مع الصاد والضاد في أخوات لهما ، والواو الساكنة مع الكسرة قبلها ، والياء الساكنة مع الضمة قبلها في خلال كثيرة من هذا الشكل لا تحصى " .

وأفضل اللغات وأفصحها :

عقد ابن فارس في " الصاحبي " بابا سماه (القول بأن العربية أفضل اللغات وأوسعها) ، كما عقد بابا لذكر (ما اختصت به العرب) وعد من تلك الخصائص الإعراب ، والشعر، والعروض .

وذهب الجاحظ في " البيان والتبيين " إلى أن " البديع مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وأربت على كل لسان " . كما يقرر السرقسطي في كتاب " الأفعال " أن " العربية هي أفصح اللغات لسانا ، وأوضحها بيانا ، وأقومها مناهج ، وأثقفها أبنية ، وأحسنها بحسن الاختصار تألفا ، وأكثرها بقياس أهلها تصرفا " .

والاعتقاد بأنها خير اللغات من سلامة السريرة في الإيمان :

يقول أبو منصور الثعالبي في مقدمة " فقه اللغة وأسرار العربية " :

[1] - خصائص اللغة العربية : مرجع سابق ، ص ٣٤ .
[2] - الإطباق : أن ترفع في النطق طرف اللسان وأقصاه في اتجاه الحنك الأعلى ، مطبقا له ، فيتقعر وسطه محدثا في الفم فراغا يعطي رنينا يمنح الصوت فخامته وتضخيمه ، وأصوات الإطباق أربعة ، هي : الصاد ، والضاد ، والطاء ، والظاء .

" ومن هداه الله للإسلام وشرح صدره للإيمان وآتاه حسن سريرة فيه ، اعتقد أن محمداً صلى الله عليه وسلم خير الرسل، والإسلام خير الملل، والعرب خير الأمم، والعربية خير اللغات والألسنة، والإقبال على تفهمها من الديانة، إذ هي أداة العلم ومفتاح التفقه في الدين وسبب إصلاح المعاش والمعاد، ثم هي لإحراز الفضائل، والاحتواء على المروءة وسائر أنواع المناقب، كالينبوع للماء والزند للنار. ولو لم يكن في الإحاطة بخصائصها والوقوف على مجاريها ومصارفها والتبحر في جلائها ودقائقها، إلا قوة اليقين في معرفة إعجاز القرآن، وزيادة البصيرة في إثبات النبوة.. لكفى بهما فضلا يَحْسُنُ فيهما أثره ، ويطيب في الدارين ثمره ، فكيف وأيسر ما خصَّها الله عزَّ وجلَّ به من ضروب الممادح يُكِلُّ أقلام الكَتَبة ويتعب أنامل الحَسَبة " .

ولا يحيط بها غير نبي :

يرى الإمام الشافعي – رضي الله عنه - أن لسان العرب أوسع الألسنة مذهبا وأكثرها ألفاظا " ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي " ! ، وأنه إذا كانت الألسنة مختلفة بما لا يفهمه بعضهم عن بعض ، فلا بد أن يكون بعضهم تبعا لبعض ، وأن يكون الفضل في اللسان المتبَع لا التابع ، وأولى الناس بالفضل في اللسان مَن لسانه لسان النبي – صلى الله عليه وسلم ، ولا يجوز – والله أعلم – أن يكون أهل لسانه أتباعا لأهل لسان غيره في حرف واحد .

فهؤلاء العلماء قد وقر في قلوبهم حب العربية ، وصدقه العمل ؛ والناس - كما يرى أرسطو- إذا قدروا أن يقولوا قدروا أن يفعلوا ؛ فلم يكتفوا بالعاطفة المشبوبة في التحمس لها والتغني بها ، وإنما ساروا في اتجاهين متوازيين ، أحدهما هو السهر على حراستها ، ومراقبة استخدام الناس لها في نطقهم وكتابتهم وفي هذا الصدد لم يروا هفوة في اللغة إلا انتقصوا قدر هافيها وعدوا اللحن في نطق اللغة أو كتابتها هجنة (عيبا) على الشريف لا يجدر به أن يقع فيه ، وهو حينئذ أقبح من (الجُدَري) في الوجه !

ويروى عن عمر بن عبد العزيز – رضي الله عنه - أنه قال : " إن الرجل ليكلمني في الحاجة يستوجبها فيلحن ، فأرده عنها وكأني أقضم حب الرمان الحامض لبغضي استماع اللحن ، ويكلمني آخر في الحاجة لا يستوجبها فيعرب ، فأجيبه إليها التذاذا لما أسمع من كلامه " [1] . ويقول يونس بن حبيب : " ليس لعييٍّ مروءة ، ولا لمنقوص البيان بهاء ، ولو حك بيافوخه عنان السماء " . وخلف هؤلاء العلماء على مر القرون مؤلفات تشهد باعتزازهم باللغة وحرصهم على سلامتها في الاستخدام ، منها على سبيل المثال لا الحصر :

[1] - من أسرار اللغة : د. إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة السابعة ، ١٩٩٤ ، ص ٢٠١ .

عنوان الكتاب	اسم المؤلف	سنة الوفاة
ما تلحن فيه العامة	الكسائي	١٨٩ هـ
إصلاح المنطق	ابن السكيت	٢٤٤ هـ
لحن العوام	الزبيدي	٣٧٩هـ
الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء	المرزباني	٣٨٤ هـ
التلويح في شرح الفصيح	الهروي	٤٣٣هـ
تثقيف اللسان	ابن مكي الصقلي	٥٠١ هـ
درة الغواص في أوهام الخواص	القاسم بن علي الحريري	٥١٦ هـ
المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان	ابن هشام اللخمي	٥٧٧هـ
تقويم اللسان	ابن الجوزي	٥٧٩هـ
الجمانة في إزالة الرطانة	ابن الإمام	٨٢٧هـ
التنبيه على غلط لجاهل والنبيه	ابن كمال باشا	٩٤٠هـ

أما الاتجاه الآخر الذي سار فيه العلماء العرب بعد إظهار حبهم وحميتهم للغة العربية فهو إيثارهم لها دون غيرها للتعبير عن إبداعهم العلمي وإنجازهم الحضاري ؛ حيث انبرى العلماء العرب في معاملهم ومختبراتهم يعبرون عن نظرياتهم واكتشافاتهم العلمية في الطب والكيمياء والرياضيات وغيرها من فروع العلم المختلفة باللغة العربية وشهدت الحضارة العربية أزهى عصورها عندما قدر العلماء العرب لغتهم العربية حق قدرها فأصبحت بفضل تحضرهم ورقيهم في تعاملهم معها لغة العلم الأولى في ذلك الوقت .

ولم يأت تشبع هؤلاء العلماء ، كل في مجاله ، بحب اللغة العربية وتفانيهم في خدمتها إلا لأنهم خبروها فوجدوا فيها الغناء والثراء ، وكلما غاصوا في

بحارها وجدوا ما لم يجدوه في غيرها من طاقات تعبيرية وجمالية ، فازداد اقتناعهم وولعهم بها، ولم يجدوا أنفسهم في حاجة إلى تحويل أبصارهم عنها ، لا سيما بعد أن استوت لديهم الرؤيــة الموضوعية ، التي أسفرت عنها أبحاثهم ودراساتهم اللغوية ، جنبا إلى جنب النزعة الإيمانية التي غرست في أنفسهم اليقين بمنزلتها الشريفة ، وأصبح تعلم اللغة والاهتمام بها والحفاظ عليها في ظل هذه النزعة جزءا لا يتجزأ من أداء شعائر الدين والحفاظ عليه ، وفي ذلك يقول أبو عمرو بن العلاء : " علم العربية هو الديــن بعينــه " .

وقد عرف تاريخ اللغة العربية مئــات من المــوالي – أي غير العرب - كصهيب (الرومي) ، و بــلال (الحبشي) ، وسلمان (الفارسي) وغيرهم من صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم - الذين دفعهم حب الإسلام إلى التفاني في اكتساب هذه اللغة وتملك ناصية ملكاتها وعلومها . و صار بعض من كان مرباهم ونشأتهم بين العرب إماما في علوم العربية منذئذ إلى يومنا هذا ، كسيبويه ذي الأصل الفارسي ، الذي قال أبو عثمان المازني (ت ٢٤٩ هـ) عن كتابه في النحو: " من أراد أن يعمل كتابا كبيرا في النحو بعد كتاب سيبويه ، فليستح " ! وابن جِنِّي (ت ٣٩٢هـ) صاحب كتــاب " الخصائص " الذي كــان أبوه " جني " روميا يونانيا ... إلخ . وقد بلغ انتماء هؤلاء العلماء غير العرب وحبهم للعربية إلى الحد الذي لم يفضلوا معه لسانا آخر غيرها ، حتى لســان قومهم الأصلي ، وقد أثر عن أبي الريحــان البــيروني ، وهو فارسي الأصل قولـه : " لأن أهجى بالعربية أحب إلي من أن أمدح بالفارسية " ! وكانت تلك ظاهرة " لم تعرفها البشرية في مجال تعليم اللغات لغير أهلها ، مع أنه لم تكن هناك مؤسسات ولا جامعات ولا خبرات متراكمة في هذا الفن كالتي تتوفر لدينا اليوم في مجال تعليم اللغات لأهلها ولغير أهلها "[1] .

ويقرر العقاد أن للأمم في تنافسها بالمناقب والمزايا ألوان من المفاخرة بلغاتها ، منها التي تفخر بوضوح عباراتها وعذوبة جرسها ، ومنها التي تفخر بوفرة كلماتها واتساع ثروتها من ألفاظ الأسماء والأوصاف والأفعال ، ومنها التي تفخر بثرائها الأدبي وذخيرتها الفنية ، ومنها التي يزعم أبناؤها أنهم هم الناطقون المبينون ومن عداهم متبربرون لا يبينون عن أنفسهم ولا يحسنون فهم البيــان من الآخرين . ومعظم هذه المفاخر دعوى لا دليل عليها. ولكن الفصاحة العربية في دعوى أهلها مفخرة لا تشبه هذه المفاخر في جملتها ، لأن دليلها العلمي حاضر لا يتعسر العلم به والتثبت منه على ناطق بلسان من الألسنة ، ولا حاجة له في هذا الدليــل إلى غير النطق وحسن الاستمــاع . إن اللفظ الفصيح هو اللفظ الصريــح الذي لا لبس فيه ولا اختلاط في أدواتــه ، وهذا هو " اللفظ العربي " بدليلــه

[1] - اللسان العربي : مرجع سابق ، ص ١٣٣.

العلمي الذي لا تعتمد دعواه على أنانية قومية ولا على نزعة عاطفية ، تقابلها نزعات مثلها عند غير العرب من الناطقين بلغات الحضارة .[1]

وقد بلغت اللغة العربية من الكمال والنضج شأوا كبيرا لم تبلغه لغة غيرها بشهادة أبناء اللغات الأخرى . يقول المستشرق الفرنسي أرنست رينان : " فهذه اللغة تبدو لنا فجأة بكل كمالها ، ومرونتها ، وثروتها التي لا تنتهي . لقد كانت هذه اللغة ، منذ بدايتها، على درجة من الكمال تدفعنا إلى القول بإيجاز : إنها منذ ذلك الوقت حتى العصر الحاضر لم تتعرض لأي تعديل ذي بال ، فاللغة العربية لا طفولة لها ، ولا شيخوخة أيضا منذ ظهرت على الملأ ، ومنذ انتصاراتها المعجزة ولست أدري إذا كان يوجد مثل آخر للغة جاءت إلى الدنيا مثل هذه اللغة من غير مرحلة بدائية ولا فترات انتقالية ولا تجارب تتلمس فيها معالم الطريق ". ويرى جوستاف لوبون أن اللغة العربية " من أكثر اللغات انسجاما ؛ فهي وإن كانت تحتوي على عدة لهجات كالشامية والحجازية والمصرية والمغربية ، فإن هذه اللهجات لا تختلف فيما بينها إلا بفوارق جد طفيفة ، بينما نلاحظ أن سكان قرية في شمالي فرنسا لا يفهمون كلمة من اللهجات المستعملة في قرى الجنوب "[2] !

ومن الحقائق المقررة – كما يذكر الدكتور عبد الصبور شاهين - أن بعض اللغات أقوى من بعضها الآخر ، وعناصر القوة في اللغات قد تتمثل في رصيدها الحضاري ، كما تتمثل في قدرتها على استيعاب الأحداث المتجددة ، وبعض اللغات يمتاز بقدرة على خلق الصيغ ، وإنسال الكلمات الجديدة ، على حين تعجز لغات أخرى عن مجاراة المتغيرات ، ومن هنا تتفاوت أقدار اللغات ، كما تتفاوت أقدار شعوبها ، فاللغة القوية تعبر عن شعب قوي ، والشعب القوي لا بد أن تكون لغته قوية [3]. ولا شك أن استخدام اللغة من قبل الجماعة المتحدثة بها يثبت مدى كفايتها واقتدارها في أداء وظيفتها الاجتماعية ، وتتفاوت اللغات ، وتتفاضل من ثم من حيث هي وسائل البيان ، وإنما كان البيان أبلغ ما توصف به اللغة لأنه – كما يرى ابن فارس - هو رأس وظائفها وأخص ما تراد له .

وقد أضفى القرآن الكريم – وهو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه – على اللغة العربية مجدا تقاصرت دونه سائر اللغات ؛ فتهذبت به أتم تهذيب ، وكان فتحا جديدا فيها بألفاظه وأساليبه " نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ "[4] .

---

[1] - اللغة الشاعرة : عباس محمود العقاد ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٩٥ ، ص ٤٥ .
[2] - وسائل الإعلام - لغة الحضارة : د. عبد العزيز شرف ، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ص ٢٣١ .
[3] - العربية لغة العلوم والتقنية : د. عبد الصبور شاهين ، دار الاعتصام ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦ ، ص ٤٠
[4] - الشعراء (١٩٣ : ١٩٥) .

ويرى ابن فارس أن الله – جل ثناؤه – لما خص اللسان العربي بالبيان علم أن سائر اللغات قاصرة عنه ، وواقعة دونه .. فإن قال قائل : فقد يقع البيان بغير اللسان العربي ، لأن كل من أفهم بكلامه على شرط لغته فقد بيَّن . قيل له : إن كنت تريد أن المتكلم بغير العربية قد يعرب بنفسه حتى يفهم السامع مراده ، فهذا أخس مراتب البيان ؛ لأن الأبكم قد يدل بإشارات وحركات له على أكثر مراده ، ثم لا يسمى متكلما فضلا عن أن يسمى بينا أو بليغا . وإن أردت أن سائر اللغات تبين إبانة اللغة العربية فهذا غلط ، لأننا لو احتجنا أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد ، ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة ، وكذلك الأسد والفرس وغيرها من الأشياء المسماة بالأسماء المترادفة . فأين هذا من ذاك ؟ وأين لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب ؟ هذا ما لا خفاء فيه على ذي نُهية " . فوصف اللغة العربية بالإبانة يعني بلوغها الكمال في دقة التعبير ، ولمح لطائف المعاني ، مما يترتب عليه دقة الفهم وعمقه واتساع آماده ؛ لأن استعمال اللغة العربية يزيد من قدرة الإنسان العقلية " إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" [1] ، وقد كتب الخليفة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري : " خذ الناس بالعربية ؛ فإنه يزيد في العقل ويثبت المروءة " .[2]

وقد أكسب القرآن اللغة سعة في المعنى ، فأتى بمعان ، لم يألف العرب تناولها من قبل ؛ " إذ كانوا قوما حسيين ، ولغتهم حسية ، فجاء القرآن الكريم ، وحدث عن النفوس ووصفها ، فأحسن وصفها ؛ حلل نفس الضال وعلة ضلاله ، ونفس المهتدي وعريق اهتدائه ، صور تقلبات القلوب وخلجات النفوس ، وما يؤثر في المشاعر ، فدعا ذلك المسلمين إلى الاغتراف من منهله العذب ، وشاعت بينهم الأقوال في الأمور المعنوية ، وسمت اللغة العربية إلى مستوى ما كان يتهيأ لها بغير القرآن الكريم . " [3]

ولم تعرف الإنسانية على طول تاريخها لغة خلدها كتاب ، إلا اللغة العربية ، و تلك " معجزة القرآن وإعجازه ، إذا ما أخذنا الإعجاز بمفهوم عام يلزم البشر جميعا ويخاطبهم ، ذلك أن المألوف والمعهود في تاريخ الإنسان أن اللغات تبقى بقدر ما يتعاظم رصيدها أو مذخورها من الآثار الأدبية والعلمية التي ألفها النابغون من أبنائها ، رغم أن ذلك لا يحول دون تغير أصواتها ومبانيها ، حتى تصبح خلقا آخر . وتبقى اللغة العربية مثالا فريدا على تخلف هذه القاعدة ، فقد بدأت بكتاب الله مرحلة جديدة في حياتها الخالدة ، وكأنما تعاطت في آياته إكسير الحياة ، وسر البقاء ، واستمدت من كلماته شجاعة المواجهة ، وروح الثبات ، فكأن القرآن الروح التي جعلت العربية الفصحى لغة كل العصور ، وكل ما جاءنا من تراث

[1] - الزخرف (٣) .
[2] - خصائص اللغة العربية : د./ محمد حسن جبل ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط ١٩٨٧ م ، ص ٢٦ .
[3] - " الخطابة : أصولها . تاريخها " : الإمام محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي ، بدون تاريخ ، ص ٢٦٠ .

هذه اللغة فإنما مرده إلى القرآن ، الذي فجر علومها ، وأطلق عبقرية أبنائها ، فبقيت العربية كما كانت ، راسخة القدم مبنى ومعنى ، قادرة على مواكبة الحضارة ، تأخذ من غيرها ما يلزمها ، وتعطي لغيرها ما يلزمه " [١].

وتروى عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – جملة من الأحاديث التي تدل على شرف العربية وفضلها بين اللغات ، منها ما أخرجه الطبراني والحاكم والبيهقي في " شعب الإيمان " عن ابن عباس - رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " أحبوا العرب لثلاث : لأني عربي ، والقرآن عربي ، وكلام أهل الجنة عربي " . [٢]

والعرب هم كل من يتكلمون اللغة العربية :

" يا أيها الناس ، إن الرب واحد ، والأب واحد ، وإن الدين واحد ، وليست العربيـة بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية ، فهو عربي " [٣]

وقد هذب الحديث الشريف اللغة تهذيبا قريبا من تهذيب القرآن الكريم لها ؛ إذ سهل ألفاظها ، ورقق أساليبها ، وذهب بالحوشي منها ، كما أضاف الحديث الشريف إلى اللغة ثروة من المعاني والأساليب ، التي كانت تعد من النبي – صلى الله عليه وسلم – ابتداعا وابتكارا ، مثل قوله : " حمي الوطيس " ، ومثل قوله – عليه الصلاة والسلام : " الضعيف أمير الركب " ، وقوله : " مات حتف أنفه " وقوله : " هدنة على دخن " وقوله : " رويدك رفقا بالقوارير " ... إلخ . [٤]

وهكذا تحققت للغة العربية عالميتها بفضل الدين الإسلامي متمثلا في النص القرآني وحديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهذا التشريف الإلهي للغة العربية آية على كمالها وقدرتها على حمل المنهج الإلهي إلى البشر أجمعين ، وكأنها شهادة تقدير من السماء تضاف إلى رصيد هذه اللغة الجليلة وهي في الوقت ذاته رسالة موجهة إلى أهل الأرض من أبنائها بضرورة الحفاظ عليها والتمسك بها ، فهل يعون الرسالة ؟ !

---

[١] - العربية لغة العلوم والتقنية : د. عبد الصبور شاهين ، مرجع سابق ، ص ٤٤ .
[٢] - ذكره السيوطي في " الدر المنثور " ، دار الفكر ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٣ ، والمتقي الهندي في " كنز العمال " ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٩م ، مج ١٢ ، غير أن رجال الحديث لا يطمئنون إلى سنده .
[٣] - رواه الحافظ بن عساكر ، انظر " كنز العمال " : مرجع سابق ، مج ١٢ .
[٤] - الخطابة : الأمام محمد أبو زهرة ، مرجع سابق ، ص ٢٦٣ .

الفصل الثانى

العربيــة أم اللغات

وسعتُ كتاب الله لفظا وغاية
وما ضقت عن آيٍ به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة
وتنسيق أسماء لمخترعات ؟
أنا البحر في أحشائه الدر كامن
فهل سألوا الغواص عن صدفاتي ؟

حافظ إبراهيم
على لسان اللغة العربية

عندما نصف اللغة العربية بأنها " أم اللغات " ، فليس في هذا الوصف أي تعصب لها أو افتئات على غيرها من اللغات الأخرى في العالم ، وإنما هو تشخيص حقيقي وواقعي وتاريخي بحكم ما توفر لها من خصائص وسمات لم تتوفر لغيرها من اللغات الأخرى .

وما يدفعنا إلى تقرير هذه الحقيقة والتأكيد عليها ما تلوكه بعض الألسنة من ادعاءات وافتراءات على هذه اللغة الشريفة ، تارة برميها بالصعوبة ، وتارة باتهامها بالشيخوخة والعجز عن مواكبة روح العصر والتعبير عن منجزات العلم . وأصبح نفر غير قليل - لا سيما من الشباب - ينظرون إلى لغتهم الكريمة نظرة دونية ، وكادت الثقة تنعدم لدى البعض في قدرة العربية على البقاء في ظل مزاحمة اللغات الأجنبية لها في عقر دارها وبخاصة الإنجليزية ، وتميعت ألسنة الكثيرين بترديد الكلمات الدخيلة والاستغناء عن الكلمات والمرادفات العربية الأصيلة . لذلك تأتي هذه الوقفة لتعيد الأمور إلى نصابها الصحيح وتحفظ لهذه اللغة العالمية قدرها الذي يحاول الكثيرون أن ينتقصوا منه بتشويه معالم صورة وخصائص وتاريخ اللغة العربية في أذهان أبنائها والمتحدثين بها .

وليس تفضيل اللسان العربي على غيره من الألسنة مقصدا في حد ذاته ، لأن لكل أمة لسانها الذي تعتز وتفخر به وتصارع دونه ، وليس من الإنصاف أن يقف الأمر عند حد المقارنة والتفضيل لمصلحة لغة على حساب أخرى ، فذلك لا يفيد اللغة المفضلة في شيء فضلا عن أن ألسنة الناس - على تباينها - آية من آيات الله – سبحانه وتعالى – في خلقه (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِلْعَالِمِينَ) [١] .

ولذا فإن إبراز خصائص اللغة العربية وأوجه تميزها بين خصائص اللغات الأخرى ، إنما الغرض منه إنصاف هذه اللغة و تصحيح الصورة التي يتداولها الكثيرون عنها وإعادة الثقة إلى المتحدثين بها وتذكيرهم بفضلها وعظمتها للتمسك باستخدامها ، دون غيرهــا ، في مجالات الحياة المختلفة علميا وعمليا كما كان أجدادنا يعتزون بها ولا يحولون أبصارهم عنها ، فأصبحت على أيديهم لغة العلم الأولى في القرون الوسطى ، وهي أهل لذلك دون أدنى شك . فضلا عن أن

[١] - (الروم : ٢٢) .

وصف اللغة العربية بالأمومة يحفظ لها – بما تتفرد به من سمات وخصائص – مكانتها الجديرة بها في نفوس أهلها كما تحظى الأم بالاحترام من أبنائها في كل زمان ومكان . وقد شغلت العوامل التي حققت للغة العربية هذه المكانة الرفيعة بين لغات العالم كثيرا من الباحثين عربا وأجانب ، فتوقفوا أمامها مليا محاولين تعليل صفة الكمال التي فطرت عليها منذ أقدم وجود لها توصل العلم الحديث إليه ، ومن أبرز هذه العوامل :

١ - قِدمها :

فاللغة العربية هي أقدم اللغات الحية زمنا وأطولها عمرا ؛ إذ نشأت في الجزيرة العربيــة التي يرى البعض أنها " مهد الإنسان ومهبط آدم " ، وفيها مكة التي وضع فيها أول بيت للنــاس " إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّـاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكــاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ " [١]. وقد وصف أهلها بالأميين ، (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ)[٢] ، وهو وصف يعني عدم معرفتهم القراءة والكتابة ، ويحتمل أن يكون بمعنى " أول قوم " نسبة إلى " أم " وعاش هؤلاء الأميون في البادية واستمروا دون انقطاع منذ آدم محتفظين بفصاحة ألسنتهم على مر العصور . وقد أذن إبراهيم للناس بالحج في مكة ، وكان نداؤه بلغة أهلها ، ولغة أهلها هي العربية كما عاش إسماعيل جد العرب في مكة ، وولد بها خاتم المرسلين – صلى الله عليه وسلم - وهي بلاد " الأدوميين " نسبة إلى آدم أبي البشر كما أن فيها " جدة " التي يتناقل سكانها ، على مر الأزمنة ، أن اسمها يدل على " جدة " البشر حواء وثبت حديثا أن حجم شعاع الشمس الساقط على هذه المنطقة الممتدة من مكة إلى وادي النوبـة = ٢٢٠ ألف سعر حراري شمسي في السنتيمتر المربـع سنويا ، أما في باقي المناطــق ، فيتدرج من ٢٢٠ ألف إلى ١٦٠ ألف ، ثم أقل فأقل . وهذا دليل على أن هذه المنطقة " مكة – جدة " هي المنطقة التي يفترض أن جليـد الكرة الأرضية قد ذاب عنها قبل سواها مما جعل اسمها " البادية : البادئة " [٣].

وهناك من يذهب إلى أن كون اللغة العربية لغة فذة ، فريدة في نوعها ، إنما يتأتى من " كونها اللغة التي أوقفت منذ بدء الخلق لأن تكون لغــة البشر المطلقة التي فطروا عليها أصلا وطبيعة ، لغتهم في الدنيا ، ولغتهم في الآخرة على السواء . وكون اللغة العربيـة لغة البشر المطلقة ؛ فإن ذلك يجعلها متمتعة تمتعا أصليا بمزايا مخصوصة ، طبعت عليها حقا وحقيقية ، وعرفت لها فعلا وواقعا . هذه المزايا الخاصة هي : القدم ، والتمام ، والجمال ، والقداسة ، والخلود " [٤] .

[١] - آل عمران : ٩٦ .
[٢] - الجمعة : من الآية ٢
[٣] - لغة آدم عطاء أبدي لبني البشر : محمد رشيد الذوق ، جروس برس ، طرابلس ، لبنان ، طبعة سنة ١٩٩٥ م ، ص ١٣٨ .
[٤] - اللغة العربية أم اللغات ولغة البشرية : إسماعيل العرقي ، دمشق ، طبعة سنة ١٩٨٥م ، ص ٩٦ .

ويضرب العقاد مثلا على أسبقية اللغة العربية باشتقاق أسماء الحيوان فيها ؛ إذ إن " اللغة التي ترجع الأسماء فيها إلى مصدر مفهوم من مصادرها تسبق اللغات التي تتلقى هذه الأسماء جامدة ، أو منقولة بغير معنى يؤديه لفظها الدال عليها في أحاديث المتخاطبين بها . وأسماء الأسد ، والكلب ، والصقر ، والغراب ، والفرس ، والحمار ، والبغل ، والجمل ، والخروف ، وعشرات غيرها من أسماء الحيوان هي كلمات ذات معنى يفهمه المتكلمون بها ويطلقونه أحيانا إطلاق الصفات عند المشابهة بين أحد هذه الحيوانات وغيره ، يقال: أسد الكلب للصيد : أغراه به ، وأسد عليه : اجترأ ، وأسد بين القوم : أفسد بينهم . ومعنى هذا على كل احتمال أن العرب عرفوا هذا الحيوان وهم يتكلمون بلغتهم هذه ، ويستخدمونها للوصف أو للاشتقاق والمجاز ، وكذلك معنى الكلب من العض أو القبض وسائر معاني التكالب وألفاظه ، والنسر من الجرح والنقض والتمزيق ." [1]

وهكذا عشرات الأسماء التي تدل على وجود هذه اللغة في أقدم عهد عرفت فيه الأمة العربية هذه الحيوانات ، وهو عهد بعيد في القدم . ويقابل هذا في اللغة الإنجليزية مثلا أسماء كلها منقولة من غيرها أو مقصورة على مسمياتها التي لا يعرض لها التصريف في لهجات الخطاب ؛ فالأسد lion من leo اللاتينية ، والحصان horse من ross الجرمانية ، وهكذا . ولا خلاف في دلالة أسماء الحيوان بألفاظها المشتقة على قدم اللغة العربية ، عند المقابلة بينها وبين اللغات الأوربية من أقدم عهودها التاريخية ، والعلم بالحيوان المستأنس أو الحيوان المتوحش أقدم شيء في لغات بني الإنسان ؛ فلا نستطيع أن نتخيل أمة بادية أو حاضرة عاشت زمنا طويلا قبل التاريخ بغير حيوانات مستأنسة أو حيوانات وحشية تسميها وتتحدث عنها ، فليس في تواريخ اللغات عهد أقدم من هذا التاريخ وفيه الكفاية للدلالة على انتشار اللغة وشيوع قواعد الاشتقاق والتسمية بين أبنائها في ذلك العهد السحيق .[2]

وهكذا يتضح أن اللغة العربية هي أقدم اللغات الحية ، ولكنها مع هذا القدم لم تثبت أو تجمد على حال وإنما سايرت روح كل عصر وعبرت عنه بحيث أصبحت نموذجا في التواصل والعطاء من خلال مخزون لا ينفد مع مرور الأيام ، وإنما يتجدد هذا المخزون ليوائم متطلبات كل عصر ، والدليل على ذلك أن القارئ العربي يستطيع أن يفهم اليوم ما كتب باللغة العربية منذ ألف وخمسمائة عام في حين لا يستطيع القارئ الإنجليزي مثلا فهم اللغة التي كان يكتب بها شكسبير منذ حوالي أربعمائة عام فقط !

---

[1] - أشتات مجتمعات : عباس محمود العقاد ، مرجع سابق ، ص ١٨ .
[2] - السابق ، ص ٢٠ .

٢ - وجود بعض الشواهد في لغات العالم المختلفـة : قديمها ، وحديثها ، تدل على تأثرها ببعض ملامح اللغة العربية الأم :

من أوائل الذين نادوا حديثا بأن للغة العربية أصالتها المؤثرة في ألسنة اليونـان والرومـان والفرس والنبط الأب أنستاس مـاري الكرملي ، صـاحب كتـاب " نشوء اللغة العربية ونموها واكتمالها " الذي طبع عام ١٩٣٨م .

وإذا كان سائغا – كما يرى الدكتور عبد الصبور شاهين - القول بتأثير العربية في الفارسية والقبطية ، نتيجة الجوار أو القرابة ، فإن أحدا لم يكن يتصور أن يجد ملامح واضحة لتأثيرها في اللغة الإغريقية أو الرومانية ، ولكن المؤلف أجهد نفسه حقا طيلة حياته للبرهنة على هذه الفكرة ، وقد كان متمكنا من عدة لغات أوروبية وسامية ، بالإضافة إلى تخصصه في الإغريقية واللاتينية .[١]

وينتهي الكرملي من خلال المقارنات اللغوية التي قام بها ، تدليلا على عطاء العربية السخي الذي بذلته لألسنة الأمم المختلفة ، إلى الفكرة الآتية : " كل كلمة ذات هجاء (مقطع) أو هجاءين في الرومية أو اليونانية ، ولم تكن من أصل منحـوت ، بل من وضع أصيل ، أو توقيفي ، فلا بد من أن يكون لها مقابل في لغتنا المُضَرية " . وتمشيـا مع هذه الفكرة ، راح يثبت أن أصول اللغات الأجنبية إنما مردها إلى اللغة العربية ؛ فكلمة مثل (then) الإنجليزيـة ما هي إلا (إذن) العربيـة و (tail) هي هي (ذيل) وكلمـة (Deus) بااللغة اللاتينيـة بمعني (الله) موافقة لكلمة (ضوء) باللغة العربية ، والسين في آخرها علامة إعراب ، وكلمة (hode) الإغريقية بمعنى : الغناء ، أصلها كلمة(الحداء) العربية وهكذا .

وفي هذا الصدد ، يرى بعض الباحثين أن " من لم يقارن اللغة العربية بغيرها من لغات العالم يتصور أن معظم اللغات تسير على نفس المنهج والحقيقة غير ذلك تماما ، فالمقارنة بين اللغات تبين أن اللغة العربية فريدة في تكوينها ، وبالتالي في قدراتها . كما تبين أنها احتفظت بمزايا لا توجد في سواها . وفي نفس الوقت تبين الثغرات والنقص في اللغات الأخرى ، وتبرهن أن جميع لغات العالـم اشتقت من العربية ثم تحولت لأسباب تاريخية وجغرافية مع مرور الزمن إلى ما هي عليه اليوم . ولذلك نجد بها آثارا كثيرة من اللغة العربية لا جدال – كما نجد مـا تغير وما تحول وما ضاع ومـا تبدل . كما نجد أن حجم معظم هذه اللغـات عبارة عن جزء يسير من اللغة العربية ، حوالي ١٠% أو أقل " .[٢]

---

[١] - في التطور اللغوي : د. عبد الصبور شاهين ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، طبعة ١٩٩٠ م ، ص ١٢٤ .
[٢] - من غيب اللغة والتاريخ : تحية عبد العزيز إسماعيل ، بدون تاريخ ، سنة الإيداع ١٩٩٥ م ، ص ١٥ .

وقد أوردت كثيرا من " الألفاظ المشتركة " بين اللغة العربية والإنجليزية ، وبين العربية واللاتينية ، وبين العربية والهيروغليفية ، وبين العربية والألمانية ، وبين العربية والأنجلو- سكسونية ، وبين العربيـة والفرنسيـة ، وبين العربية والأوروبية القديمة ، وبين العربية واليونانية وبين العربية و السنسكريتية ، وخرجت منها بنتيجة قاطعة ، هي أن اللغة العربية كانت الأصل والمنبع ، وأن جميع اللغات الأخرى كانت قنوات وروافد منها ؛ مستندة في ذلك على سعة اللغة العربية وغنى معجمها ؛ ففي الإنجليزية مثلا لفظ"tall " تشبه في نطقها كلمـة " طويل " ، وكذلك كلمة" good " تشبه " جيد " ... وهكذا[1] .

غير أن كثيرا من الافتراضات والتخمينات التي حاول البعض أن يثبت بها أن اللغة العربية هي اللغة الأم ، وأن لغات العالم ما هي إلا (لهجات) منها ، لم تسلم من التعسف في تأويل كثير مما انتهت إليه ؛ لقيامها على غير أساس علمي أو أدلة يؤيدها الواقـع التاريخي ، كمحـاولـة الكرملي رد أصل كلمة (cum) اللاتينيـة إلى الظرف (مع) في العربية قائلا : وما (كُم) إلا معكوس (مك) المقابل لأداتنـا (مع) وذلك أنه ليس للغربيين الحرف (ع) ، فيحارون في نقله إلى لغتهم ، وقد نقلوه هنا إلى الكاف ، فقالوا كُم cum !

ومن ذلك أيضا ، وإن كان لا يخلو من طرافة في التأويل ، محاولة البعض رد اسم " أمريكا " إلى أصل عربي هو " أميرجو " وهو اسم مكتشفها الحقيقي أمريجو أو أمريكو فيستوبيتشي Amerigo Vespucci ، وهو تحريف الاسم العربي أمير[2] ! و منه أيضا محاولة إرجاع أقدم ديانة عرفتهـا الهنـد وهي ما يطلق عليها " الفيدا " إلى أصـول عربية ؛ لمجرد تشابهها في النطق مع كلمة " الفايدة – الفائدة " التي تفيد اللفظ والمعنى ! و كذلك تفسير " النرفانا " في الديانة البوذية بأنها " نور فنـاء " العربية ! و " شيفا " إله القتل - الذي حار فيه الهنود- بأن مصـدره كلمة " سيف " العربية ! ، وأن كلمة " Atom " بمعنى الذرة إنما أصلها " قطم " العربية بمعنى قطع والهمزة الأولى زائدة بمعنى النفي في اليونانية .

ويعد من هذا القبيل ، وإن كان أكثر تندرا وطرافة ، أن يرد بعضهم اسم الأديب الإنجليزي " شكسبير " إلى أصل عربي ، هو " شيخ زبير " ، وأن يرى البعض أن كلمة " أنفلونزا " ما هي إلا " أنف ال عنزة " !

ولا قيمة تذكر في محيط الدرس اللغوي لمثل هذه التخريجات التي يركب أصحابها متن الشطط ، على نحو ما رأينا ، والأولى أن توجه الجهود المبذولة في الاهتداء إليها إلى التعمق في دراسة خصائص اللغة العربية وقضاياها من منظور

---

[1] - اللغة التي تكلم بها آدم : د. مصطفى محمود ، مقالة بجريدة الأهرام المصريـة ، بتاريخ ١٦ / ١٢ / ١٩٨٩

[2] - السابق : ص ٦٤ .

عصري يتواكب مع الاهتمام العالمي بالعلوم اللغوية في التقنيات الحديثة التي تشكل الركيزة الأساسية في وسائل التكنولوجيا المتقدمة ، لتأكيد قدرتها على استيعاب العلوم المستجدة ، وهضم المصطلحات التي تترى عليها في كل يوم وليلة ومن كل صوب وحدب .

تلاقح اللغات :

لا أحد يستطيع أن ينكر أن اللغات تتلاقح كلما اتصلت إحداها بالأخرى بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، وأن أية لغة من اللغات في العالم كما تؤثر في غيرها ، فإنها أيضا تتأثر .

ومن الثابت أن سلطان العرب - في عهد الدولة العباسية - قد امتد جغرافيا من أسبانيا والبرتغال غربا إلى حدود الصين شرقا ، ومن سفوح الأناضول شمالا إلى أواسط إفريقيا جنوبا ؛ فانتشرت اللغة العربية وارتفع شأنها برفعة أهلها ، وتمثلت حضارات الأمم السابقة في آسيا وإفريقيا وأوروبا ، وامتازت – كما يذكر الدكتور شوقي ضيف - بحيوية متأججة نفاذة بحيث لم تنازل لغة أيام الفتوح الإسلامية إلا ظفرت بها . ظفرت في العراق باللغتين الآرامية والنبطية ، وفي إيران باللغة الفارسية ، وفي الشام باللغتين السريانية واليونانية ، وفي مصر باللغتين الديموتيقية واليونانية ، وفي تونس وما وراءها بالمغرب باللغتين البربرية واللاتينية ، وفي الأندلس باللغة الرومانثية الإسبانية ، وأهل كل هذه البلدان شرقا وشمالا وغربا زايلت لغاتهم ألسنتهم ، وحلت مكانها العربية ، واتخذوها للتعبير عن مشاعرهم شعرا ونثرا ، وعن عقولهم وألبابهم فكرا وعلوما وسياسة " [1] .

ولقد كانت العربية - كما يقرر الدكتور عبد الصبور شاهين - أكثر اللغات حضارة وتقدما ، وكان لها ابتداء من القرن الرابع الهجري ، والعاشر الميلادي ، تأثير كبير في اللغات الأوروبية ، استمر طيلة وجودها في الطرف الجنوبي من أوروبا ، في الأندلس ، وصقلية ، وما حولهما من الجزر حتى آخر القرن الخامس عشر . وإذا كان وجود العربية قد تقلص من تلك البلاد ، فإنه قد ترك بصماته على ألسنة أهلها المتكلمين بالأسبانية ، أو البرتغالية أو غيرهما من اللغات المحلية حتى الآن . بل لقد تركت العربية تذكارا في تلك المنطقة لن يمحى على مر الزمان وهو ملك اللغة المالطية التي هي في الحق لغة عربية النظام والمعجم .[2]

وقد أقر الكاتب الفرنسي بيير جيرو بتأثير اللغة العربية على اللغة الفرنسية وقدم قائمة من مائتين وثمانين كلمة دخلت من العربية إلى الفرنسية في العصور المختلفة ، منها : Coton – Amiral - Calife ... إلخ وقد تتبع بعض

[1]- " اللغة العربية في مواجهة القرن الحادي والعشرين " : د. شوقي ضيف، الأهرام بتاريخ ١٩٩٧/١٢/٥ م .
[2] - دراسات لغوية : د. عبد الصبور شاهين ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ١٩٧٨م ، ص ٢٧٩ .

الباحثين تاريخ دخول الكلمات العربية في المعجمات الفرنسية ، والوسائل والطرق التي دخلت من خلالها إلى فرنسا ولغتها ، مؤكدا على توثيق تلك المعلومات وإسنادها بالدليل العلمي المتوفر ، وقدم قائمة حوت أكثر من ستمائة كلمة [١] .

ولم تكن اللغة الإنجليزية بمنأى عن تأثير العربية فيها لأن الغزو العلمي العربي – كما يذكر الدكتور عبد الصبور شاهين - لم يترك مكانا في أوروبا دون أن يبلغه . وهكذا وجدنا في الإنجليزية قدرا كبيرا من الكلمات ذات الأصول العربية ، يصل بها بعض الباحثين إلى بضع مئات ، دخلت الإنجليزية مباشرة ، أو بالواسطة ، ولكن صلة العربية بالإنجليزية بدأت متأخرة ، في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي ، ولمدة خمسة قرون على الأقل بعد ذلك .

وفي بحث قدمه الأستاذ أنيس المقدسي إلى مجمع اللغة العربية تعرض لتحقيق مائة وأربعين لفظة عربية واردة في معاجم اللغة الإنجليزية ، وهي ألفاظ تسجل ظاهرة تسرب العربية في الإنجليزية في العصر الوسيط ، كما تتجلى فيها ظاهرة أخرى يمكن أن يطلق عليها " إعادة الاقتراض " ، حيث نجد أن اللفظ العربي الأصيل ، قد اقترضته الإنجليزية مثلا ، وصبغته بصبغتها النطقية ، ثم أعادت تصديره إلى العربية على غلاف المنتجات الحضارية الجديدة ، فإذا بنا ننطقه بملامحه الأجنبية . ومن ذلك مثلا : الأصل العربي (صك) تحول في النطق الأجنبي إلى Cheque ، فأصبح النطق العربي المعاصر له : (شيك) وهكذا . وهذا النوع من إعادة الاقتراض يسجل مرحلة من التخلف العربي فصلت الشعوب العربية عن جوها الحضاري الذي عاشت فيه مع مصطلحات العلم والحضارة قرونا عديدة ، ولو استمر تقدم العرب على مدى الزمن لبقيت هذه الألفاظ بصبغتها العربية على ألسنة الناس ، دون حاجة إلى معاودة استيرادها إلى حقلنا اللغوي [٢] .

فإذا انتقلنا أيضا إلى اللغتين الإسبانية والبرتغالية ، وجدنا الأب جان دي صوصة (ت ١٨٤٢م) قد صنف " معجم الألفاظ الإسبانية البرتغالية المشتقة من العربية " وحوى هذا المعجم حوالي ثمانية عشر ألف كلمة مشتقة من أصل عربي ، ففي اللغة الإسبانية مثلا " Alfarez = الفارس ، و Alberca= البركة ، و Alcaide = القائد ... إلخ . فضلا عن كثير من أسماء المعالم ، والبلدان ، والأنهار [٣] .

[١] - الفرنسية أصلها عربي (المعجم الفرنسي ذو الأصل العربي) : د. توفيق عزيز عبد الله ، دار مواقف عربية ، لندن ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٤ .

[٢] - دراسات لغوية : د.عبد الصبور شاهين ، مرجع سابق من ص ٢٨١ إلى ص ٢٨٤ .

[٣] - الإسلام في إسبانيا : أحمد لطفي عبد البديع ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، طبعة سنة ١٩٦٩م ، ص ١١٢ .

وعلى الرغم من تقدير أهمية هذين العاملين وهما قدم اللغة العربية وتتبع آثارها في اللغات الأخرى ودورهما في تبوء اللغة العربية مكانة متفردة بين لغات العالم ، فإنهما – أي : هذين العاملين – وحدهما لا يقدمان الدليل العلمي المقنع على أمومة اللغة العربية ؛ فالقدم في حد ذاته لا يعني التفرد سوى من منظور تاريخي لا فضل للعربية فيه ، أما استقصاء الشواهد واصطيادها من هنا وهناك لإثبات تأثر اللغات باللغة العربية ، فلا يقدم كثيرا للبحث اللغوي لأنه يقوم – في معظمه – على تخمينات وافتراضات أو اجتهادات شخصية لا يصادف الكثير منها محلا من الواقع أو التاريخ كما رأينا ، لا سيما أن اللغات في العالم جميعها تتلاقح بصورة أو بأخرى ، والعربية ليست بدعا في ذلك بين اللغات حيث تـأثرت هي الأخرى - وما زالت – ببعض اللغات التي ما انفكت تقض مضجعها بعد أن تخاذل الأهلون في الذود عن حياضها ، ولو أننا ، من المنطلق نفسه ، حاولنا أن نتتبع بعض الألفاظ الدخيلة التي شاعت في اللغة العربية دون أن تكون من مصدر عربي ، لصادفنا الكثير ، ومنها ، على سبيل المثال لا الحصر : أستاذ ، وكهرباء ، وسرداب ، وبرنامج ، وكبريت (من الفارسية) ، وموسيقى ، وقانون ، وقيراط ، وأطلس (من اليونانية) ، وبطاطس ، وفانوس ، وكوبري وقنبلة (من التركية) ، ودينار ، ومنديل ، وقنصل (من اللاتينية) ، وماجستير ، وبركان ، وشفرة ، ولمبة ، ومليون (من الفرنسية) ، وفستان ، وسيجارة ، وبورصة ، ومكرونة (من الإيطالية) ، وبلوفر وهستيريا وفيلم (من الإنجليزية) وجلباب (من الحبشية) ، وبطيخ (من الآرامية) ومازوت (من الروسية) وقرش (من الألمانية) وشاي (من الصينية) وهكذا .

ونحن على يقين من أن تفرد اللغة العربية إنما تثبته وتؤكده أيضا خصائصها وسماتها الذاتية التي عرفت بها منظومتها قديما وحديثا وستظل هذه السمات والخصائص الذاتية شاهدا " من أهلها " على تفردها وتميزها بين جميع لغات العالم سواء على مستوى الأصوات أو المفردات أو التراكيب .

خصائص اللغة العربية وسمات تفردها بين لغات العالم :

أولا - على مستوى الأصوات :

يتسع النظام الصوتي في اللغة العربية لجميع مخارج جهاز النطق الإنساني من أقصى الحلق إلى الشفتين ، ولئن كانت أقصى منطقة في جهاز النطق من جهة الحلق والقصبة الهوائية يخرج منها صوت في اللغة الإنجليزية ، هي مخرج صوت الـ (g) ، فإن مخارج الأصوات العربية تمتد بعده إلى أوسط الحلق فتصدر العين والحاء ، وإلى أقصاه فتصدر الهمزة والهاء .

واللغة العربية من أثرى اللغات في العالم من حيث عدد الأصوات ؛ ففيها ٣٤ صوتا لغويا مستعملا (٢٨ صوتا جامدا ، و٦ حركات) ، بينما في اللغتين الإنجليزية والفرنسية تسعة وعشرون صوتا ، وليس من شك في أن زيادة عدد الأصوات في لغة يعني " زيادة فرص تكوين المواد اللغوية مما يتيح لمستخدمها أن يبسط وجوده الفكري إلى آفاق أرحب مما تتيحه غيرها " [١] .

وتشترك اللغة العربية مع غيرها من لغات العالم المختلفة في وجود بعض الأصوات ، كالباء ، والتاء ، والراء ، والسين ، والزاي ، والفاء ، والكاف ، واللام والميم ، والنون ، والهاء ، وغيرها بينما تكاد تنفرد بحروف العين ، والحاء والظاء ، والضاد التي لا توجد - كما يقول المستشرق برجستراسر- في لغة من اللغات إلا العربية " ، ومن ثم صارت لقبا تعرف العربية به دون سائر اللغات فيقال (لغة الضاد) .

وتتوزع الأصوات العربية على مخارج جهاز النطق الإنساني من أوله إلى آخره ؛ فتبدو متآلفة منسجمة مما ييسر عملية النطق بها دون أدنى إحساس بالتنافر أو الالتباس .

فالشفتان يخرج منهما الباء والميم في حال انطباقهما ، والواو في حال استدارتهما ، أما الأسنان فيخرج من بينها الذال والثاء والظاء ، ومن خلفها مع رأس اللسان الدال والتاء والطاء ، كما تخرج حروف الصفير : الزاي والسين والصاد ، ومن بين الشفة السفلى والأسنان العليا تخرج الفاء ، أما الحنك فيخرج من أوله مع رأس اللسان اللام والنون والراء ، وهو صوت تكراري، ومن وسطه الشين والجيم والياء ، ومن أقصاه القاف والكاف والعين والخاء ، ومن طرف اللسان مع الأضراس تخرج الضاد ، أما الحلق فيخرج من أوسطه العين والحاء، ومن أقصاه الهمزة والهاء .

ولا نجد في كلمة عربية صوتين من مخرج واحد يتتاليان مجتمعين في بدايتها أو نهايتها ؛ فلا تجتمع مثلا زاي وظاء ، أو سين وصاد ، أو ذال وظاء ... إلخ " فالعرب تميل عن الذي يلزم كلامها الجفاء إلى ما يلين حواشيه ويرقها . وقد نزه الله لسانها عما يجفيه ، فلم يجعل في مباني كلامها جيما تجاورها قاف متقدمة ولا متأخرة ، أو تجتمع معها في كلمة صاد أو كاف إلا ما كان أعجميا أعرب ، وذلك لجسأة أي خشونة هذا اللفظ ومباينته ما أسس الله عليه كلام العرب من الرونق والعذوبة " [٢].

[١] - خصائص اللغة العربية : محمد حسن جبل ، مرجع سابق ، ص ٤٢ .
[٢] - السابق : ص ٥٢ .

كما لا نجد مخرجا يزدحم عليه أكثر من حرف كما هو الحال في الإنجليزية التي تزدحم فيها الباءان : الخفيفة (b) ، والثقيلة (p) ، أو(f)- (v) على مخرج واحد . كما لا يوجد صوت يستخدم في نطقه أكثر من مخرج مثل حرف (x) في اللغة اليونانية الذي ينطق (تشي) ، وهو عبارة عن نطق تاء وشين .

وتتميز القواعد الصوتية في اللغة العربية – كما يرى الدكتور نبيل علي - بالاطراد ، ويتميز نظام مقاطعها ونبرها بالبساطة ؛ " إذ إن جميع هذه المقاطع لا بد أن تبدأ بحرف صامت ، ولا تتضمن أكثر من صامتين ، وتحديد مواضع النبر في الكلمة العربية يتوقف على سلسلة حروف الكلمة دون اعتماده على عوامل خارجية ، مثل اعتماد مواضع النبر في بعض الكلمات الإنجليزية ، مثل نطق (progress) في حالة الفعل ، ونطقها في حالة المصدر ".[١]

ولم تعهد غزارة تأليف في الجانب الصوتي للغة من اللغات ، وفي تراث أمة من الأمم ، كما هي معروفة عند العرب ، وقد توفر عليه سواء بسواء علماء العربية ، وعلماء القراءات الذين ضربوا بسهم وافر في هذا العلم الذي نشأ في كنف القرآن الكريم من خلال تناولهم لأحكام التجويد ، الذي يعني عندهم إخراج كل حرف من مخرجه الصحيح ، وإعطاءه حقه في النطق ومستحقه ، واعتبروا من شروط القراءة الصحيحة أن توافق " العربية " ولو بوجه .

وما انفك بعض مقرئي القرآن الكريم النابهين يضربون المثل على عبقرية اللغة العربية في الأداء الصوتي ، وتأثير القرآن الكريم ، الذي لا يتهاون المسلمون في أي تغيير يطرأ على طريقة أدائه ، في المحافظة على خصائص الأصوات اللغوية ، وتسجيل كثير من ظواهر اللهجات . ولكن نفرا من هؤلاء المقرئين تأخذهم النشوة أحيانا فيعمدون إلى المبالغة في تلحين وتنغيم هذه الأصوات ليبروزا (مواهبهم الدفينة) في القراءة ، فيحملون الصوت العربي أكثر من طاقته ، ويشوهون معالم النطق به ، وأولى بهم وهم حملة القرآن الكريم أن يحافظوا على قوة الصوت العربي وبهائه حرصا على لغة القرآن الكريم من العبث والتحريف .

ومما يجدر التنويه به والتأسي عليه في هذا المقام ، الدور الذي كانت – ويا ليتها دامت - تضطلع به مكاتب تحفيظ القرآن " الكتاتيب " في تعليم ونشر اللغة العربية – صوتا وحرفا - في ربوع مصر والوطن العربي .

فقد كان " الكُتَّاب " حتى عهد قريب هو المصدر الأول لتعلم القراءة والكتابة لاسيما في المناطق الريفية ولكن في ظل تعدد مصادر المعرفة الحديثة ،

---

[١] - العرب وعصر المعلومات : د. نبيل علي ، مرجع سابق ، ص ٣٥٥ .

وتفتح الأذهان ، وجد الكتاب نفسه في حيص بيص ، فلا الشيخ هو هو (شيخ زمان) ، بعد أن خالطت لسانه عجمة وسائل الإعلام ، ولا الطفل بقي على سذاجته وجهله وطوعه للشيخ في كل ما يأمر به . فالطفل اليوم يناور ويحاور ، يلف ويدور ، يقبل ويرفض ، يأخذ ويترك ، وكأنه قد سبق زمان (سيدنا) سنين عددا . وقد أدت هذه المتغيرات إلى إدخال بعض التعديلات في نظام الكُتَّاب وأدواته ، فاختفى (اللوح) أو كاد ، وحلت محله الكراسة والورقة ، وانقرض قلم البوص (الريشة) ، بعد أن انتشر " الجاف " و" الرصاص " ، واستبدلت بالحصر الكراسي والأرائك .

كما أن كثيرا ممن نعموا بخيرات الكتاب قد انقلبوا عليه ، بعد أن استبدت بهم نظريات وطرق التعليم (الحديثة) ، وأعلن الأشاوس حربهم الضروس على طريقة (العصا لمن عصى) ، فانقسم الناس بسبب آرائهم إزاء (الكُتاب) إلى قسمين ، أحدهما يرى ضرورة الإبقاء عليه ، لأنه الوسيلة الأولى لحفظ النص القرآني في أذهان التلاميذ ، والآخر يرى أن " تنمية الذاكرة على حساب الفهم والذكاء أشبه برأس مال مدفون لا يجلب ربحا " ، وراجت من ثم الدعوة إلى انتشار طرق ومناهج التعليم المستحدثة من خلال (K.G.١) و (K.G.٢) ، كما زادت الحملة على الكتاتيب في ظل المحاولات المستميتة لتفريغ الأمة من جوهر هويتها ، والحيلولة بين النشء وحفظ كتاب الله .

وقد أدى هذا التربص والتخبط في الرأي ومحاولة الشيوخ أن يسايروا العصر ، إلى تميع شخصية الكُتاب ، وأصبح كالمنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى ، ولكن المجني عليه في ذلك هي رغبة التلامذة في حفظ القرآن الكريم .

ومنذ عهد قريب كانت الآذان تطرب لسماع نبأ طفل حفظ القرآن ولم يتعد سنه السادسة ، أما الآن ، فقد يبلغ الطفل السادسة عشرة دون أن يكون ملما بقصار السور ، وأذكر أنني طلبت إلى أحد طلاب الثانوية العامة من الذين تلقوا تعليمهم الأول في هذه " الكيجيهات " ، أن يذكر لي سورة الفلق التي لم أشك لحظة في أنه يحفظها عن ظهر قلب ، فكانت المفاجأة – ويا لهول المفاجأة – أنه لا يحفظ منها غير الآية الأولى : " قل أعوذ برب الفلق " التي كان ذووه يعلقونها في (برواز) على الحائط أو يرددونها أمامه لتقيهم شر عين الحسود !

وهكذا أصبح كثير من الشبان مخوخين مهششين ، لا يقوون على حفظ القرآن ، فضلا عن تدارس أحكامه ، وانزوى الإحساس بالغيرة على الدين ، واختلط الحابل بالنابل في مناهج التربية والتعليم ، ولم يبق أمامنا غير العودة إلى الجذور بعد أن أظهرت التجارب الواقعية خطر الانفلات منها ، وما أحوجنا اليوم إلى أن نعيد النظرة إلى الكُتّاب ، نظرة إجلال وتقدير لدوره المهم في تحفيظ

القرآن الكريم وتعلم أبجديات القراءة والكتابة فضلا عن تلقي ألفاظ اللغة شفاهة والتدريب المستمر على نطقها الصحيح .

وقد صنفت تحت عنوان " الأصوات " مؤلفات وشروح وتعليقات تناولت صفات الأصوات ، وأنواعها ، ومخارجها ... إلخ ، وجاء بعضها في الفرق بين صوتين فقط من هذه الأصوات ، مثل : " زينة الفضلاء في الفرق بين الضاد والظاء " لابن الأنباري ، بل عرف بعضها باسم صوت من هذه الأصوات، مثل " العين " للخليل بن أحمد الفراهيدي ، وفيه جمعت كلمات اللغة ورتبت على أساس صوتي حسب مخارجها في جهاز النطق، و" الجيم " لأبي عمرو الشيباني ، و" الميم " للبوني ، وغيرها ، ولابن سينا رسالة يصف فيها " مخارج الحروف وأسباب حدوثها "، من خلال معارفه العلمية والطبية ، وقد ترجمت بعدد من اللغات ، منها الإنجليزية ، والفارسية ، وليس ذلك إلا دليلا على ثراء العربية وغناها في مجال الأصوات .

نظام الكتابة العربية :

عندما يعبر عن الأصوات العربية بالحروف المكتوبة ؛ فإن نظام الكتابة في اللغة العربية يعد من أفضل النظم الكتابية في جميع اللغات ، وذلك للأسباب الآتية :

أ- لتمتعه بالخاصة الاختزالية :

ويقصد بها الإيجاز - الذي يلائم – لا شك – ما يتميز به عصرنا الحالي في شتى المجالات من " سرعة " ، وهو من السمات العامة للغة العربية ، كما سيأتي ، ومن مظاهر هذا الإيجاز :

أ – التعبير عن الحركة الطويلة برمز واحد لكل صوت كالياء التي في سعيد والواو التي في محمود بينما في لغة ، كالإنجليزية ، يعبر عنها برمزين أو حرفين مثل : moon ، و meet .

ب – الاستغناء بعلامة التشديد (ـّ) عن تكرار الحرف ، كما في علّق ، واتّصل بينما لا تراعى غيرها من اللغات ذلك Comment و Connect .

ج – قلة حجم الحرف العربي في حال اتصاله بغيره من الحروف في الكلمات ، وربما تركب مع الحرف الآخر فوقه أو تحته ، فيقل الحيز الذي يشغله .

د – ليس في اللغة العربية حروف صامتة تنطق ولا تكتب ، اللهم إلا في بعض الكلمات التي تعد على أصابع اليد، مثل الواو الملحقة بـ " عمرو " ، وألف واو الجماعة " دخلوا " ، واللام الشمسية " السماء "، في حين تنتشر هذه الحروف

الـ (silent) ، في كلمات لغة كالإنجليزية ، مثل حرف (H) في كلمة مثل " School " و (w) في مثل " Write " و (T) في مثل " Listen " و (K) في مثل " Know " و(b) في مثل " Dowbt " و(L) في مثل كلمة "Follow " و (S) في مثل" Island " و (gh) في " Right " و " through " و " Slight "... إلخ .

ب - لدقته :

ومن مظاهر هذه الدقة :

أ - أن الرموز في الكتابة العربية تمثل الحروف (الوحدات الصوتية) أدق تمثيل ، على الرغم من تعدد الصور النطقية لبعضها ؛ فـ (النون) مثلا تنطق بعدة أصوات من مخارج مختلفة ، فهي في مثل " أنا " تنطق من اللثة ، وفي مثل " ينفع " تخرج من ملتقى الشفة والأسنان العليا ، على حين أن اللسان يخرج في أثناء النطق بها في كلمة ، مثل : " ينذر " أو " ينظر " ... وهكذا ، وقد عبرت الكتابة العربية عن هذه الأصوات كلها برمز واحد هو النون (ن) ، موجهة عنايتها إلى الحرف في عمومه دون الأصوات في خصوصها ، وتلك درجة عالية في دقة التعبير الكتابي لا مرية في ذلك ولا جدال .[1]

ب - أن كل حرف في الكتابة العربية يرمز إلى صوت واحد لا أكثر؛ يقول فولتير : " الكتابة صورة الصوت ، فكلما كانت أكثر شبها به ، كانت خيرا " ؛ فلا نجد في الكتابة العربية رمزين يشيران إلى حرف واحد أو رمزا مركبا لصوت مفرد ، كما في الكتابة الإنجليزية ، حيث تنطق (TH) ثاء في مثل كلمة " Through " و ذالا في مثل " Though " ، كما تنطق (PH) فاء في مثل " Photo " ، و(ION) شينا في مثل " Education " ... وهكذا .

كما لا يوجد في اللغة العربية رمز مكتوب لا ينطق بغير قيمته الصوتية ، فرمز (س) يدل على صوت واحد هو السين ، بينما في الإنجليزية نجد حرفا، مثل " C " ينطق سينا في مثل " City " كما ينطق كافا في مثل " Cat " ، وحرفا مثل (S) ينطق زايا في مثل " Is " وصادا في " Salt " ، وشينا في " Sure " ... إلخ .

ج – ارتباط بعض الحروف بدلالة الكلمات التي ترمز إليها ، فالسين مثلا في آخر الكلمة تدل على المعاني اللطيفة كالهمس والوسوسة والنبس والتنفس والحس والمساس ... إلخ ، والميم تدل على التشديد والقطع ، كما في " الحتم والحسم

[1] - اللغة الباسلة : د. فتحي جمعه ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ، سنة ١٩٩٩ م ، ص ٢٥٥ .

والجزم والعزم والكظم ... إلخ ، والحاء تدل على السعة ، حين يلفظ الفم بكلمات الارتياح والسماح والفلاح والنجاح والفرح والمرح والصفح والفتح ... إلخ .[1]

ج - لصلاحيته لكتابة اللغات من شتى العائلات اللغوية :

فالحروف العربية – كما يقرر العقاد - أصلح من الحروف اللاتينية أضعافا مضاعفة لكتابة الألفاظ والأصوات ؛ لأنها تؤدي من أنواع الكتابة ما لم يعهد من قبل في لغة من لغات الحضارة .

وعلى كثرة اللغات والعائلات اللغوية التي تؤديها الحروف العربية ، لم يزل ضبطها للألفاظ أدق وأسهل من ضبط الحروف اللاتينية التي تستخدم لكتابة عائلة لغوية واحدة ، وهي العائلة الهندو- أوروبية ، فالإسباني يقرأ الإنجليزية على حسب قواعد لغته فيحرفها كثيرا ويبلغ من تحريفها مبلغا لا نعهده في نطق الفارسي الذي يقرأ العربية ، ولا نعهده في نطق العربي الذي يقرأ الفارسية بحروفها ولو لم يكن على علم بمعانيها[2] .

ومن محاسن الحروف العربية التي يذكرها الدكتور إبراهيم مصطفى في " قصة الكتابة العربية " ، شدة حيويتها الناشئة من مطاوعتها واستدارتها ، وانبناؤها جميعا على أصل هندسي ثابت وقاعدة رياضية معروفة . فأصل الحروف العربية الألف التي هي خط مستقيم جعلوه قطرا لدائرة ، أما بقية الحروف فهي أجزاء من الدائرة المحيطة بهذا القطر منسوبة إليه ، لو أعيدت الحروف إلى التسطيح وأزيل تقوسها لكانت كلها من الألف بنسبة معينة ثابتة . فالباء وأخواتها مثلا ، كل واحدة منها يجب أن يكون تسطيحها إذا أضيف إليها سنها وتشعيرها مساويا لطول الألف ، والجيم وأخواتها مقدار مدتها في الابتداء لا يقصر عن نصف طول الألف ، وكذلك الدال وأختها كل واحدة منهما يجب أن يكون مقدارها إذا أزيل ما فيها من انثناء وأعيدت إلى التسطيح غير متجاوز طول الألف ولا مقصر دونه ، والصاد وأختها مقدار عرض رأس كل منهما في مداها مثل مقدار نصف الألف ، وفتحة البياض فيها مقدار ثمن الألف أو سدسه ، وتعريفها إلى أسفل (استدارتها أو كاستها) مثل نصف الدائرة المحيطة بالألف .

---

[1] - أشتات مجتمعات : عباس محمود العقاد ، مرجع سابق ، ص ٤٣ . وقد لاحظ الشاعر رشيد الخوري أن الحاء في أول الكلمات تدل على أشرف المعاني وأقواها ، كما في : حق ، حب ، وحرية ، وحكمة ، وحلم ... وهي من حروف الحلق التي يصعب نطقها على غير العرب ، ومن أجل ذلك رأي أن الأولى أن تنسب لغتنا إليها، فنقول لغة الحاء ، بدلا من قولنا لغة الضاد !

[2] - أشتات مجتمعات : عباس محمود العقاد ، مرجع سابق ، ص ٣٧ .

ومهما قيل في شأن حروف الأمم الأخرى من أنها تجري بدورها على أساس هندسي أو جمالي معين ، فليست كلها ببالغة ما بلغته الكتابة العربية في هذا المضمار . ولا نظن أمة من الأمم قد أولت الكتابة هذه العناية فجعلت منها فنا دقيقا مفصل القواعد ثابت الأسس مقرر الضوابط مثل أمة العرب ، ولا نخال خطا أفاض نقاد الفنون في وصفه وتشريح أجزائه ، وإبراز معاييره الجمالية ، وإثبات خصائصه ، وما ينبغي أن يكون عليه ، مثل الخط العربي .[١]

فالخط العربي إذن خط " عالمي " ، وقد تحققت له هذه العالمية بفضل الإسلام ؛ حيث انتشر في ركابه أينما حل ، واستخدمته شعوب غير عربية في كتابة لغاتها : سامية ، وغير سامية . وقد حصر الأب رفائيل نخلة اليسوعي اللغات التي تكتب بالخط العربي في العالم ، فوجدها سبعا وثلاثين لغة تنتشر في آسيا وإفريقيا وأوروبا .

فمن اللغات الآسيوية ذات الحروف العربية في كتابتها اللغة الفارسية (في إيران) والبشتو (في أفغانستان) والتاميلية (في جنوب الهند وجزيرة سيلان) والأردية (وهي صورة أدبية للغة الهندوستانية في شمال الهند) والجاوية (لغة جزيرة جاوة والفليبين) والمالاوية (في ماليزيا) ... إلخ ، وكانت التركية تكتب بالحروف العربية حتى عام ١٩٢٨م حين أحل أتاتورك الحروف اللاتينية محلها ، وفي أوروبا تكتب بعض لغات روسيا ، كالقازانية في الشرق ، والنوكائية في الجنوب، بالحروف العربية ، أما في إفريقيا فتكتب بها اللغة السواحلية في الشرق والهوسا في نيجيريا وتشاد ، والفلانية في السنغال وغينيا ... إلخ .[٢]

وقد أدرك أبناء اللغة العربية قديما مرونة وجمال النظام الكتابي للغتهم ، فتباروا في جودة الخط ، ليس في كتابة القرآن الكريم فحسب بل في جل تعاملاتهم الكتابية ، ورويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوال تحض على تحسين الخطوط ، مثل " عليكم بحسن الخط ؛ فإنه من مفاتيح الرزق " [٣]. فظهرت في الخط من ثم أنواع وأقلام عديدة ، كالنسخ ، والثلث ، والرقعة ، والكوفي ... إلخ ، وتفنن العرب في تعليم الخط وإتقانه حتى أصبح في مقدمة الفنون العربية الجميلة ، يقول أبو حيان التوحيدي : " إن للخط الجميل وشيا وتلوينا كالتصوير ، وله التماع كحركة الراقصين وحلاوة كحلاوة الكتلة المعمارية " ، ويقول أيضا : " قد تكون صورة المداد في الأبصار سوداء ،

---

[١] - قصة الكتابة العربية : إبراهيم مصطفى ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة ، سنة ١٩٨٤م ، ص ٨٩ .
[٢] - غرائب اللغة العربية : رفائيل نخلة اليسوعي ، دار المشرق ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ص ١٢٤ .
[٣] - ذكره الإمام العجلوني في " كشف الخفاء " برقم ١٧٧٥ ، وقال عنه الصنعاني : موضوع . (انظر : كشف الخفاء ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٥١هـ) .

ولكنها في البصائر بيضاء " [1] ، كما نظموا فيه شعرا تعليميا ، كهذه الأبيات التي قالها ابن البواب :

يا من يريدُ إجـــــادةَ التحريــــرِ
ويرومُ حسنَ الخَطِّ والتصويـرِ
إن كان عزمُكَ في الكتابةِ صادقا
فارغبْ إلى مَوْلاكَ في التيسيرِ
أعددْ من الأقلامِ كلَّ مثقـــــــبٍ
صلبٍ يصوغُ صياغَةَ التحريرِ
ثم اجعلِ التمثيلَ دأبَكَ صـــابراً
ما أدركَ المأمولَ مثلُ صَبـــورِ
فالأمرُّ يصعبُ ثم يرجعُ هينـــاً
ولرب سَهْلٍ جاءَ بعد عسيرِ

ثانيا – على مستوى المفردات :

فإذا انتقلنا إلى مجال المفردات فحدث عن العربية ولا حرج ؛ لأن من أبين خصائصها التي لا تضاهيها فيها لغة أخرى من لغات العالم ، وذلك باعتراف أبناء اللغات الأخرى أنفسهم ، قدرتهــا العجيبــة على توليد بعض الصيغ من بعض ، والرجــوع بها إلى أصل واحــد (جذر) يحدد مادتها ويعبر عن معناها الأساسي وهو ما يسمى بالاشتقاق .

والجذر هو مركز الكلمة في اللغة العربية ، ويكون ثلاثيا إذا تألف من ثلاثة أحرف أصلية (صوامت) ، وهو الغالب ، و رباعيا إذا تألف من أربعة ، وهو قليل ، وخماسيا إذا تألف من خمسة ، وهو نادر . فمعجم " لسان العرب " لابن منظور ، مثلا، يبلغ عدد الجذور التي يضمها ٩٢٧٣ جذرا ، من بينها ٦٥٣٨ جذرا ثلاثيا بنسبة ٧٠,٥١% و ٢٥٤٨ جذرا رباعيا ، بنسبة ٢٧,٤٧% ، و ١٨٧ جذرا خماسيا ، بنسبة ٢,٠٢% . ويعلل ابن جني كثرة الأبنية الثلاثية قائلا :

" الأصول ثلاثة : ثلاثي ، ورباعي ، وخماسي . فأكثرها استعمالا وأعدلها تركيبا الثلاثي . وذلك لأنه حرف يبتدأ به ، وحرف يحشى به ، وحرف يوقف عليه ... وإذا كان كذلك فذوات الأربعة مستثقلة غير متمكنة تمكن الثلاثي لأنه إذا كان الثلاثي أخف وأمكن من الثنائي – على قلة حروفه ، فلا محالة أنه أخف وأمكن من الرباعي لكثرة حروفه . ثم لا شك فيما بعد في ثقل الخماسي وقوة الكلفة به " .

[1] - موسيقى الخط العربي : مرجع سابق ، ص ١٣٦ .

ومعنى ذلك أن لغتنا العربية قد " روعيت فيها الخفة من حيث قلة عدد الحروف في جمهور أبنيتها الأصلية " [١].

وقد لفتت هذه الميزة أنظار أبناء اللغات الأخرى كما قلنا ، فذهب المستشرق الإنجليزي جب " Gibb " إلى أن التحديد المكثف لجذر الكلمة في العربية " قد أدى إلى الاقتصاد اللطيف في التعبير ، وأجمل تعبير يأخذ باللب في العربية ، هو ذلك التعبير الموجز المحدد بالمعاني العديدة ، ولذا كانت الأمثال العربية لا تتعدى ثلاث أو أربع كلمات ، وكان شعر الشعراء يقوم بقدر قدرة الشاعر على تأدية الصورة الشعرية الكاملة في بيت واحد من الشعر . أما هذا الإسهاب الشرقي في الكلام ، فإنه غريب على الأسلوب العربي الطبعي ، وقد زحف إلى اللغة العربية وآدابها ، من مصادر خارجية " [٢]

ومن الجذر العربي الواحد ، تتفرع مشتقات كثيرة (فعل واسم وصفة) ، يجمعها معنى أصلي واحد .

فالجذر (ذ ك ر) مثلا ، يدل على معنى في الذهن متعارف عليه بين الجماعة اللغوية هو (الذكر) ، وتتفرع منه مفردات عديدة سواء بالتغيير الداخلي الذي يطرأ على حركات حروفه ، أو بإضافة بعض الحروف إليه (سوابق ، ولواحق ، ودواخل) ؛ على النحو التالي : ذَكَر ، ذُكِر ، ذَكَّر، ذاكر ، تَذَكَّر ، استذكر، ادَّكر ، ذاكِر (اسم فاعل) ، مذكور ، مذكِّر ، مذكَّر تذكرة ، ذاكرة ، ذِكرى ، تذكار ، ذكورة ، ذكير ، مذكار ، ذِكر ... إلخ .

الثراء في المفردات :

ذكر السيوطي في (طبقات النحاة) أن الخليل بن أحمد ، قد أحصى في معجم " العين " عدد أبنية كلام العرب المستعمل ، والمهمل ، على مراتبها الأربع من : الثنائي ، والثلاثي ، والرباعي ، والخماسي ، من غير تكرير ؛ فوجدها اثني عشر ألف ألف (١٢مليون) ، وثلاثمائة ألف ، وخمسة آلاف ، وأربعمائة ، واثني عشر ألفا ، ويرى (إيرفنج) أن هذه القوة والقدرة الكبيرة للغة العربية

---

[١] - خصائص اللغة العربية : محمد حسن جبل ، مرجع سابق ، ص ٥٦ .

[٢] - " Arabic Literature : Hamilton Gibb, Oxford University , Press ١٩٦٣ , P .٩ . وقد روي عن عبد الله بن عمر ، أنه قيل له : لو دعوت لنا بدعوات . فقال : اللهم ، اهدنا ، وعافنا ' وارزقنا . فقال له رجل لو زدتنا يا أبا عبد الرحمن . فقال : أعوذ بالله من الإسهاب ! وكان يقال : أفضل الكلام ما قلت ألفاظه وكثرت معانيه وقد أوتي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – جوامع الكلم ، وكان العرب يعدون البلاغة الإيجاز وقلة الكلام ، يقول أبو منصور الفقيه :

تعمد لحذف فضول الكلام إذا ما نأيت وعند التداني

ولا تكثرن فخير الكلام ال قليل الحروف الكثير المعاني

(انظر : بهجة المجالس وأنس المجالس : ابن عبد البر القرطبي ، تحقيق محمد مرسي الخولي - دار الكتب العلمية ، بيروت ، المجلد الأول ، باب ذم العي وحشو الكلام ، ص ٦١ .)

في اشتقـاق الألفـاظ " تقودنا إلى الثروة المدهشة ، من المفردات التي تواجهنا حين نـتكلم العربيـة ؛ فالجـذور العربيـة تجعلهـا مـن أوسـع وأعظـم اللغـات فـي العـالم " ، وتبين هذه الإحصائية مدى ثراء المعجم العربي :

المعجـم	عـدد المـواد	عـدد المشتـقات	عـدد الكلمـات
لسان العرب	٩,٣٩٣	١٥٨,١٤٩	٤,٤٩٣,٩٣٤
القاموس المحيط	١١,٠٠٠	٧٠,٠٠٠	٧٣٣,٠٠٠
محيط المحيط	١١,٢٠٠	٨٤,٩٦٥	١,٣٠٠,٠٠٠
الوسيط	٧٠٠٠	٣٠,٠٠٠	٤٥٠,٠٠٠

والحقيقة التي يقررها الدكتور رمضان عبد التواب أنه " لم تغن لغة بمثل مـا غنيت به العربية من تعدد المفردات الدالـة علـى معنـى واحد من ناحيـة ، أو تعدد معاني اللفظة الواحدة إلى درجة التضاد بينها في بعض الأحيان من ناحية أخرى .

ويطلق العلماء على المفردات الدالة على معنى واحد ، اسم " المترادف " ، كما يطلقون على الألفاظ الدالة علـى المعـاني المختلفة اسم " المشـترك اللفظـي " ، ويطلقون على ذات المعاني المتضادة من هذه الألفاظ اسم " الأضـداد " . وإذا كـان المحدثون من علماء اللغات ، يسلمون بوقوع أمثلـة مـن هذه الأنـواع الثلاثـة ، فـي اللغات المختلفة في العالم ، فإن اللسان العربي ، قد طـال باعـه وامتد ذراعـه ، فـي كل نوع من هذه الأنواع "[١] .

فإذا كان في كل لغــة مترادفات ، أي عدة ألفاظ للمعنـى الواحد ، فـإن العـرب فاقـوا فـي ذلـك سـائر أمم الأرض ؛ والـدليل علـى ذلـك أنـك تجد فـي اللغـة العربيـة للسـنة ٢٤ اسـما ، وللنـور ٢١ اسـما ، وللظـلام ٥٢ اسـما ، وللشـمس ٥٩ اسـما ،

[١] - فصول في فقه اللغة العربية : د. رمضان عبد التواب ، مرجع سابق ، ص ٣٠٩ .

وللسحاب ٥٠ ، وللمطر ٦٤ ، وللبئر ٨٨ وللماء ١٧٠ ، وللبن ١٣ ، وللعسل نحو ذلك ، وللخمر ١٠٠ اسم ، وللأسد ٣٥٠ اسما وللحية ١٠٠ اسم ، ومثل ذلك للجمل أما الناقة فلها ٢٥٠ اسما ... ناهيك بمترادف الصفات ، فعندهم للطويل ٢١ لفظا ، وللقصير ١٦٠ لفظا ... وهكذا .

وأما عن دلالة اللفظ الواحد على معان كثيرة ، فمن ألفاظها نيف ومائتا لفظ يدل كل منها على ثلاثة معان ، ونيف ومائة لفظ يدل الواحد منها على أربعة ، ومثلها التي تدل على خمسة معان . وقس على ذلك ما يدل على ستة معان ، فسبعة فثمانية ، فتسعة ، إلى خمسة وعشرين معنى كالحميم . ومما تزيد مدلولاته على ذلك " الخال " فإنها تدل على ٢٧ معنى ، وللفظ " العين " ٣٥ معنى ، وللفظ " العجوز " ٦٠ معنى .[١]

ومن الأضداد مئات من الألفاظ يدل كل منها على معنيين متضادين ، وهي ظاهرة لا وجود لها في لغة غير العربية ، ومن أمثلتها: القرء بمعنى الحيض وأيضا بمعنى الطهر ، والجلل بمعنى العظيم وأيضا بمعنى اليسير ، والصريم ، وهو يدل على الليل كما يدل على الصباح .

وتمتاز اللغة العربية بدقة التعبير بألفاظها وتراكيبها ، عن أخفى الأفكار وأدق المعاني ، فكل لفظة فيها تأتي على قدر المعنى وتستوفيه دون زيادة أو نقصان .

ومن هنا وجد الأدباء والشعراء في اللغة العربية دون غيرها مبتغاهم ، ونبغوا بفضل ثراء معجمها الواسع كما لم ينبغ الشعر في أمة من الأمم ، كما وجد العلماء في دقة ألفاظ اللغة العربية ، وحسن سبك تراكيبها ما ينشدونه في الأسلوب العلمي من انضباط ووضوح ودقة تعبير ، فكانت اللغة عونا لإبداعهم الحضاري الذي خلدته عبقريتهم العلمية . وأصبحت اللغة العربية بفضل هؤلاء العلماء والأدباء لغة العلم ولغة الأدب وهي من قبل ومن بعد لغة الدين التي كتب الله سبحانه وتعالى لها الخلود الأبدي .

١- تاريخ آداب اللغة العربية : جرجي زيدان ، مراجعة وتعليق د. شوقي ضيف ، دار الهلال ، القاهرة ، الجزء الأول ص ٤٥ . وقد روى صاحب " القاموس المحيط " للعجوز أكثر من سبعين معنى ، هي :
العَجوزُ: الإبْرَةُ، والأرضُ، والأرْنَبُ، والأسَدُ، والألْفُ من كلِّ شيءٍ، والبِئْرُ، والبَحْرُ، والبَطَلُ، والبَقَرَةُ، والتَّاجِرُ، والتُّرْسُ، والتَّوْبَةُ، والثَّوْرُ، والجائعُ، والجَعْبَةُ، والجَفْنَةُ، والجُوعُ، وجَهَنَّمُ، والحَرْبُ، والحَرْبَةُ، والحُمَّى، والخِلافَةُ، والخَمْرُ، والخَيْمَةُ، ودارَةُ الشمسِ، والدَّاهِيةُ، والدِّرْعُ للمرأةِ، والدُّنيا، والذِّنْبُ، والذِّنْبَةُ، والرَّايَةُ، والرَّخَمُ، والرِّعْشَةُ، والرَّمَكَةُ، ورَمْلَةٌ م، والسَّفينَةُ، والسَّماءُ، والسَّمْنُ، والسَّمومُ، والسَّنَةُ، وشَجَرٌ م، والشمسُ، والشيخُ، والشيخةُ، ولا تَقُلْ عَجوزَةٌ، أو هي لُغَيَّةٌ رَديئَةٌ ج: عَجائِزُ وعُجُزٌ، والصَّحيفَةُ، والصَّنْجَةُ، والصَّوْمَعَةُ، وضَرْبٌ من الطِّيبِ، والضَّبُعُ، والطريقُ، وطَعامٌ يُتَّخَذُ من نَباتٍ بَحْرِيٍّ، والعاجِزُ، والعافِيَةُ، وعانَةُ الوَحْشِ، والعَقْرَبُ، والفَرَسُ، والفِضَّةُ، والقِبْلَةُ، والقِدْرُ، والقَرْيَةُ، والقَوْسُ، والقِيامَةُ، والكَتيبَةُ، والكَعْبَةُ، والكَلْبُ، والمرأةُ، شابَّةً كانت أو عَجوزاً، والمُسافِرُ، والمِسْكُ، ومِسْمارٌ في قَبْضَةِ السَّيفِ، والمَلِكُ، ومَناصِبُ القِدْرِ، والنارُ، والناقَةُ، والنَّخْلَةُ، ونَصْلُ السَّيْفِ، والوِلايَةُ، واليَدُ اليُمْنَى .

أما الألفاظ ، ففي اللغة العربية لكل معنى لفظ خاص [1]، وحتى أشباه المعاني أو فروعها وجزئياتها ؛ ففي اللغة العربية مئات من الألفاظ الدالة على أنواع الأرض والتربة والطين باختلاف الخصب والجدب ونحو ذلك ، وتزيد أسماء الرياح فيها على المائة ، ولكل منها معنى يدل على نوع الريح وجهتها ، كقول العرب " إذا وقعت الريح بين الريحين فهي النكباء ، فإذا هبت من جهات مختلفة ، فهي المتناوحة ، وإذا ابتدأت بشدة ، فهي النافجة ، فإذا حركت الأغصان واقتلعت الأشجار فهي الزعزاع .... وهكذا .[2]

وتجد للمعنى الواحد عدة ألفاظ يعبر كل منها عن تنوع من تنوعات ذلك المعنى ؛ فللشعر مثلا أسماء عدة حسب منبته ، كالفروة لشعر معظم الرأس ، والناصية لشعر مقدم الرأس ، والذؤابة شعر مؤخرة الرأس ، والفرع شعر رأس المرأة ، والغديرة شعر ذؤابتها ، والدبب شعر وجهها .. إلى غير ذلك ، وهو كثير ... ولكل منها معنى خاص مما لا مثيل له في أرقى لغات البشر قديما وحديثا .[3]

ثالثا – على مستوى التراكيب :

ليست الكلمة العربية مجرد رمز يلتصق المعنى به ، بل هي بمثابة الجسد من هذا المعنى ، تحمل سماته وتكشف عن ماهيته ، وفي العربية بعض الظواهر التركيبية على مستوى المعنى ، تتسق مع تمامها وتفردها وانسجامها بين اللغات في العالم .

فالجملة في اللغة العربية نوعان : اسمية ، وفعلية ، بينما نجدها في اللغات الأوروبية اسمية فقط ، يتقدم فيها الفعل على الفاعل ، وعلة هذا الاختلاف كما يرى الأستاذ العقاد أن اللغة العربية أوفى وأكمل من اللغات الأوروبية ، وأن اللغات الأوروبية انتقلت من أطوارها الأولى إلى أطوارها التي ازدهرت فيها قبل

---

[1] - ومما يدل على اتساع الثروة اللفظية للغة العربية ، ما يروى عن أحد مجالس عبد الملك بن مروان الذي ضم جماعة من خاصته ومسامريه ، فقال عبد الملك : أيكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه وله ما يتمناه ؟ فقام إليه سويد بن غفلة ، فقال : أنا لها يا أمير المؤمنين . فقال عبد الملك : ما عندك ؟ فقال سويد :
" أنف . بطن . ترقوة . ثغر . جمجمة . حلق . خد . دماغ . ذكر . رقبة . زند . ساق . شفة . صدر . ضلع . طحال . ظهر . عين . غببة . فم . قفا . كتف . لسان . منخر . هامة . وجه . يد . فهذه آخر حروف المعجم " فقام بعض أصحاب عبد الملك وقال : أنا أقولها في جسد الإنسان مرتين يا أمير المؤمنين ! فالتفت عبد الملك إلى سويد ، فقال سويد : بل أقولها ثلاثا يا أمير المؤمنين ، فقال له : لك ما تتمنى ، فقال سويد :
" أنف . أسنان . أذن . بطن . بصر . بز . ترقوة . تمرة . تينة . ثغر . ثنايا . ثدي . جمجمة . جنب . جبهة . حلق . حنك . حاجب . خد . خصر . خاصرة . دبر . دماغ . دردر . ذكر . ذقن . ذراع . رقبة . رأس . ركبة . زند . زردمة . زغب . ساق . سرة . سبابة . شفة . شعر . شارب . صدر . صدغ . صلعة . ضلع . ضفيرة . ضرس . طحال . طرة . طرف . ظهر . ظفر . ظلم . عين . عنق .عاتق . غببة . غلصمة . غنة . فم . فك . فؤاد . قلب . قدم . قفا . كف . كتف . كعب . لسان . لحية . لوح . مرفق . منكب . منخر . نغنوغ . ناب . نن . هامة . هيف . هيئة . وجه . وجنة . ورك . يمين . يسار . يافوخ " !

[2] - تاريخ آداب اللغة العربية : جرجي زيدان ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٣١ .

[3] - السابق ، ص ٤٤ .

أن تتنوع فيها أوضاع الكلمات والجمل على حسب موضوعات التفكير والإدراك . ويغنينا عن الإطالة في هذا الباب – حسبما يقرر- أن نذكر أن الجملة الاسمية ليست مع وجودها في اللغة العربية قليلة الاستعمال في مواضعها ، فليس تقديم الفعل على الفاعل فيها عجزا عن التركيب الذي يتقدم فيه الفاعل على الفعل ، ولكنه تقسيم للكلام على حسب مواضعه ، وتصحيح لموقع الفعل وموقع الفاعل من إرادة المتكلم وفهم السامع .

ومتى ثبت لنا الفرق بين موقع الفعل والفاعل في الجملتين الاسمية والفعلية ، فالاكتفاء بالجملة الاسمية كما تقع في كلام الأوروبيين نقص منتقد وليس بالمزية التي تدل على الكمال والارتقاء . وليس في وسع من يفهم مواقع الكلم أن يجهل الفارق بين قولنا " محمد حضر " ، و " حضر محمد " فإننا نقول " محمد حضر " إذا كنا ننتظر خبرا عن محمد أو عن حضوره على الخصوص ؛ ولكننا نقول : " حضر محمد " لمن يسمع خبرا من الأخبار على إطلاقه ، ولا يلزم أن يكون الخبر عن محمد ولا عن الحضور بل لعل السامع كان ينتظر كلاما عن حسن وعن علي كما ينتظره عن محمد ، أو لعله خبر سفر وليس بخبر حضور منتظر أو غير منتظر .[1]

وليس في لغات الحضارة لغة تمت لها أدوات الصفة وشروطها كما تمت للغة العربية ، فهي جامعة لكل ما تفرق من هذه الشروط بين أكبر اللغات وأوسعها انتشارا في الزمن الحاضر وفي الأزمنة المتقدمة . إن الصفة تابعة للموصوف في اللغة العربية ، مطابقة له في الإفراد والتثنية والجمع ، وفي التذكير والتأنيث ، وفي التعريف والتنكير ، وفي مواقع الإعراب . وقد يلاحظ بعض هذه المتتابعات في بعض لغات الحضارة ، ولكنها لا تلاحظ جميعا بقواعدها المطردة في غير اللغة العربية . ففي الإنجليزية تأتي الصفة سابقة لموصوفها ، فيقال مثلا : " واحد عظيم رجل " بدلا من رجل عظيم ، ويقال " عظيم رجال " بدلا من رجال عظماء ، ويقال " عظيم نساء " بدلا من نساء عظيمات . وفي اللغة العربية صفات تدل على المبالغة " صيغ المبالغة " التي تدل على الكثرة ، (مثل : معطاء ، أي : كثير العطاء) ، ولا مقابل لهذه الصيغ في اللغات الأوروبية إلا باستخدام جملة أو عبارة مركبة من عدة كلمات .[2]

ومن خلال هذه النماذج وغيرها - كتميز العربية عن اللغات الأوروبية بضمائر للمثنى ... إلخ - يثبت للغة العربية عند مقارنة اللغات الأخرى بها تفردها بخصائص وسمات في مستويات الكلام المختلفة ، بدءا من الحروف ونظام كتابتها مرورا بالمفردات ، وانتهاء بالتراكيب والجمل .

[1] - أشتات مجتمعات : عباس محمود العقاد ، مرجع سابق ، ص ٥٦ وما تلاها .
[2] - السابق : ص ٦٤ .

زعم باطل :

وبدلا من أن يجد هذا الثراء والغناء في خصائص اللغة العربية وسماتها إشادة واعترافا بقدرها بين اللغات ، راح بعض المتربصين بها من غير أبنائها ومن بعض أبنائها الذين ينبهرون بالنماذج الأجنبية في ألسنتهم وطرائق معيشتهم ، ويسايرونها حذو القذة بالقذة ، فلا تقوى أحلامهم على استيعاب وتذوق جماليات لغتهم ولغة آبائهم وأجدادهم - راحوا يتخذون ثراء اللغة العربية وغناءها ذريعة لرميها – كذبا وافتراء - بالصعوبة !

وقد يكون من الطبيعي – كما يرى الدكتور عبد الصبور شاهين - أن تجد العربية خارج حدودها أعداء يكيدون لها ، ولكن المفزع حقا أن يكون بعض هؤلاء الأعداء من بنيها ، عن قصد أو عن غير قصد . ولذلك فهي تقاتل في جبهتين ، أقربهما أمرُّهما وأعصاهما ، لأنها هنا تقاتل قطعا من نفسها (وظلم ذوي القربى أشد مرارة على النفس) ولو كتب لها الله النصر في هذه المعركة فإن ما عداها يهون ، ونحن نتطلع إلى اليوم الذي يتحول فيه كل العرب إلى عشاق مغرمين بلسانهم ، ذائبين في حرفه ، يحسنون درسه ، ويجيدون نطقه ، ويلزمون غَرزه ، فلا ينطقون على أرض العرب إلا بالعربية ، وعلى من أراد أن يعيش بن ظهرانيهم من الأجانب أن يتعلم لسانهم ، ويعاملهم بكلامهم عندئذ سوف يكون لهذه الأرض احترامها ، وسوف تعود لها مهابتها وعزتها ، ولسنا في هذا بدعا ، فإن أمريكا على سبيل المثال لا تسمح بالدخول إليها إلا لمن يعرف اللغة الإنجليزية [1] .

إن الزعم بأن لغة القرآن الكريم صعبة هو زعم ما انفك يروج له المتربصون بها من أعدائها ؛ ليصرفوا أبنائها العرب عن الانشغال بها ، بوضع حاجز نفسي بينهم وبينها ، وقد أسهم في تشييد هذا الحاجز بعض السياسات الخاطئة في تعليمها ، وقصور أبنائها بل تغافلهم عن الاهتمام بها .

ولو كانت اللغة العربية صعبة ما نزل بها كتاب الله ، الذي إنما أرسل به رسول الله – صلى الله عليه وسلم - للناس كافة (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) [2] ، فهل يعقل أن يخاطب الناس كافة بلغة تصعب على أفهامهم ؟!

وقد جسدت إحدى طالبات المرحلة الثانوية مأساة جيلها وغيره من الأجيال المتعاقبة في تحصيل اللغة العربية - لغة القرآن الكريم - في ظل السياسات

---

[1] - العربية لغة العلوم والتقنية : د. عبد الصبور شاهين ، دار الاعتصام ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦ ، ص ٨ .
[2] - (سبأ : ٢٨)

التعليمية التي لا تنصف هذه اللغة الشريفة ، حين صرخت في إحدى الندوات التي أقيمت في مصر في العام الماضي (٢٠٠١م) ، وكان موضوعها " أبناؤنا وحب العربية " ، قائلة بملء فيها :
" أحب اللغة الفرنسية ، وأكره اللغة العربية ؛ لأن مقرر اللغة الفرنسية في الثانوية العامة في كتاب واحد صغير لا يأخذ مني جهدا ولا وقتا حتى أحصل فيه على النهاية الكبرى ، وهي خمسون درجة ، بينما اللغة العربية لها فروع كثيرة ، وتأخذ مني في الاستيعاب والحفظ جهدا شاقا ووقتا كبيرا ، والمقابل زهيد : ستون درجة فقط ! "

وهكذا يؤدي التحول عن اللغة العربية وتجافيها ، بسبب التخبط في سياسة تعليمها - حيث إن تعلم اللغة العربية قد أصبح يعامل ، في ظل وضعه المتردي ، معاملة " تجارية " بحتة - إلى تنامي الإحساس بصعوبة اللغة العربية ، وأنها لا تساير روح العصر ، وتعجز عن التعبير عن متطلباته أو هي كما زعم " سلامة موسى " في الربع الثاني من القرن العشرين " لغة بدائية "[١] !

فالواقع أن اللغة - كما يرى الدكتور كمال بشر - لا تحيا بنفسها ولا تعيش بذاتها ، فاللغة لا تعيش إلا في مجتمع ، ونحن الآن نسير في طريق وهي واقفة في طريق آخر ، لأننا لا نستخدمها ولا نحركها ، فإذا أراد إنسان أن يعود إليها وجدها جامـــدة لأنه لم يألفها ولم يخبرها ولم يعرف عنها شيئا . إذن هي في نظره جامدة ، أما في طبيعتها فليست كذلك فالسبب في الصعوبة أو الجمود هم الناس أنفسهم "[٢] .

وعقدة الأزمة ليست في اللغة العربية ذاتها ، وإنما هي في " كوننا نتعلم اللغة العربية قواعد صنعة وإجراءات تلقينية وقوالب صماء ، نتجرعها تجرعا عقيما ، بدلا من أن نتعلمها لسان أمة ولغة حياة . وقد تحكمت قواعد الصنعة بقوالبها الجامدة ، فأجهدت المعلم تلقينا ، والتلميذ حفظا ، دون أن تجدي عليه شيئا ذا بال في ذوق اللغة ولمح أسرارها في فن القول "[٣] .

وقد أدي الإحساس المتوهم بصعوبة اللغة العربية بالفعل إلى انعدام ثقة نفر من أبنائها في لغة أجدادهم وارتعاش ألسنتهم في نطقها ، وأيديهم في كتابة حروفها فضلا عن فقدان القدرة على تذوق جمالياتها في التعبير ودقتها في الأداء ، وغدت خصائصها وسمات تفردها عند من لا يقدرونها قدرها صعوبات وعقبات !

---

[١] - " البلاغة العصرية واللغة العربية " : سلامة موسى ، المطبعة العصرية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ص ١٤ .
[٢] - الدكتور كما ل بشر ، من حديث له بجريدة الأهرام ، عدد ٢٠٠١/٩/١١ ، ص ٣٠ .
[٣] - لغتنا والحياة " : د. عائشة عبد الرحمن ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ١٩٦ .

فالإعراب مثلا ، الذي إنما دعت إليه الحاجة إلى توضيح المعنى والدلالة عليه على نحو ما يبينه " الزجاجي " في قوله : " فإن قال قائل : قد ذكرت أن الإعراب داخل في الكلام ، فما الذي دعا إليه واحتيج إليه من أجله ؟ فالجواب أن يقال : إن الأسماء لما كانت تعتورها المعاني ، وتكون فاعلة ومفعولة ، ومضافة ومضافا إليها ولم يكن في صورها وأبنيتها أدلة على المعاني ، بل كانت مشتركة جُعلت حركات الإعراب فيها تنبئ عن هذه المعاني ، فقالوا : ضرب زيد عمرا ، فدلوا برفع زيد على أن الفعل له ، وبنصب عمرو على أن الفعل واقع به . وقالوا : ضُرِب زيد ، فدلوا بتغيير أول الفعل ، ورفع زيد على أن الفعل لم يسم فاعله ، وأن المفعول قد ناب منابه ، وقالوا : هذا غلام زيد فدلوا بخفض زيد على إضافة الغلام إليه . وكذلك سائر المعاني . وقد جعلوا هذه الحركات دلائل عليها ليتسعوا في كلامهم ، ويقدموا الفاعل إذا أرادوا ذلك أو المفعول عند الحاجة إلى تقديمه ، وتكون الحركات دالة على المعاني " [١] .

وظيفة الإعراب على هذا النحو (الإعراب فرع المعنى) بوصفه سمة تتميز بها اللغة العربية على كثير من لغات العالم ، قد أصبحت في عرف كثير من متعلمي اللغة العربية هذه الأيام عقبة كئودا " تعيق الناشئة عن الفهم والاستيعاب " لا لشيء إلا لأن أفهامهم قد تقبلت اللغات الأجنبية قبل أن تتذوق ألسنتهم وتستزيد من رحيق خصائص لغتهم العربية فاستوى لديهم الأصل بالفرع ، وتلك لعمري قسمة ضيزى !

وقد أنصف العرب القدامى لغتهم ، ولم يزعم أحد منهم أن اللغة العربية صعبة ، وإنما ارتبطت هذه الدعوى بالأطماع الاستعمارية التي أدركت أن " اللغة هي الطليعة الأولى لأي غزو ثقافي أو حضاري ، وهي البوابة التي يدخل من خلالها الاستعمار ليفرض ثقافته وقيمه لتحويل الشعب المغزو إلى مجرد تابع ذليل ومسخ مشوه " [٢] .

وقد بدأت الحملة على العربية – كما تقول بنت الشاطئ - إثر ثلاثة قرون من الحكم التركي تدهورت فيها الحياة العامة وانحدرت اللغة إلى غاية السقم والضعف ، مجهدة بصراعها مع التركية التي فرضها العثمانيون لغة رسمية للدواوين والتعليم .

وفيما كان الغرب يتربص بالرجل المريض الموت ليتقاسم تركته ، بدأت بذور القضاء على اللغة العربية تلقى في أرضنا ، مسخا للشخصية القومية وعزلا للأمة عن ماضي تاريخها وتراثها ، وتمزيقا لوحدتنا اللسانية التي تربطنا على

---

[١] - " الإيضاح في علل النحو " : أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي ، تحقيق مازن المبارك ، طبعة سنة ١٩٢٩م ، مصر ، ص ٦٩ .

[٢] - اللسان العربي : عبد الوارث مبروك سعيد ، مرجع سابق ، ص ١٥٩ .

تنائي الديار واختلاف الأقطار ، وكان اتجاه الاستعمار ، إلى إحلال لغاته محل العربية ، وإن تعذر هذا فلتكن اللهجات العامية هي السلاح الذي يقضي على عربيتنا الموحدة [1] .

إن الحفاظ على هوية الأمة الثقافية والحضارية ، لا يتأتى دون النهوض باللغة العربية ، وطرح المزاعم والأوهام التي تحول دون الاعتزاز بها قولا وعملا ، لتسترد مكانتها السليبة بين لغات العالم .

ومن أهم ما يجب أن يتخذ في هذا السبيل تهيئة النفوس للإقبال على اللغة وعلى تعلمها واكتساب المهارة فيها ، وذلك ببعث الثقة بها وبقدراتها على الوفاء بمتطلبات الحياة وشئون الحضارة وإزكاء روح الاعتزاز بها وبتراثها .

وهذا بطبيعة الحال لا يعني التقليل من شأن تعلم اللغات الأجنبية ، فتعلم هذه اللغات يعتبر من الركائز الأساسية للانفتاح على المعرفة الإنسانية وإيجاد التكافل والتكامل الحضاري . ولكن يعني إيجاد نوع من التوازن في تعلم هذه اللغات ، بحيث لا يكون تعلمها على حساب التهوين والتقليل من شأن اللغة القومية أو التنكر لها أو إجفائها ، أو يكون سببا في خلق ازدواجية لغوية تؤدي إلى زعزعة مكانة اللغة الأم وإلى إيجاد صراع فكري وحضاري بغيض [2] .

وأخيرا فإن عبء النهوض باللغة العربية بوصفها اللغة الأم إنما يقع على عاتق جميع المتحدثين بها ، لا فرق في ذلك بجنس أو دين أو وطن ، فالجميع عرب لا يرتقون إلا بارتقاء لغتهم .

---

[1] - لغتنا والحياة : د. عائشة عبد الرحمن ، مرجع سابق ، ص ٩٨ .

[2] - الحصيلة اللغوية (أهميتها – مصادرها – وسائل تنميتها) : د. أحمد المعتوق ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، العدد ٢١٢ ، أغسطس ١٩٩٦م ، ص ٣١٩ .

الفصل الثالث

اللغـة العربيـة والشعـر

من أفضل فضائل الشعر
أن ألفاظ اللغة
إنما يؤخذ جزلها
وفصيحها
وفحلها
وغريبها
منه
فمن لم يكن راوية لأشعار العرب
تبين النقص في صناعته .

أبو هلال العسكري
" كتاب الصناعتين "

يتبوأ الشعر - وهو أصفى فنون القول - من اللغة العربية مكانة تاريخية متفردة ، بحيث لا يمكن تناول أسباب النهوض باللغة العربية من عثرتها دون التوقف مليا أمام الدور الذي يجب أن يضطلع الشعر به في إقالتها من هذه العثرة فللشعر على اللغة أياد لا تنكر ، وقد ساعد علي تشكيل طاقاتها وإمكاناتها ، بحيث استوت على يديه لغة إبداع ، قلما تجد شعرا أضفى على لغة مثلما أضفاه الشعر العربي على اللغة العربية .

وثمة حقيقتان جوهريتان في عالم الشعر ينبغي ألا نغفلهما أو نتجاوز عنهما ؛ أولاهما أن الكلمة أو " اللغة " هي أداته الأولى والأخيرة ، حتى مع مراعاة الوسائل الفنية التي يوظفها الشاعر المعاصر كالرمز والأسطورة ، وتعدد الأصوات ، وما إليها ، فكلها- في التحليل الأخير- تتشكل من أصوات اللغة . والحقيقة الثانية أنه نشاط إبداعي يرتبط أساسا بقيمة الجمال .[1]

و يرى " مارتن هيدجر" أن الشعر لا يتلقى اللغة قط مادة يتصرف فيها كأنها معطاة له من قبل بل الشعر هو الذي يبدأ بجعل اللغة ممكنة ، الشعر هو اللغة البدائية للشعوب والأقوام ، وإذن فيجب خلافا لما قد يتوهم أن نفهم ماهية اللغة من خلال ماهية الشعر .[2] بل يذهب " كاسْرِر" إلى أبعد من ذلك حين يقرر أن " الشعر هو اللغة الأم للبشرية " ، ويعده " مالارامية " لغة يضفي عليها الشاعر معنى أعمق وأنقى من كلمات القبيلة .

الشاعر واللغة :

يشبه الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي علاقة الكاتب (الشاعر) باللغة ، بتلك العلاقة التي تكون بين ملكة النحل واليعسوب ، علاقة اصطفاء ووحشة ، شهوة عارمة وموت محتوم ، فاليعسوب هو فحل الخلية الموعود بمطاردة الملكة حتى تمكنه من نفسها ، فإن بلغ الوصال ذروة التوهج انطفأ اليعسوب . وامتلاك الكاتب ناصية اللغة امتياز برفعها عن الابتذال بقدر ما يمنعها من الإفصاح السهل المبتذل ، ويعطلها عن أن تكون لغة ، أي أداة تفاهم واتصال . وهو إيغال في

[1] - تجارب في نقد الشعر : محمد شفيع السيد ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، سنة ١٩٩٠م ، ص (٩) .
[2] - مارتن هيدجر في الفلسفة والشعر : ترجمة الدكتور عثمان أمين ، الدار القومية للطباعة والنشر ، طبعة سنة ١٩٦٣م ، ص ٩٦ .

الصمت ، واعتناق للوحشة . فاللغة تبتعد بقدر ما تكتشف ، وتنقطع بقدر ما تعرف وتخسر ضمير المخاطب بقدر ما تربح ضمير المتكلم .[١]

ويعيش الشاعر دون بقية خلق الله طقوسا إبداعية خاصة ، وتنتابه إزاء اللغة حالات مختلفة ، يعبر عنها باقتدار الشاعر جبران خليل جبران بقولـه : " الشاعر هو ذلك المتعبد الذي يدخل هيكل نفسه فيجثو باكيا فرحا ، نادبا متهللا ، مصغيا مناجيا ، ثم يخرج وبين شفتيه ولسانه أسماء وحروف واشتقاقات جديدة لأشكال عبادتـه التي تتجدد في كل يوم ، وأنواع انجذابه التي تتغير في كل ليلة ، فيضيف بعمله هذا وترا فضيا إلى قيثارة اللغة ، وعودا طيبا إلى موقدها " [٢]

والفرق بين استخدام الشاعر للغة واستخدام الناثر في الخطاب العادي لها يوضحه " بول فاليري " بالفرق بين استخدام الخطوات بالنسبة لكل من الماشي والراقص ؛ فكل منهما يستخدم نفس الخطوات ونفس أعضاء الجسم التي يستخدمها الآخر ، ولكن الخطوات بالنسبة للماشي وسيلة توصله إلى هدف معين ، وينتهي دورها بالوصول إلى هذا الهدف ، على حين أن الخطوات بالنسبة للراقص غاية وهدف في ذاتها ، لا يهدف من ورائها إلى الوصول إلى شيء آخر . هكذا اللغة في النثر العادي وفي الشعر ، فهي من النثر بمثابة الخطوات في المشي ؛ وسيلة ينتهي دورها بانتهاء الغرض منها ، أما في الشعر فهي بمثابة الخطوات في الرقص ؛ غاية لا يستهدف بها شيء آخر وراءها .[٣]

وقد كان الهم الأول للشاعر في كل العصور هو أن يعيد للغة طاقاتها السحرية وقدراتها الخارقة على التأثير التي كانت لها في عصورها الأسطورية الأولى قبل أن تبتذل وتتحول إلى لغة عملية نفعية تخضع لمنطق العدل وتحديداته الصارمة ، وتسعى إلى نوع من التحدد والموضوعية بحيث لا تعبر إلا عن كل ما هو واضح ومحدد . ولكن الشاعر يحس دائما أن ثمة أشياء تند عن التحديد والوضوح ، ومن ثم فإن هذه اللغة العادية بمحدوديتها وتناهيها عاجزة عن استيعابها والتعبير عنها ، ومن هنا كان سعيه الدائب وراء اكتشاف لغة أخرى تتسع للتعبير عن هذه الأحاسيس والمشاعر اللامحدودة التي يحسها ويشعر بعجز اللغة العادية عن استيعابها ، أو بتعبير آخر : كانت محاولته المتصلة في سبيل إبداع لغة داخل اللغة [٤] .

---

[١] - مغامرة اللغة الطقسية : أحمد عبد المعطي حجازي ، مجلة فصول ، المجلد الخامس عشر ، العدد الأول ، ربيع سنة ١٩٩٦م ، ص ٢٩٣ .

[٢] - الشعر واللغة : لطفي عبد البديع ، دار المريخ ، الرياض ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٩٠م ، ص ١٨٩ .

[١] - عن بناء القصيدة العربية الحديثة : د.علي عشري زايد ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ، سنة ١٩٩٥م ، ص ٤٦ .

[٤] - السابق : ص ٤٨ .

دور الشعراء في النهوض باللغة العربية :

إذا كان للشاعر الحق في أن يهيم في سبحات الخيال فينتقي لتجربته ما يراه ملائما من أثواب العبارات والألفاظ والصور ، فإن عليه واجبا يراعي من خلاله التزامه " بالذوق اللغوي العام " عندما تخرج تجربته من إطار فردية المبدع إلى عمومية المتلقي . و" مهما تحدثنا عن تفرد الشاعر وذاتيته وتجاوزه ، فلا معنى لهذا الحديث إلا إذا قسنا هذا التفرد والتجاوز والذاتية بأمرين ، هما :

١ - مستوى تطور لغة الجماعة في عصره ، وهو يكشف عن خبرتها التاريخية ، و منطقها الراهن في النظر والسلوك .

٢ - وتراث التشكيل اللغوي في شعر هذه الجماعة ، وهو يكشف عن التقاليد الأدبية الموروثة أو الثابتة المستقرة ، وعلى الشعر الأصيل الحق أن يخلق علاقات لغوية جديدة دون أن يخل بقوانين اللغة وأنظمتها ، وأن يزلزل التقاليد الأدبية ، أو يخلخلها ، أو يعدلها وفق الحاجة "[١] .

وقد نشأ الشعر العربي في بيئته الأولى في شبه الجزيرة العربي متزامنا مع نشأة اللغة العربية ومعانقا تطورها وممكنا لها في أعماق الناس وعلى ألسنتهم ، فالشاعر الموهوب مجبول على قول الشعر في أسلوب جميل بألفاظ منتقاة وبيان محكم وإيقاع منضبط أخاذ .

ومن فم الشاعر، كان الرواة ، على كثرتهم وانتشارهم، يلتقطون الشعر ويسيرون به في شرق البلاد وغربها ، ويحفظونه ويرددونه ، ويردده ويحفظه الناس معهم ؛ فتشب وتشيع اللغة الفصحى المنتقاة ، أي : لغة الشعر ، وتصبح اللسان الغالب على اللهجات الدارجة والمحلية في القبائل المتناثرة في أرجاء شبه الجزيرة .[٢]

ويؤكد ذلك ما يذكره " يوهان هردر " من أن اللغة العربية قد تكونت بتأثير الشعر، بل غدت هي نفسها شعرا " ؛ فالعرب قد سكنوا الخيام ، وعاشوا في حل وترحال مستمرين وحياة حافلة بالمغامرات والصعاب ، وهذا كله مع اطراد العادات والتقاليد القديمة المعتدلة ، أي أنهم - بتعبير موجز - قد عاشوا حياة ذات طبيعة شعرية كاملة " .[٣]

---

[١] - شعرنا القديم والنقد الجديد : د. وهب أحمد رومية ، عالم المعرفة ، الكويت ، العدد ٢٠٧ ، مارس ١٩٩٦م ، ص ١٨١ .

[٢] - الشعر ركيزة اللغة العربية : محمد التهامي ، الأهرام ، في ٢٠٠١/٦/١م ، ص٣٥ .

[٣] - جوته والعالم العربي : كاتارينا مومزن ، ترجمة : عدنان عباس علي ، عالم المعرفة ، الكويت ، العدد ١٩٤ ، فبراير ١٩٩٥م ، ص ٣٨ .

فلا غرو إذن أن وصفت اللغة العربية قديما – وحديثا - بأنها" لغة شعرية " ؛ ويراد بهذا الوصف معان مختلفة ، كلها صادق ، منها أنها لغة يكثر فيها الشعر والشعراء ، حتى قيل : الشعر ديوان العرب [1]، ومنها أنها لغة موسيقية تستريح الأذن إلى ألفاظها ، كما تستريح إلى النظم المرتل ، ويتلاقى فيها تعبير الحقيقة بتعبير المجاز ، على نحو لا يعهد له نظير في سائر اللغات .

ولكن العقاد لا يكتفي في وصفها بأنها لغة شعرية ، بل يرى أنها " لغة شاعرة " ؛ وجملة الفرق بين الوصفين أن اللغة الشاعرة تصنع مادة الشعر وتماثله في قوامه وبنيانه ، إذ قوامهما جميعا يعتمد على الوزن والحركة .

ويمضي في إثبات هذه الظاهرة بادئا بحروفها ؛ حيث تستخدم العربية جهاز النطق الحي أحسن استخدام يهدي إليه الافتتان في الإيقاع الموسيقي ؛ إذ انتفعت في حروفها بجميع المخارج الصوتية ، أما المفردات فتعتمد على حركة الحروف للدلالة على معانيها المختلفة في مثل " علم وعالم " ، وتعين حركات الإعراب على أواخر الألفاظ موقع اللفظ في العبارة وتتم دلالته .

ثم يؤيد كلام الجاحظ في أن العروض لم يوجد فنا كاملا مستقلا في لغة سوى اللغة العربية التي تلاحظ القافية والوزن وأقسام التفاعيل في جميع البحور والأبيات ، ويقول : إن لغتنا لم تستمد أوزانها من فنون الغناء والآلات الموسيقية ،

---

[1] - هذه الإحصائية المنشورة على شبكة المعلومات الدولية " الإنترنت " في الموسوعة الشعرية التي أطلقها المجمع الثقافي بأبي ظبي ، تبين ، على فرض دقتها ، إلى أي مدى يبلغ اهتمام العرب بالشعر كواحد من أهم الفنون التي خلدت عبقرية اللغة العربية الأدبية :

العصر	عدد الشعراء	عدد القصائد	عدد الأبيات
شعراء العصر الجاهلي	٤٠١	٢٠٥٥	١٧٨٣٠
الشعراء المخضرمين	٩٩	٣٥٤٣	٣٠٧٣٨
الشعراء الإسلاميين	١٢٧	٢٧٤	١٤٧٥
شعراء العصر الأموي	١٦٦	٦٠٨٩	٥٠٨٥٥
الشعراء المخضرمين بين الدولتين	١٨	١٩٦٣	١٧٠٣٧
شعراء العصر العباسي	١١٧	١٦٨٧٣	١٨٥٣٧٨
شعراء العصر الفاطمي	٢٧	٧٤١٧	١٠٦٧٩٧
شعراء المغرب والأندلس	١٤١	٦١١٥	٨٥٣٣٣
شعراء العصر الأيوبي	٢٥	٦٠٧٢	٨٨٩١٩
شعراء العصر المملوكي	٢٥	٨١١٧	٨٠١٠٣
شعراء العصر العثماني	٢٨	٥٧٥٥	٨٤٢٠٧
شعراء العصر الحديث	٧٧	١٥٢٣٣	٢٦٩٧٨٤
المجموع	١٢٥٢	٧٩٥٠٦	١٠١٨٥٠١

وإنما استمدتها من صميم تكوينها ، وهذا هو سر مرونتها واتساعها لجميع الأغراض من غنائية وقصصية وتمثيلية ، وجميع الأشكال من أسماط ، ورباعيات ، ومزدوجات ، وموشحات ، بل لقد بلغ من عذوبتها أن دارت على ألسنة العامة في أفراحهم ومراثيهم الشعبية ، وأن نظمت لهم بها الملاحم الهلالية وملاحم الزير سالم ، وقد نقل بها سليمان البستاني إليـاذة هوميـروس إلى الفصحى ، كما نقلت بها رباعيات عمر الخيام ، ومسرحيات أجنبية كثيرة ، فوسعتها جميعا .[1]

مسيرة الشعر ومسيرة اللغة :

ظل الشعر يتطور بتطور اللغة نفسها من جيل إلى جيل في لفظه ومعناه ، كما يتطور في أخيلته ومبناه ، وهو ، كأية ظاهرة اجتماعية ، قد تأثر في تطوره بتغير الأحداث السياسية والاجتماعية ، وخضع للعوامل الحضارية والعمرانية التي خضع لها الحس اللغوي ، فضلا عن الحركة النقدية التي وعت أهمية الحرص على سلامة اللغة في بنيانه وواكبت مسيرته .

فلم يكن يحكم لشاعر بالتفوق ما لم يظهر مقدرته على تطويع اللغة ويسبر أغوار جمالياتها ، فضلا عن إثرائها إبداعا وشاعرية وقد راعى الشعراء من جانبهم أصول اللغة و النحو ، حتى لا يقعوا تحت طائلة أهل اللغة فيشنعوا عليهم ، ويسوئوا سمعتهم ، ولم يسلم من النقد اللغوي كبار الشعراء ، ويروى أن الفرزدق أنشد في إحدى قصائده :

وعض زمان يا بن مروان لم يدع
من الناس إلا مسحتا أو مجلف

فانتفض عبد الله بن أبي إسحاق النحوي بعد أن قرع أذنه خطأ الفرزدق ، قائلا له : علام رفعت مجلف ؟ فلم يجد الفرزدق – وهو الشاعر الكبير – إجابة سوى أن قال له ساخرا : على ما يسوءك وينوءك ، علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا ! ثم هجا عبد الله قائلا :

فلو كان عبد الله مولى هجوته
ولكن عبد الله مولى مواليا

[1] - اللغة الشاعرة : عباس محمود العقاد ، نهضة مصر ، القاهرة ، طبعة سنة ١٩٩٥م وانظر " مع العقاد " : د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الخامسة ، سنة ١٩٨٨م ، ص ١٣٢ .

فلم ير عبد الله ردا أقوى من قوله : لقد أخطأتَ في هجائك أيضا ، وكان من الواجب أن تقول " مولى موال "[1] ! وتداولت كتب اللغة والنقد هذه الواقعة ، فكانت تعريضا أضر بسمعة هذا الشاعر الكبير الذي لم يراع أصول اللغة .

وكان النقاد واللغويون على وعي بأن " في الشعر مزية لا يشاركه فيها غيره من حيث تفرده باعتدال أقسامه وتوازن أجزائه وتساوي قوافي قصائده ، مما لا يوجد في غيره من سائر أنواع الكلام ، مع طول بقائه على مر الدهور ، وتعاقب الأزمان ، وتداوله على ألسنة الرواة ، وأفواه النقلة لتمكن القوة الحافظة منه بارتباط أجزائه وتعلق بعضها ببعض " .

ويقال : إن الأصمعي كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة ، ويذكر صاحب " الأغاني " أن حمادا الراوية كان يروي على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من الشعر الجاهلي دون شعر الإسلام .

ومن ثم فقد أدركوا أن الارتقاء بالحس اللغوي لدى عامة المتلقين لن يتأتى إلا عن طريق الشعر، فحفلت كتب النحاة بـ " الشواهد الشعرية " التي يستقون منها القواعد ، ويجعلونها إماما وميزانا يعايرون به صحة الأساليب في الاستخدام اللغوي ؛ لما للوزن والقافية من دلالة على أوجه الضبط الإعرابي .

فكان للشعر إذن وزن ومكانة مرموقة ، لا عند الشعراء و النقاد وحدهم ، بل عند جمهور المتلقين الذين كانت رؤيتهم ، لا شك ، تتأثر بكلمة النقاد ، ولذلك لا نعجب إذا رأينا ناقدا كبيرا كأبي عمرو بن العلاء قد استجاد قصيدة للمثقب العبدي فقال : " لو كان الشعر مثلها لوجب على الناس أن يتعلموه " !

ولا شك أن الشعراء كانوا أحرص الناس على سلامة اللغة بناء وسبكا في شعرهم المهذب ، حتى لا تطالهم أقلام النقاد بالشين ، ويروى أن زهير بن أبي سلمى كان يقول القصيدة في ستة أشهر ، ثم يكرر النظر فيها ستة أشهر أخرى ، فسميت قصائده بالحوليات ، ولذلك قيل :

لا تعرضن على الرواة قصيدة
ما لم تبالغ قبل في تهذيبها
فإذا عرضت الشعر غير مهذب
عدوه منك وساوسا تهذي بها

بيد أن هذا الارتباط العضوي بين اللغة والشعر ولئن زها وبدا قويا في عصور القوة ، بفضل فطاحل الشعراء والنقاد ، فخلد للعرب ديوانهم الذي يشهد

[1]- من أسرار اللغة : د. إبراهيم أنيس : مرجع سابق ، ص ٢٠٠ .

بعبقريتهم بين الأمم في فنون القول ، فإن كلا من جذوتي اللغة و الشعر ، قد خمدت في عصور الضعف التي مرت بها الأمة العربية .

وكانت القرون الثلاثة التي سيطر فيها الحكم التركي – على حد تعبير الدكتور أحمد هيكل - قد عملت عملها في إغماض العيون وتكبيل العقول ، وعقل الإرادات وعقد الألسنة ... فتعطلت الحركة الأدبية بل تحجرت ، وانحرفت اللغة العربية بل فسدت ؛ فكثر فيها التركي والعامي ، وحادت عن قواعد الإعراب ، وابتعدت عن سلامة التركيب العربي الأصيل [١] .

ومن هنا أصبح الأدب في حالة من السقم تقارب الموت ، فكانت تمثله نماذج نثرية وشعرية هزلية ، ليس وراءها أي صدق أو إحساس أو فنية تعبير ، بل ليس وراءها حتى تقليد لتلك النماذج الرائعة من أدبنا في عصور الازدهار ، وإنما هي نماذج شاحبة مفتعلة غالبا ، تغطي ركاكتها في أكثر الأحيان ألوان من البديع ، كثيرا ما تبدو كأكفان ذات ألوان وتطاريز تلف أجداثا وعظاما نخرة " [٢] .

وباعدت القطيعة بين جناح اللغة وجناح الشعر ، فتعثر كل منهما تحت وطأة الأوهام ، أما اللغة فانزوت في مظانها من المعاجم وكتب النحو والبلاغة تنتظر من يلتمسها ثمت من أصحاب الغريب وأرباب البيان وعشاق تركيب الكلام ، وأما الشعر فقد توارى بين ركام الأخبار وتراجم الشعراء والأحكام التي يتناولها الخلف عن السلف ثم لا يكون من وراء ذلك شيء . [٣]

وعندما هبت رياح التغيير الحضاري على ميادين الثقافة المختلفة ، لا سيما بعد أن نبه قدوم الحملة الفرنسية وخروجها غير مأسوف عليها ، الأذهان إلى ضرورة الانفتاح على العالم ، والفكاك من قمقم التخلف والانعزال الذي فرض على اللغة العربية القبوع فيه سنين عددا ؛ أصاب اللغة والشعر مس من التطور ، وبدأ النهوض بهما من حالة الجمود والركود يؤتي ثماره في مختلف أوجه الحياة العقلية . ولكن لم يكد يهنأ للعربية بال حتى قض الإنجليز مضجعها بإحلالهم لغتهم محلها في التعليم ، وظهرت بعض الدعاوى الخبيثة التي تناصر العامية دونها .

ولكن الشعر لم يتخل عن اللغة في هذه المحنة ، فوقف في ساحة المعركة يناضل في سبيل سيادتها في موطنها بعد أن نما لدى الشعراء إحساس بأن اللغة العربية هي مظهر التوحد الذي يعكس وعيهم القومي ، ويقوي الصلة والإحساس

[١] - اقرأ ، على سبيل المثال : " بدائع الزهور في وقائع الدهور " لابن إياس الحنفي ، و " عجائب الآثار في التراجم والأخبار " لعبد الرحمن الجبرتي ؛ فالأول يمثل صدر العصر التركي ، والثاني يمثل آخره ، وكلاهما يكتب بلغة تبعد كثيرا عن الاستقامة ، مما يصور فساد اللغة طيلة هذا العهد المظلم . انظر : " تطور الأدب الحديث في مصر " : د. أحمد هيكل ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الخامسة ، سنة ١٩٨٧م ، ص ١٧ .
[٢] - تطور الأدب الحديث في مصر : مرجع سابق ، ص ١٨ .
[٣] - الشعر واللغة : لطفي عبد البديع ، مرجع سابق ، ص ٥ .

بالانتماء ضد حملات الغزو والتشكيك ، فأخذوا على عاتقهم ، بعد أن مهد لهم البارودي الطريق ، أن يثبتوا أن الضعف الذي أوهن الحياة الأدبية في القرون الغابرة لم يكن ليصيبها لولا أن الشعراء قد تخاذلوا عن نصرة اللغة العربية ، ولم يتشربوا بروحها الإبداعية الشاعرة التي تجلت في أزهى عصور الشعر العربي .

وعاد التلاحم مرة أخرى بين اللغة والشعر، فاكتست القصائد في عصر النهضة الأدبية حلة المهابة ، وبدت في رونقها المعهود ، وسرى نهر اللغة في مجاري الشعر المختلفة : الكلاسيكية ، والرومانسية ، والواقعية ، والحداثية ، وما بعدها ... إلخ ، و تشكل عبر هذه الرحلة في أشكال أخرى إلى جانب الشكل العمودي ، كالمرسل ، والحر ... إلخ ، والمهم في ذلك كله أن الشعر قد عاد من جديد ليكون من أهم الروافد التي تغذي اللغة العربية وتثريها بتلونات هذه الاتجاهات الفكرية والوجدانية .

الشعر واللغة الآن :

كما رأينا ، كان الشعر من أهم روافد النهوض باللغة العربية ، أمدته بالطاقة اللفظية والتعبيرية ، فأضفى عليها الحيوية ، وأثرى حصيلتها الدلالية ، ونسج الطرز في ثوبها الفضفاض ، فبدت لجمهور المتلقين في أبهى صورة وأجل منظر ولكن هل دام هذا الزواج السعيد بين اللغة والشعر ؟

إن المتأمل حال الشعر العربي الآن ، يجده وقد تفرق دمه بين المذاهب والاتجاهات المتعددة ، كالحاضر الغائب : لا أحد يستطيع أن ينكر وجوده ، ولا أحد يستطيع أن يثبت حضوره ، ولولا بعض الصفحات التي لا يعيرها أكثر القراء اهتماما في بعض المجلات والصحف ، ما أحس أحد بهذا الوجود الشاحب أصلا كما لم يحس بغيابه أو تغييبه يوما بعد يوم . فالشاعر العربي الآن لا حس له ولا خبر ! وقد كانت القبيلة من العرب - كما يقول ابن رشيق القيرواني في كتاب " العمدة " – إذا نبغ فيها شاعر ، أتت القبائل فهنأتها ، وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر ، كما يصنعون في الأعراس ؛ ويتباشر الرجال والولدان ؛ لأنه حماية لأعراضهم ، وذب عن أحسابهم ، وتخليد لمآثرهم ، وإشادة بذكرهم . وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ أو فرس تنتج .

أما الآن ، فقد لف الضباب معالم المشهد الشعري المعاصر ، وحار الشاعر في أمر قصيدته ، وأصبح يتردد ألف مرة قبل أن يقدم على كتابتها ؛ لأنه لم يعد يدري لمن يكتبها، وليس الجمهور بأحسن حالا أو أهنأ بالا من الشعراء ؛ فلا أحد منهم يدري لمن يقرأ ، وقد انعدمت بين الطرفين الصلة ، وكادت ثقة الشعراء في أنفسهم تنعدم ، كما انعدمت ثقتهم في استعداد الجمهور لتلقي وتذوق أشعارهم ،

وهم يرونها تشحب أمام أعينهم ، وتنزوي بين ركام الصفحات بعد إعراض جمهور المتلقين وعزوفهم عنها .

ولو طلب إلى مائة شاب ، مثلا ، أن يحددوا اسم شاعر معاصر يعيش بين ظهرانينا ، ويشار إليه بالبنان ، كما كان يشار إلى المتنبي وأبي تمام قديما أو إلى شوقي وحافظ حديثا ، ما أجاب هذا المطلب ، في أكثر الاحتمالات تفاؤلا سوى خمسة منهم ، وهم لا شك الذين ما زالت ذواكرهم تحتفظ بهذا الاسم من خلال بعض وريقات درسوها عن الأدب العربي المعاصر في المرحلة الثانوية ، فإن طلب من هؤلاء الخمسة أن يذكر كل منهم عنوان ديوان أو موضوع قصيدة قرأها فأعجبته لهذا الشاعر أو ذاك فضلا عن ذكر بعض أبياتها أو سطورها ، فلا أكون مبالغا إذا توقعت أن تتدنى هذه النسبة إلى الصفر !

ولعل هذا وغيره من الشواهد ، كعزوف دور الطباعة والنشرعن الاهتمام بالدواوين الشعرية لضآلة حجم سوقها [1] يؤكد أن الحضور الشعري في حياتنا الآن يكاد ينعدم ، وأن العرى قد انفصمت بين الشعراء واللغة بعد أن تخطفتهم عن الاهتمام بها معالم الحياة الاجتماعية والاقتصادية .

وقد ساعد بعض منظري الحداثة – وهم بعض شعرائها أنفسهم ، وبعض من خرج من تحت آباطهم – في تعميق الفجوة بين الشعر والمتلقي ، فمضوا ينظرون ويكتبون مهللين للإيغال في " التجريب والغموض " حتى جعلوا من النص الشعري " كتابة هيروغليفية " أو نصا من نصوص التعمية لا يقوى على قراءته إلا النخبة المصطنعة الموهومة ، ففتحوا بذلك الباب على مصراعيه أمام ذوي المواهب الضحلة من النقاد والشعراء، فاختلط الشعر باللاشعر ، واختلط النقد بالتهويم والتمجيد والإفراط العاطفي الذي جاوز ميوعة الرومانسية ، وزها الجميع بروح الاستعلاء النخبوية .

وغاب عن هؤلاء المنظرين في غمرة الفرح بالذات ، والإحساس بزهوها أنهم يكتبون لمجتمع مثقل بالهموم والمشكلات ، وفي ظل ثقافة سيطر عليها الوعي الزائف حتى عمَّى الحدود بين المفاهيم ، وأن فقر الدلالة الإنسانية والمضمون الاجتماعي في الأدب يمسخ اللغة ويفرغها من مخزونها التاريخي الاجتماعي ، وينتهي بها إلى ضمور شديد في وظيفتها ، وقصور في طاقاتها ، فتغدو أداة للتدابر والتقاطع وتأكيد الذات والانفصال بدلا من أن تكون أداة تربط البشر

[1] - أذكر أن ديوانا صدر منذ سنوات للشاعر المصري الكبير " محمد إبراهيم أبو سنة " ، وطبعت منه آلاف النسخ ، ولكن ما بيع منه بالفعل لم يتعد ستين نسخة !

بروابط حميمة حارة ، ويغدو الشعر المكتوب بهذه اللغة أشبه بما تنتجه صناعة التسلية .[1]

وليس من شك في أن أزمة الشعر في المجتمع هي جزء لا يتجزأ من أزمة اللغة بصفة عامة ، وهو، وإن كان فاعلا في هذه الأزمة ، مفعول به في الوقت نفسه . ولا يمكن للغة أن تنهض بمنأى عن الشعر، ولا للشعر أن ينهض بمنأى عن اللغة ؛ فهما صنوان متلازمان . كما أن فقدان الإحساس بجمال الشعر وغيره من الفنون يؤثر لا شك على أداء الذوق اللغوي .

اللغة والشعر " الحر " :

على الرغم من أن أحدا لا يستطيع أن ينكر حق الشاعر - بما أودعه الله من موهبة خلاقة يتفرد بها - في انتقاء الثوب الذي يجده ملائما لاستيعاب تجربته الشعرية ، فإن السنين المتعاقبة قد أثبتت أن التخوف الذي أبداه بعض رواد الحركة الأدبية في مصر، وعلى رأسهم الأستاذ العقاد ، من الضرر الذي قد يحيق باللغة العربية من جراء الانجراف وراء تيار ما يسمى بـ " الشعر الحر" ؛ كان في محله . وقد أحس العقاد وقتها أن بناء الشعر العربي على وشك التداعي والانهيار وسرعان ما أخذ يصارع هذه الحركة الجديدة ، لا فيما دفعت إليه الشعر من تطور في المضمون ، ولكن فيما ذهبت إليه من تطور واسع في شكل هذا الشعر واعتماده على " التفعيلة " دون البيت و" الإيقاع " دون القافية .

وكان طبيعيا أن يدافع العقاد دفاعا حارا عن القيم الموسيقية للقصيدة العربية ، ولكنه وسع دائرة دفاعه إلى اللغة ، ليتخذ منها أدلة ساطعة على أنها ليست لغة شعر فحسب ، بل هي لغة شاعرة ، قوام تركيبها الوزن والحركة ، وكأن نظام القصيدة صورة من أدائها الموسيقي على نحو ما سبقت الإشارة إليه . كما رد الزعم بأن الأدب العربي القديم عتيق لا يصلح للبقاء ؛ لأنه يؤدي إلى قطع الصلة بيننا وبين ماضينا في اللغة والأدب ، فنصبح كمن تجرد من ذاكرته بل الأمر أخطر من ذلك وأوخم عاقبة ؛ لأن فاقد الذاكرة يبقى له قوام آدمي ينتفع به على حسب استعداده للنمو والتعلم ، ولكن فقدان اللغة والأدب عندنا يشل ذلك الاستعداد ولا يبقي له قواما [2] .

وكان العقاد محقا فيما نبه إليه وأنذر به ، فما نعيش فيه الآن من الناحيتين الأدبية واللغوية ، إن لم يكن في غيرهما من النواحي أيضا ، هو حالة من فقدان الذاكرة ، وانطماس الهوية ، وأصبح الشاعر الموهوب اليوم لا حول له ولا طول

---

[1] - شعرنا القديم والنقد الحديث : د. وهب أحمد رومية ، مرجع سابق ، ص ١٨ .

[2] - مع العقاد : د.شوقي ضيف ، مرجع سابق ، ص ١٣١ .

لا سيما بعد أن وجد أصحاب المواهب الضحلة في " الشعر الحر " ضالتهم وبغيتهم في التحلل من ربقة القافية والوزن ، وواروا خلف أستاره هشاشة موهبتهم الإبداعية وثقافتهم اللغوية ، وصار كل من هب ودب على الأرض بقدميه في هذا الزمان يكتب شعرا ! بل تمادى البعض في " فتوحاتهم الشعرية " طارحين تحذيرات العقاد وراءهم ظهريا ، وتفننوا من ثم في تحطيم التقاليد " البدوية " للقصيدة العربية واختلطت عندهم الرغوة باللبن الفصيح ، وكان أول ما تمردوا عليه ويا للأسف سلطان اللغة !

يقول الشاعر والناقد اللبناني بول شاؤول : ماذا يعني أن تكتب قصيدة للغة ؟ (أي للموروث في النهاية) أي أن ترمي عليها حطام الأعمدة والتواريخ ، والأشكال ؟ ماذا يعني أن تجملها ؟ أن تقودها إلى " الشكل " ؟ أن تحولها إلى ركامها . الجمالية اللغوية كالأفكار . كالحدث تفضي ، إلى آخر أيضا ، يفترض أنها ألغته كي يلغيها ، اللغوية تحط (على عكس ما تريد غالبا) في التاريخ . كل الشعراء اللغويين شعراء تاريخ شعراء حقيقة لغوية يرفعونها بكلام كامل ، ناجز ، بحثا عن العبقرية الكونية للغة ، أي بحثا عن سلطتها " .[1]

وهكذا بدأت " الثورة التحررية " على اللغة ، وكيلت إلى " سطوتها " الاتهامات والافتراءات ، من بعض شعرائها الذين يفترض فيهم أن يكونوا ألسنتها وحماتها وذوي قرباها :

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة
على النفس من وقع الحسام المهند

ولكن إلامَ أدى بهم هذا التمرد على اللغة والترخص في استخدامها ؟ وكيف فضوا أسرار وحرمات هذا " التابو " الذي كان يمثل عائقا أمام تجاربهم في التحرر والانطلاق ؟ وما التجديد الذي جنته على أيديهم لغة الشعر ، لغة الانحراف ، لغة الزيف ، لغة التوتر ، لغة التجاوز ؟

من ناحية أغرق بعضهم في استخدام المفردات التي يتداولها الناس في حياتهم اليومية وربما كان بعضها مما يبتذل في السوق ، وفي الشارع ، وفي وسائل المواصلات ... إلخ ، بزعم " التعبير عن الواقع المعاش " فلم تختلف لغة الشعر من حيث تراكيبها عن لغة النثر العادي الذي نعاينه في الصحف السيارة مثلا ، وفقدت من ثم خصائصها الشاعرية وإيحاءاتها التي ظلت تتسم بها في أذواق المتلقين العرب على مر الزمان ، خذ مثلا قول " صلاح عبد الصبور " وهو من

[1] - " في لا جدوى الشعر " : بول شاؤول ، مجلة فصول ، المجلد الخامس عشر ، العدد الثاني ، صيف ١٩٩٦م ، ص ١٤٧ .

جيل الرواد ، عندما يتحدث عن لعبه " عشرة طاولة " في قصيدة " الحزن " من قصائد ديوان " الناس في بلادي " :

ولعبت بالنرد الموزع بين كفي والصديق
قل ساعة قل ساعتين
قل عشرة قل عشرتين

أو قوله في قصيدة " شنق زهران " من قصائد الديوان نفسه :

كان ياما كان أن زفت لزهران جميلة
كان ياما كان أن أنجب زهران غلاما .. وغلاما
كان ياما كان أن مرت لياليه الطويلة

أو قول كمال عمار في قصيدة " قصتنا المحاصرة " من ديوان " أنهار الملح " :

الله لا يرحمه لقاؤنا الملفق السمات
يجعله بلا رجوع
الله لا يرحمه دنيا وآخره

ولئن كان شاعرا كبيرا منهم يبرر استخدام اللغة على هذا النحو قائلا : " وحين نادينا بالعودة إلى لغة الحياة اليومية ، لم يكن قصدنا أن ننظم بلغة أكثر شيوعا أو قربا من عامة الناس كما يخيل للبعض ، إنما كان القصد أن نقلب مستويات اللغة ، كما يفعل الفلاح بمحراثه حين يقلب التربة قبل البذار " [1]

فإن ناقدا كبيرا أيضا عرف بنزعته " الواقعية " في النقد يرد عليه قائلا : " إن الشعر بنية لغوية أساسا . ولكنه بنية لغوية مغايرة للأدوات اللغوية التي تستخدمها . إنه ارتفاع بالمعاني والدلالات العادية لألفاظ اللغة وأنساقها التي نستخدمها في مختلف شئوننا اليومية ، إلى أنساق مغايرة جديدة من المعاني والدلالات . إن الشعر يستخدم اللغة ليخرج عليها ، إنه يخرج عليها بها هي نفسها ليصوغ بنيته التعبيرية الخاصة . ولا شك أن هذا التفارق والتغاير في معاني ودلالات اللغة الواحدة بين نسق استخدامها اليومي واستخدامها الشعري هو ما يشكل شعرية الشعر "[2] .

ومن ناحية أخرى تلفح الشعر عند بعضهم – لا سيما من الأجيال المتأخرة – بكثير من الغموض ، وأصبحت الشاعرية لديهم تقاس بمدى التوغل في الإبهام .

[1] - الخروج من الأسطورة : أحمد عبد المعطي حجازي ، مجلة الهلال ، عدد شهر ديسمبر ، ١٩٨٥ ، ص ٨٤ .
[2] - مدخل إلى قراءة الشعر العربي المعاصر : محمود أمين العالم ، مجلة إبداع ، السنة الثانية عشرة ، العدد الأول ، يناير ١٩٩٤ ، ص ٧٢ .

افتح ديوانا من دواوينهم ، وما أكثرها ! أو مجلة أدبية ، واقرأ ، مستجمعا كل ما حباك الله من قدرة على التركيز والفهم ، ومستحضرا قول الشاعر هيلدرون : " الشعر يتبدى للناس لعبا ، وليس كذلك ، فاللعب يقرب ما بين الناس ولكن على نحو يجعل كل واحد ينسى نفسه فيه . أما في الشعر ، فالإنسان يركز ذاته على وجوده الإنساني ، ويصل هنالك إلى الطمأنينة ، لا إلى تلك الطمأنينة المتولدة من البطالة وفراغ الفكر بل إلى تلك الطمأنينة الضافية التي يصحبها نشاط في جميع القوى والعلاقات " [1] أقول : بعد أن تستحضر هذا القول الهيلدروني ، وتستجمع تركيزك ، اقرأ إحدى القصائد الطويلة أو القصيرة من هذا الشعر " الحديث " ... عندئذ سوف تضع يدك على أحد الأسباب المهمة التي أحدثت – وما زالت تحدث - القطيعة بين الناس والشعر وعمقت الفجوة بينهما في هذا العصر ، إنه تلفح لغة هذا الشعر بالغموض .

والغموض في الشعر يعود – فيما يرى ريتشاردز – إما إلى عجز القارئ عن استيعاب الدلالة ، أو عجز الشاعر عن التوصيل ، الذي يؤدي إلى الإبهام . فكلاهما إذن يتسبب في وجود ظاهرة الغموض ، ويشكل ما يسمى بالجانب الذاتي في مقابل الجانب الموضوعي الخاص بطبيعة الشعر في حد ذاته [2] .

وإذا سلمنا بأن ثلاثة أرباع الشعب العربي تقريبا يعانون من مشكلة الأمية ، وأن غالبية من يسمونهم بالمثقفين من حاملي الشهادات هم أصحاب ثقافة استهلاكية سائدة ، ذات طابع تقليدي مسطح ، فهمنا لماذا يجد النص الشعري الحديث نفسه ذاتا غريبة وسط ركام من حضارة الورق ، الذي يتضخم على نسق تكراري عقيم ، ولماذا يشتكي قراء الشعر من غموض هذا النص وإبهامه .

لكن هذا السبب لا يكفي لإلقاء المشكلة على عاتق القارئ وحده ، لا سيما إذا أعلنت النخبة حتى من الشعراء أنفسهم عجزها عن الفهم والتذوق ! وهذه شهادة شاهد من كبار أهلها وهو الشاعر الفلسطيني الكبير " محمود درويش " ، يقول : " لقد اتسعت تجريبية هذا الشعر بشكل فضفاض ، حتى سادت ظاهرة ما ليس شعرا على الشعر ، واستوت الطفيليات على الجوهر لتعطي الظاهرة الشعرية الحديثة سمات اللعب والركاكة والغموض " . [3]

فإذا أضفنا إلى ذلك ما تحفل به لغة بعض هؤلاء الشعراء المتأخرين من " تهتك ونزق " ، سواء في قصائدهم أو في منتدياتهم على " المقاهي الثقافية " ، عرفنا إلى أي مدى وصلت جناية هؤلاء الثائرين على " اللغة " ، وأدركنا حجم

[1] - " مارتن هيدجر في الفلسفة والشعر" : مرجع سابق ، ص ١٠٠ .
[2] - الشعر العربي الحديث ، مسألة القراءة : إبراهيم رماني ، مجلة فصول ، المجلد الخامس عشر ، العدد الثاني ، صيف ١٩٩٦م ، ص ١٤٨ .
[3] - السابق ، نفس الصفحة .

الفجوة التي تتسع على أيديهم بين الشعر واللغة العربية ، بل بين الشعر والمتلقي ، لأن " المبدع الذي يقطع صلته بمواريثه الفنية والروحية لا يقطع هذه الصلة بواحد من أثرى روافد تجربته الإبداعية فحسب وإنما يقطعها بالشطر الأعظم من جماهيره التي كونت هذه المواريث وعيها وذوقها وثقافتها . ويمكن أن نقرر أن مساحة جماهير المتلقين المتعاطفين مع هذه الظاهرة يتناسب عكسا مع درجة استدبار ممثليها لمواريثهم بحيث يمكن القول – دون أي رغبة في التهكم ، فالموقف أشد قتامة من أن يستثير أية رغبة من هذا القبيل – إن كتاب هذا اللغو – الذي يسمونه شعرا – أكثر من قرائه "[١] .

إن الارتقاء باللغة العربية عن طريق الشعر لا يتأتى إلا بالعزف على الوتر الذي تألفه وتطرب له آذان جمهور المتلقين ، وهو الوتر الذي ينسجم مع طاقات اللغة العربية التعبيرية ، ولا يبدو نشازا إزاء مخزونها الإبداعي ؛ وتر الشعر العمودي . وقد أثبتت خمسون عاما من " الشعر الحر " أنه يتقهقر كثيرا عن أداء رسالة الشعر تجاه اللغة ، وأن الوجود الشعري أصبح مهددا بالتلاشي ما لم يرتو الشعراء من نبعه الأصيل فتعود إليه وإلى اللغة من ثم ، المهابة في قلوب الناس .

المرأة واللغة :

إذا كانت المرأة تعرف بأنها " كثيرة الكلام " ، فلا شك أن في هذا الوصف الذي لازمها دلالة على دور قد اضطلعت به – من حيث تدري أو لا تدري – في الحفاظ على اللغة وإثراء حصيلتها !

فليست كثرة الكلام عند المرأة إلا تداولا نشطا لألفاظ اللغة ، وهذا التداول يضفي عليها حيويتها ، ويمنحها الألفة والاستمرار - ما لم يكن ثرثرة مرضية لا نفع من ورائها ولا جدى - فالكلام – كما يرى دي سوسيسر – هو " صورة اللغة المتحققة في الواقع في استعمال فرد معين في حالة معينة ، وهذا الاستعمال يطابق النظام العام " اللغة " في صفاته الأساسية ، ولكنه يختلف في تفصيلاته من فرد إلى فرد ، ومن حالة إلى حالة "[٢] .

ومن الملاحظ أن صوت المرأة آخذ في العلو يوما بعد يوم في شتى شئوننا العامة (والخاصة !) ، وأصبحت لها منابرها في المنتديات والجمعيات الرسمية والأهلية التي تطرح فيها القضايا المختلفة على بساط البحث والمناقشة ، ثم

[١] إن كان هذا شعرا فكلام العرب باطل : د. علي عشري زايد ، مجلة إبداع ، السنة الرابعة عشرة ، العدد الثالث ، مارس ١٩٩٦ ، ص ٣٣ .

[٢] - تجارب في نقد الشعر : محمد شفيع السيد ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، سنة ١٩٩٠م ، ص ٢٦ .

الإلحاح في المطالبة بتنفيذ ما تسفر عنه مطارحاتهن من نتائج يرونها إيجابية عبر وسائل الإعلام وأبواق الرجال أنفسهم !

غير أن قضية واحدة لم تنل بعد حظا من اهتمامات المرأة ، على كثرتها وتنوعها ، ولم تستأثر بقسط من رعايتها وسعيها الدءوب ، وهي قضية النهوض بلغتنا العربية .

ومن العجيب أن المرأة التي تسعى إلى مزاحمة الرجل في كل المجالات فتعمل عمله الذي كان يظن أنه إنما يسر وحده له ، وتكتسب عضوية الأماكن التي ظل وحده متمتعا بها ؛ ما زالت تطرح من حسبانها مكانا واحدا لم تتكالب عليه كعادتها ، ولم تحظ حتى الآن بشرف الانتماء إليه على الرغم من مرور حوالي سبعين عاما منذ إنشائه ، وهو مجمع اللغة العربية ! وكأن انهماك المرأة في غمرة مشاكلها " النسوية " قد ألهاها عن إسداء الصنيع الذي درجت عليه ، وكان له أكبر الأثر في مسيرتها ، سواء بتنشئة الأبناء على حب اللغة وتقويم ألسنتهم فيها ، أو بإسهاماتها التي تقف – على قلتها – جنبا إلى جنب إسهامات الرجل في صون اللغة وتشكيل كيانها .

ويمكن للمرأة أن تمتطي صهوة اللغة للتعبير عن " قضاياها " ، واللغة إن هي إلا وسيلة تعبير وتفكير في المقام الأول ، وذلك إذا نظرت إلى اللغة على أنها لغة حضارية تشمل الرجل والمرأة وبالتالي هي لغتها وإن كانت لغة محكومة بالرجل . ومن هذه الزاوية فإن المرأة في إمكانها المساهمة في تغييرها وإعادة إبداعها بحيث تشيع فيها مفردات وتركيبات يزول فيها النظر إلى المرأة " كموضوع " وينظر إليها " كذات "[1] .

فضل المرأة على اللغة :

المرأة صاحبة فضل لا ينكر على اللغة العربية منذ تحدث بها أول عربي وعربية عرفتهما البشرية . وقد أورد المازني عدة وجوه لفضل المرأة على اللغة ، منها :

١ – أنها هي التي سمّت الصناعات الأولية (الأعمال المنزلية) التي كانت تقوم بها ، بينما كان الرجل يصيد أو يحارب ، بأسمائها ، وأوجدت لها لغوتها ، وافتنت في ذلك إلى آخر مدى طاقتها فصارت جزءا أصليا من اللغة .

٢ - أنها هي التي صقلت اللغة وأكسبتها مرونتها ؛ لأن الرجل كان يجيئها بقنصه أو يرتد إليها من حربه ، فيقص عليها ما جرى له فتتلقى قصته ، ثم تروح

[1] - إشكالية الإبداع في الأدب النسائي : منى أبو سنة ، مجلة إبداع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، السنة الحادية عشرة ، يناير ١٩٩٣ ، ص ٢٤ .

تعيدها على أترابها وبنيها مرة بعد مرة ، وعلى صور شتى ، وبإيجاز تارة وبإسهاب طورا ، وبديهي أن الاستعمال هو الذي يصقل الكلام .

٣ – أنها هي التي تملأ ذاكرة الأطفال بالمحصول الأول للغة ، وتهيئ لهم أول ما يحتاجون إليه من الذخيرة الكلامية في رحلة حياتهم ، فهي ليست فقط عاملا كبيرا في تقرير لغة الكلام وصقلها ، بل هي أيضا أول معلم نتلقى عنه هذه اللغة .

٤ – أنها تقوم مقام الذاكرة للنوع الإنساني ؛ فهي التي حافظت على الأساطير والخرافات وأغاني الجماعات وأقاصيصها وحكاياتها ، وما زلنا إلى الآن نرى المرأة أحفظ للأمثال من الرجل وأشد إحاطة بها ، ومن أجل هذا كانت أكبر العوامل في المحافظة على اللغة وصون ثروتها ومساعدتها على الاتساع والنمو .[١]

وعلى الرغم من أن قامة المرأة لم تسمق إلى قامة الرجل في ساحة الأدب وإنشاد الشعر ، ولما يشتمل تاريخ الدنيا كله بعد على شاعرة عظيمة – كما يقول العقاد - فإن الأعوام لم تستطع محو بعض إبداعاتها الشعرية التي حملت إحساسها المرهف وعاطفتها الجياشة ، لا سيما في الأغراض التي تدعو إلى استثارة هذه المشاعر كالرثاء ، وهل منا من لم يعجب بمرثيات الشاعرة العربية الكبيرة الخنساء وينفعل بصدقها الشعوري وهي مروية ومعروفة ، أو بالمقطوعات والقصائد الحماسية التي تنزفها دماء الشاعرات ، على رءوس الأشهاد ، إلهابا لمشاعر المناضلين والمجاهدين في الدفاع عن حقوقهم السليبة في فلسطين المغتصبة ، تقول مثلا الشاعرة الفلسطينية المعاصرة " دعد الكيالي " :

شهد الله بأني وأنا
أبدع الشعر وأشدو للخلود
قد كرهت الشعر والنثر معا
وعشقت النار في جوف الحديد
ليتني نار عصوف تمحق
الظلم والطغيان من هذا الوجود
ليتني قنبلة ذرية
فأريح الكون من ظلم اليهود !

وقد أضفت هذه الإسهامات ، لا شك ، إلى اللغة رصيدا كبيرا من الألفاظ والتعبيرات والتراكيب التي سمت بالذوق اللغوي إلى مراتب عالية في شتى فنون القول ، مما لفت أنظار علماء العربية ، فراح بعضهم يفرد مؤلفات خاصة بدور

[١] - أثر المرأة في اللغة : إبراهيم عبد القادر المازني ، مجلة إبداع القاهرية ، السنة العاشرة ، العدد الرابع ، إبريل ١٩٩٢م ، ص ٤٥ .

المرأة المؤثر في حفظ التراث الأدبي واللغوي ، كما فعل على سبيل المثال لا الحصر فخر الدين بن مظفر بن الطراح الذي ألف كتابا في " الشواعر اللاتي يستشهد بشعرهن الجيد البليغ في إثبات قواعد اللغة العربية " ، كما ضمن السيوطي كتابه " نزهة الجلساء في أشعار النساء " أشعارا لحوالي أربعين امرأة في مختلف الأغراض ، وكتب أحمد بن أبي طيفور كتابا في " بلاغات النساء " أورد فيه أشعارهن في الجاهلية والإسلام ، كما أدرج الدكتور محمد عناني قائمة بأسماء الشاعرات اللائي اعترف لهن مؤرخو الأدب بالتميز وحفظت لهن الكتب المطبوعة آثارهن منذ العصر الجاهلي إلى القرن السادس الهجري ، وقد ضمت قائمة شواعر الجاهلية والإسلام حتى القرن السادس الهجري حوالي مائتي شاعرة .[1]

وقد عرفت العربية ، في هذا الصدد ، ظاهرة سبقت بها غيرها من اللغات العالمية ، حيث شهد أدبها ما يعرف بالمنتديات أو" الصالونات " النسائية ، و من أشهر هذه المنتديات قديما ، منتدى السيدة سكينة بنت الحسين التي أفاضت كتب الأدب والتاريخ بذكرها وذكر منتداها الأدبي في المدينة المنورة فضلا عن بعض اللمحات النقدية التي تشي بارتقاء ذوقها الأدبي .أما في العصر الحديث ، فليس أشهر من صالون " مي زيادة " الذي قال فيه العقاد – وكان أحد رواده : " لو جمعت الأحاديث التي دارت في ندوة مي لتألفت لنا مكتبة عصرية تقابل مكتبة " العقد الفريد " ومكتبة " الأغاني " في الثقافتين الأندلسية والعباسية " .[2]

وهكذا لعبت هذه الصالونات الأدبية والثقافية ، دورا كبيرا في إثراء اللغة العربية والحفاظ على حيويتها ، وإبراز قدرتها الفائقة على التطويع والتفاعل في المناقشات والأحاديث وقضايا العلم والثقافة من منظور عصري ، كما بقيت شاهدا على إسهام المرأة البناء في مضمار اللغة . وهو ما نصبو إليها اليوم من أجل ألا تهمل شأنه أو تتغافل عنه ... فهل من مجيبة **؟!**

---

[1]- المختار من أشعار المرأة العربية في الجاهلية والإسلام : د.محمد عناني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٧م ، ص ١٥ .

[2] - منتديات النساء الأدبية : رابح لطفي جمعه ، مجلة العربي الكويتية ، العدد ٤٠٣ ، السنة الخامسة والثلاثون ، يونيو ١٩٩٢م ، ص ١٦٨ .

الفصل الرابع

اللغة العربية
ودعائم الممارسة الديمقراطية

لو أتيــح لي الحكـــم

لبدأت بإصلاح اللغـــة

(كونفوشيوس)

تنص المادة الثانية من مواد الدستور المصري ، وهو التشريع الأساسي في الدولة ، الصادر سنة ١٩٧١م ، على أن : " الإسلام دين الدولة ، **واللغة العربية لغتها الرسمية** ، ومبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسي للتشريع " .

كما تنص المادة الأولى من القانون رقم ١١٥ لسنة ١٩٥٨م[١] ، وهو القانون الذي لا يزال معمولا به - منذ ذلك الحين - في شأن استخدام اللغة العربية في المكاتبات واللافتات ، على أن :

" يجب أن يحرر باللغة العربية ما يأتي :

١- المكاتبات والعطاءات وغيرها من المحررات والوثائق التي تلحق بها والتي تقدم إلى الحكومة والهيئات العامة . وإذا كانت هذه الوثائق محررة بلغة أجنبية وجب أن ترفق بها ترجمتها باللغة العربية .

٢- السجلات والدفاتر والمحاضر وغيرها من المحررات التي يكون لمندوبي الحكومة والهيئات العامة حق التفتيش أو الاطلاع عليها بمقتضى القوانين أو اللوائح أو عقود الامتياز أو الاحتكار أو التراخيص .

٣- العقود والإيصالات والمكاتبات المتبادلة بين المؤسسات أو الجمعيات أو الهيئات ، أو بينها وبين الأفراد . ويجوز أن ترفق بها ترجمتها بلغة أجنبية .

٤- اللافتات التي تضعها الشركات والمحال التجارية أو الصناعية على واجهات محالها ، على أن ذلك لا يمنع من كتابة هذه اللافتات بلغة أجنبية إلى جانب اللغة العربية بشرط أن تكون اللغة العربية أكبر حجما وأبرز مكانا منها .

كما تنص المادة الثالثة من القانون نفسه على أن :
" تكتب باللغة العربية العلامات التجارية التي تتخذ شكلا مميزا لها ، والأسماء والإمضاءات والكلمات والحروف والأرقام وعنوان المحل والأختام والنقوش

[١] - منشور بالجريدة الرسمية في ١٢ من أغسطس سنة ١٩٥٨م ، العدد ٢٢ مكررا (انظر الملحق رقم ٢ في خاتمة هذه الدراسة) .

البارزة . ولا يجوز طلب تسجيل علامة تجارية تتخذ أحد هذه الأشكال والمميزات إلا إذا كتبت باللغة العربية . على أن ذلك لا يمنع من طلب تسجيل علامة مكتوبة بلغة أجنبية إلى جانب اللغة العربية بشرط أن تكون اللغة العربية أكبر حجما وأبرز مكانا منها . أما العلامات التجارية التي تم تسجيلها طبقا للقانون ، فيجب على مالكها التقدم بطلب جديد لتسجيلها بعد تعديلها وكتابتها باللغة العربية وذلك في خلال سنة من تاريخ العمل بهذا القانون . ولا يجوز تجديد تسجيل أية علامة انتهت مدة حمايتها القانونية إلا إذا تم تعديلها وكتابتها باللغة العربية " .

وتنص المادة الرابعة منه على أن :
" تكتب باللغة العربية البيانات التجارية المتعلقة بأية سلعة يتم إنتاجها بالجمهورية العربية المتحدة ، أما المنتجات والبضائع التي تستورد من الخارج ، فتلصق عليها بطاقة باللغة العربية ، تتضمن تحديد البيانات التجارية التي لها دخل في تقدير قيمتها ويصدر بتحديد هذه البيانات قرار من وزير الاقتصاد والتجارة . ويجوز أن تضاف لغة أجنبية إلى جانب اللغة العربية فيما يتعلق بالبضائع المعدة للتصدير إلى الخارج " .

وتنص المادة الخامسة على أن :
" كل من يخالف أحكام المادة الأولى والثالثة والرابعة من هذا القانون يعاقب بغرامة لا تقل عن عشرة جنيهات ولا تزيد على مائتي جنيه .
وتحدد المحكمة للمخالف مهلة لا تجاوز ثلاثة أشهر لتنفيذ ما أوجبته المادة الأولى فإذا انقضت المهلة ولم يقم بتنفيذ ذلك عوقب بالحبس مدة لا تزيد على ستة أشهر وبغرامة لا تقل عن خمسين جنيها ولا تزيد على خمسمائة جنيه أو بإحدى هاتين العقوبتين . فإذا وقعت الجريمة من إحدى الشركات أو المحال التجارية أو الصناعية ترفع الدعوى العمومية على مدير الشركة أو صاحب المحل أو مديره أو الشخص المشرف على العمل ".

جريمة مسكوت عنها :

وهذا القانون ، على الرغم من صدوره منذ أكثر من أربعين عاما ، لا يكاد يشعر بوجوده أحد ، وأصبحت مخالفة نصوصه من الجرائم المسكوت عنها في هذا الزمان ، حيث لا تطبق نصوصه في الواقع ، ولا شك أن إهدارها يعد إهدارا لسيادة القانون الذي اعتبرته المادة الرابعة والستون من الدستور أساسا للحكم في الدولة ، فضلا عن أن العقوبة فيه لم تعد رادعة ، ولا تتناسب مع المخالفات والانتهاكات المنصوص عليها في حق اللغة القومية ، فغرامة عشرة جنيهات مصرية - أي ما يساوي الآن حوالي دولارين - لا تعني شيئا بالنسبة للمخالفين ، بينما تصل هذه الغرامة في دولة كفرنسا إلى ألفي دولار !

ولذلك لا يعبأ بتنفيذ مواد هذا القانون كثير من غير الحراص على اللغة العربية ، وانتشرت من ثم اللافتات والإعلانات التي تحمل أسماء أجنبية ، وأخطاء وانتهاكات لا حصر لها في أصول اللغة وقواعدها ، وقد غصت بها الشوارع والميادين في المدن المصرية بل كادت تغزو القرى والنجوع ، (منها على سبيل المثال لا الحصر : تسيباس ، ماكدونالد ، ومبي ، بيتزا هوت ، كنتاكي ، جرين لاند ، ثري براذرذ ، فايف ستارز ... إلخ) .

فإذا لم تكن ثمة أمة في العالم تسمح بكتابة الأسماء الأجنبية على لافتاتها في بلدانها ، فليت شعري : ما الذي يضير حركة البيع والشراء في البلدان العربية إذا التزمت المحال والشركات التجارية بكتابة لافتاتها باللغة العربية ؟ ولكنها " عقدة الخواجة " ، والرغبة المميتة في التقليد الأعمى الذي يجعل الإنسان في وطنه غريب الوجه واليد واللسان !

لقد آن الأوان ، إذا كنا جادين في النهوض باللغة العربية ، أن تعيد السلطة التشريعية النظر في هذا القانون ، لتأتي عقوباته رادعة لكل من تسول له نفسه انتهاك حرمة اللغة في أوطانها وبين ذويها ، وأن تضرب السلطة التنفيذية بيد من حديد كل محاولات العبث باللغة بالعربية .

وليس بمنأى عنا ما تتخذه السلطات المعنية في دول العالم المختلفة من وسائل المحافظة على كيانها اللغوي .

ففي ألمانيا على سبيل المثال ، تتحدث وكالات الأنباء عن محاولة استحداث شرطة للغة تقوم بردع المستبيحين ساحة اللغة الألمانية .

أما الشرطة الفرنسية فأعينها يقظة دائما لمنتهكي اللغة الفرنسية ، وتقف بحزم لتطبيق القوانين واللوائح حيالهم ، وقد غرمت مجموعة مطاعم شهيرة في فرنسا (فرانس كويك France-Quick) في عام ١٩٨٤م ٣٥٠٠ فرنك لأن قائمة الطعام فيها ضمت وجبات قدمت بأسماء أجنبية ، مثل : هامبورجر Hamburger ، كما كلف ذكر كلمة فلتر Filter الإنجليزية في أحد الإعلانات الشركة المعلنة غرامة قدرها ٧٥٠٠ فرنك ، على الرغم من أن الكلمة الفرنسية المقابلة لا تختلف عنها سوى في ترتيب الحرفين الأخيرين ، أي Filtre !

وهذه الغرامات التي تحصلها الشرطة الفرنسية من المخالفين والمسيئين توردها إلى " L'Agulf ، أي : الرابطة العامة لمستخدمي اللغة الفرنسية " التي تقدم هذه البلاغات والإساءات ضد الشركات والأشخاص المخالفين إلى المدعي

العام الفرنسي نفسه ، وتنال الحالات التي تفرض فيها عقوبات على المخالفين قدرا كبيرا من اهتمام وسائل الإعلام [1] .

أليست اللغة العربية أولى بمثل هذه اليقظة الدائمة للقوامين على استتباب واستقرار وجودها والحفاظ على هيبتها في بلادها وبين ذويها ؟!

ولو كانت هذه الجريمة المسكوت عنها مقصورة على المكاتبات واللافتات ، لهانت بلواها ، ولكن العبث باللغة العربية – ويا للحسرة – قد امتد إلى الهيئة التي يناط بها المراقبة ، وإصدار القوانين والتشريعات التي تحافظ على أوصال الكيان اللغوي من التحلل والانسياح ، وأعني بها مجلس الشعب ؛ حيث يجري تحت قبته امتهان وإهدار اللغة العربية الفصحى ؛ لأن معظم أعضائه لا يحرصون على التحدث بها .

وتحفل مضبطة مجلس الشعب التي تكاد تصبح كلها بالعامية بانتهاكات لغوية صارخة ، فضلا عن المآخذ المتنوعة ، والامتعاضات التي لا تنتهي من قبل أعضائه المخضرمين الذين يضجون من عدم دقة الصياغة اللغوية لبعض المواد والنصوص القانونية التي تعرض علي المجلس ليرى فيها رأيه ، لا سيما نصوص الاتفاقيات الدولية ، وتستنفد جزءا كبيرا من وقت المجلس في تهذيبها والاتفاق على القالب الذي يبدو أنسب في صياغتها قبل الموافقة عليها وإقرارها ، وهو ما يدل على عدم وجود تنسيق بين أهل اللغة وأهل القانون في هذا الصدد ، على الرغم من أن كلتا الصياغتين : القانونية ، واللغوية متلازمتان .

ولم تصل الصياغة ، وهي عملية لغوية في المقام الأول ، إلى حد الفوضى التي تحتاج إلى وضع ضوابط وأصول ، إلا لأن كثيرا من الصائغين لم يغوصوا في أعماق اللغة العربية - كما كان أسلافهم يغوصون - فيرتشفون من رحيقها وذوقها وحسها ، ولذا لم يلتفتوا إلى وضع قواعد وأصول لما ارتأوا أنه من المعلوم من اللغة بالضرورة !

وقد رفع الدستور مجلس الشعب مكانا عليا ؛ حيث ناط به مهام خطيرة ومسئوليات عظيمة ، فهو يمثل السلطة التشريعية ، ويقر السياسة العامة للدولة ، والخطة العامة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية والموازنة العامة للدولة كما يمارس الرقابة على أعمال السلطة التنفيذية (المادة ٨٦ من الدستور) .

ولا ريب أن من يظفر بعضوية مجلس الشعب لن يتأتى له الاضطلاع بهذه المهام ما لم يكن على دراية كافية باللغة العربية قراءة وكتابة ، ولهذا بات من

[1] - اللغة والاقتصاد : فلوريان كولماس ، ترجمة د. أحمد عوض ، مرجع سابق ، ص ١٧٤ .

الضروري التثبت من توافر هذا الشرط في المرشح على وجهه الصحيح بحسبان أن اللغة العربية هي لغة البلاد الرسمية وتصاغ بها كافة القوانين والتشريعات .[١]

ولئن كانت مصر تكاد تنفرد بين دول العالم بوجوب أن يكون نصف عدد أعضاء مجلس الشعب على الأقل من العمال والفلاحين ، طبقا لنص المادة ٨٧ من الدستور، فإن القانون رقم ٣٨ لسنة ١٩٧٢م في شأن مجلس الشعب ، قد اشترط فيمن يرشح لعضويته عاملا أكان أم فلاحا أم من أية فئة أخرى ، ليكون أهلا للمشاركة في أعمال المجلس والقيام بمهامه الثقال ، وأعبائه الجسام ، ألا تقتصر معرفته بالقراءة والكتابة على مجرد الإلمام البسيط بهما ، بل أن يجيدهما إجادة تامة " فيكتب اللغة العربية بطريقة صحيحة ودون أخطاء فاحشة ، على نحو ما يكتب المجيدون ، ويقرأ كما يقرأ المجيدون ، ولا يكفي أن يجيد إحداهما دون الأخرى .

فإذا افتقد الشخص إجادة القراءة أو الكتابة يكون فاقدا لأحد الشروط الواجبة في المرشح لعضوية مجلس الشعب ، فإذا قبل ترشيحه على الرغم من ذلك كان القرار الصادر في هذا الشأن مخالفا للقانون " [٢].

وعلى الرغم من وضوح هذه النصوص ، ترزأ اللغة العربية في كل انتخابات بمن يضرب بهيبتها عرض الحائط ، مستعينا بسلاح المال بغية التسلل إلى عضوية مجلسي الشعب أو الشورى ، فيرشح نفسه دون أن يكون مجيدا للغة العربية نطقا وكتابة (أجرت محكمة القضاء الإداري استكتابا لأحد المرشحين لعضوية مجلس الشعب في انتخابات سنة ٢٠٠٠م ، في حوالي خمس جمل قصيرة ، فأخطأ ستة عشر خطأ إملائيا !) [٣] .

وهذه آفة أخرى لا معدى عن التصدي لها ونحن بصدد النهوض بلغتنا العربية ، سواء بتضييق الخناق على أمثال هؤلاء المتجرئين على اللغة عند الترشيح لعضوية المجالس النيابية ، أو بسن التشريعات التي تحول دون تكالبهم على تحقيق مآربهم ولو على حساب مهابة اللغة ، أو بالالتزام بتنفيذ أحكام القضاء الذي لا يزال الملاذ الأول وكلمته هي العليا – وإن كانت يده ليست الطولى - في الحفاظ على لغتنا العربية من عبث العابثين .

[١] - حكم محكمة القضاء الإداري في الدعوى رقم ١٩٣ لسنة ٥٥ القضائية ، الصادر بجلسة ٢٠٠٠/١١/٧م ، ص ٤

[٢] - حكم محكمة القضاء الإداري في الدعوى رقم ٢٩٢ لسنة ٥٥ القضائية ، الصادر بجلسة يوم ٣١ / ١٠ / ٢٠٠٠ ، ص ٣ .

[٣] - المرجع السابق ، ص ٤ .

اللغـة العربيـة والقضـاء :

بين اللغة والقضاء علاقة لا تنفصم ، فاللغة هي القالب الذي تصاغ فيه أحكام القضاء ، ومستودع نصـوص الدستـور والقانون ، وهي زاد القاضي وأداتـه التي يفصح بها عن وجه الحق والحقيقة : نطقا في قاعـة المحكمـة ، وكتابة حين يسبح قلمه في أنهار الصحف معبرا عن دقيق فهمه وحقيق رؤيته ، والقضاء يحفظ للغة هيبتها سواء في أحكامه التي تتأكد مصداقيتها كلما حرصت على سلامة اللغة واجتناب اللحن فيها ، أو بردع من يجترئ على نصوص التشريع التي تنظر إلي اللغة باعتبارها رمزا لكيان الأمة ومظهرا لتوحد أبنائها .

وقد شهدت الممارسة القضائية في مصر تنوعا في الأداء اللغوي تبعا لتعدد اللغات التي قدر للمجتمع المصري ، منذ فجر تاريخه ، أن تستوعب نظامه القضائي . فاللغة المصرية القديمة كانت الوعاء الذي حمل إلي العالم أقدم تشريع ظهر في وادي النيل في القرن الخمسين قبل الميلاد وكانت لغة التخاطب والمساجلات القضائية أمام المحاكم المصرية .

كما خلدت برديات اللغة المصرية القديمة نصـوصا وتعبيرات وأساليب غاية في الرشـاقة والبلاغة (كشكاوى الفلاح الفصيح التي جاءت في تسع خطب من أبدع وأروع ما قيل في مدح العدل وذم دناءة الموظفين الذين يخرجون علي مقتضياته في معاملة أفراد الشعب) ، بيد أن الفراعنة كانوا يؤثرون لإجراءات التقاضي أن تتم ، في مجملها ، بلغة مكتوبة خشية أن تلقي براعة الخطباء وسحر بيانهم ظلالا كثيفة على الحق .

وفي زمن الإغريق فرضت اللغة اليونانية على الشعب المصري ، وهيمنت على إجراءات التقاضي ، فكانت تبرم بها العقود بين المصريين والإغريق ، ثم تترجم إلي اللغة المصرية .

وإلي أواخر العهد الروماني كانت الكتابات المتداولة في مصر على ثلاثة أشكال مختلفة ، وهي الكتابـة الهيروغليفيـة التي لم تختف إلا في أواخر القرن الرابع بعد الميلاد ، والكتابة اليونانية التي كانت مستعملة في الدواوين وأنظمة القضـاء والمحاكم ، والكتابـة القبطيـة وهي لهجـة متطورة من اللغـة المصرية القديمة [١] .

وعندما فتح عمرو بن العاص مصر ، وأخذ ينظم القضاء وفق أحكام الشريعة الإسلامية ، بدأت اللغة العربية تفرض وجودها وانتشارها شيئا فشيئا ،

[١] - موسوعة مصر القديمة : سليم حسن ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، طبعة ٢٠٠١ م ، الجزء الثاني ، ص ٣٨٣

وهي لم تكن غريبة على مصر حين جاء الإسلام إليها ؛ فقد كان لها هنا تاريخ طويل يمتد عدة قرون قبل ظهوره ، وربما قبل ظهور المسيحية أيضا ، حين كانت وفود القبائل العربية تقصد مصر إما للتجارة وإما للاستقرار [1] .

وقد حلت اللغة العربية محل اللغة اليونانية في الوثائق والمكاتبات الرسمية منذ أن أمر الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان عام ٨٧ هـ = ٧٠٦ م بتعريب دواوين الدولة الإسلامية ، وارتدت إجراءات التقاضي من ثم حُلّة اللغة العربية التي تغلغلت في مسالك أنفاس الحياة المصرية حتى أصبحت لغة للتخاطب والثقافة لكل المصريين على السواء .

والحق أن قصة استقرار اللغة العربية في مصر من القصص الفريدة التي لا تتكرر كثيرا في التاريخ ؛ فمصر قد تتابع عليها حكام أجانب على امتداد تاريخها الطويل من هكسوس وآشوريين وفارسيين ويونان ورومان دون أن يتمكن أحد منهم من القضاء على اللغة الوطنية المصرية تماما ، إلى أن جاء العرب فتمكنوا من فرض لغتهم وإحلالها محل القبطية .

وما أن تمكنت اللغة العربية في مصر حتى رسخت – كما يرى الدكتور أحمد مختار عمر - رسوخ الجبال ، وقاومت هجمات الاستعمار المتنوعة واستطاعت أن تصمد أمام تيارات الغزو الأجنبي ، سواء كان تركيا أو فرنسيا أو إنجليزيا ، وظلت – ولن تزال – لغة مصر حامية العروبة [2] .

دور القضاء في تمهيد اللغة العربية :

كان لقضاة الإسلام وفقهائه فضل كبير في تمهيد اللغة العربية وجعلها حقا لغة علم وتفكير عميق ، وقد ذهب الدكتور طه حسين – في كلمته التي ألقاها ترحيبا بالقاضي عبد الحميد بدوي عضوا بالمجمع اللغوي - إلى أن " أحدا لم يخدم اللغة العربية في تاريخها كما خدمها الفقهاء " .

و كان الفقه أسبق الدراسات الإسلامية إلي تكوين لغته الخاصة فأدت البلاغة الفقهية للبلاغة العربية ما لم تؤده روافد الفصحى في أي مجال .

وقد أشار الدكتور عبد الرزاق السنهوري (واضع مشروع التقنين المدني ورئيس مجلس الدولة الأسبق) - في محاضرته التي ألقاها بمجمع اللغة العربية

---

[1] - تاريخ اللغة العربية في مصر والمغرب الأدنى : د. أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٢ ، ص ١٩ .

[2] - السابق ، ص ١٩٦ .

عام ١٩٤٨ م - إلى أن ثمة وجه شبه حقيقيا بين اللغة العربية والفقه الإسلامي ، هو أن الفقه واللغة على السواء مصادرهما واحدة .

فمصادر الفقه الإسلامي هي الكتاب والسنة ، أي : النص ، ثم القياس ، والإجماع ، ومصادر اللغة العربية هي أيضا النص الذي ينحصر في الألفاظ والعبارات التوقيفية التي ورثناها عن أجدادنا الأولين والتي يأبى البعض إلا أن يقف عندها ، وهم في ذلك يعتبرون أهل الظاهر في اللغة ، ويقابلون أهل الظاهر في الفقه ، ثم القياس فيستنبطون صيغة من أخرى سماعا وقياسا ، ويشتقون ، وينحتون ، ثم الإجماع ؛ فالإجماع في اللغة كالإجماع في الفقه : مصدر جوهري ، وهو الذي يكفل التطور في اللغة كما كفل التطور في الفقه ... ولا بد للإجماع في اللغة – كالإجماع في الفقه – من قواعد يتركز فيها ويستقر عندها .[1]

ومنذ أن التقي القضاء في مصر باللغة العربية تحت لواء الإسلام ، ظل كل منهما يحكي مسيرة الآخر ويتأثر به في فترات القوة والضعف على مر القرون المتعاقبة ، بيد أن أسوأ فترة مرت علي القضاء المصري تلك التي أقصيت فيها اللغة العربية عن الدواوين الحكومية ، وحلت محلها اللغة التركية ، ولو أن الدولة العثمانية - كما يقول " جمال الدين الأفغاني "- اتخذت اللسان العربي لسانا رسميا وسعت لتعريب الأتراك لكانت في أمنع قوة ، ولكنها فعلت العكس إذ فكرت بتتريك العرب ، وما أسفهها سياسة ، وما أسقمه من رأي ! "[2]

وليس ثمة شك في أن إقصاء اللغة العربية و إهمالها كانت له آثاره السلبية على مظاهر الحياة الاجتماعية في مصر في ذلك الوقت لا سيما في مجال القضاء ؛ لأن القاضي الذي كان يعين من قبل السلطان ، وربما كان تركيا لا يجيد لغة الأخصام ، لم يكن له من هم سوى استغلال سيف العدالة في استنزاف خيرات البلاد ، ومن ثم استشرى الفساد ، وخمدت جذوة العقل ، وظلت العربية ترزح تحت نير التجاهل والاضطهاد .

حتى بزغ فجر القرن التاسع عشر ، وشمر المصريون عن ساعد الجد في تلمس أسباب النهوض والارتقاء بحياتهم العلمية والثقافية ، بعد أن ضربت الحملة الفرنسية بسهم وافر في تنبيه المصريين من غفلتهم التي طال بها الأمد ، فأدركوا أن لا سبيل إلى النهوض دون أن ينفضوا عن لغتهم العربية غبار السنين ، فصرفوا إليها الهمم شعرا ، ونثرا .

١ - عبد الرزاق السنهوري من خلال أوراقه الشخصية : د. نادية السنهوري ، ود. توفيق الشاوي ص ٣٨٥ .

٢ - الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني : تحقيق الدكتور محمد عمارة ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٨ م ، ص ٣٢٤ .

وصاحبت انتفاضة اللغة ونهضتها الأدبية صحوة قضائية ، بعد أن أخذ رفاعة الطهطاوي على عاتقه نقل القانون الفرنسي إلى اللغة العربية ، وبدأ بالكود حيث نقله مع تلامذته في مدرسة الألسن في ثلاثة مجلدات طبعت سنة ١٨٦٦ م وأولها في القانون المدني ، والثاني في قانون المحاكمات والمخاصمات ، والثالث في قانون الحدود والجنايات ، واضطلع رفاعة وحده بنقل قانون التجارة الفرنسي .

وعندما أنشئت المحاكم المختلطة عام ١٨٧٥ م ، لنظر المنازعات التي تثار بين الأجانب المتمتعين بالامتيازات الأجنبية بعضهم والبعض وبينهم وبين المصريين ، ترجمت قوانينها إلى اللغة العربية ، ولكن بقاءها كان يمثل افتئاتا علي استقلال القضاء المصري ، وسيادة اللغة العربية ، فأنشئت المحاكم الأهلية عام ١٨٨٣ م .

وبدأ القضاء المصري الأهلي يباشر أعماله منذ هذا التاريخ ولكن الأحكام الصادرة عنه كانت في مبدأ أمرها ضعيفة الأسلوب سقيمة التركيب ، تختلط فيها الألفاظ العربية بالألفاظ التركية والعامية والمبتذلة ، وكانت هذه الأحكام " تحتاج إلى قوة ذهنية كبيرة لفك رموزها وطلاسمها ، ثم غلبت عليها اللغة العربية ، ولكنها كانت ركيكة سقيمة معتلة ، ويكفي أن نقرأ في أحكام ذلك العهد عبارات مثل : " ومن ذلك ينفهم للمحكمة " أو " من حيث ليس للمتهم شهود " أو " يتبين من سبوق المخاطبة " ... إلخ [١] .

ثم غذي القضاء بفحول من القضاة قدروا اللغة العربية حق قدرها ، وأدركوا ما تحتاج إليه لغة الكتابة من إعمال فكر وتمعن ؛ فعمدوا إلى تخليصها من الترهل والابتذال .

ومضى الرقي في طريقه غير وانٍ ولا متردد ، وساير سمو الأسلوب نضوج الفكر ، واكتشفت أو اشتقت ألفاظ عربية لتؤدي معاني فقهية وقانونية حديثة ، وغمر سيل هذه النهضة المباركة دور المحاكم كلها لا فرق بين جزئية وابتدائية واستئنافية ، وطبعت الأحكام بطابع جليل متميز جمع إلى دقة الأداء رشاقة اللفظ وجمال الأسلوب [٢] .

ومنذ أنشئ مجلس الدولة المصري عام ١٩٤٦ م ميزانا للعدالة بين الشعب والحكومة ، اضطلع رجاله الأفذاذ من الرعيل الأول بدورهم تجاه اللغة العربية علي خير وجه ؛ فأثروها تعريبا واصطلاحا ، ثم تأليفا وإبداعا في نظريات

---

[١] - محاضرات في الأدب القضائي : المستشار أحمد فتحي مرسي ، المركز القومي للدراسات القضائية ، ١٩٨٩م ، ص ١٧ .

[٢] - لغة الأحكام والمرافعات: زكي عريبي ، الكتاب الذهبي للمحاكم الأهلية ، نادي القضاة ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٠ ، الجزء الثاني ، ص ١٨٦

القانـون الإداري ، وضاهت لغة أحكامهم في جزالة ألفاظها ودقة تعبيراتهـا وحسـن عباراتهـا أحكـام محكمـة النقض التـي كـان قد مـر علـى إنشـائها خمسـة عشـر عامـا وغدت أحكامها مثالا يحتذى في نصاعة التعبير ودقـة الأسلوب .

ولكن الأمر في بادئـه لـم يكـن هينـا علـى المشـتغلين بالقضـاء ؛ حيث صـادفت مهمـتهم الجليلـة صـعوبات تمثلـت فـي ضـرورة إيجـاد الألفـاظ والتراكيـب اللازمـة لتأدية معان مشهورة مستقرة في اللغات الأجنبية وبخاصـة اللغـة الفرنسية ، ولكـن بفضـل إخلاصـهم للغتهم العربيـة ، وثقتهم بقدراتها ، وهـي التـي شـهد لهـا التـاريخ بالفضل في احتواء الحضارات الأخرى فضلا عن إبداعها الحضاري ، تمكنوا من التغلب علـى هذه الصـعوبة التـي واجهت جل المشـتغلين بالقـانون فـي مصـر آنـذاك قضاة كانوا أو وكلاء نيابة أو محامين .

ويضـرب الأسـتاذ زكـي عريبـي المحـامي اليهـودي - الـذي كـان يحفظ القـرآن ويترافـع بـه ! - مثلا علـى هذه الصـعوبة ، بتـردده فـي تأديـــة معنـى action liee entre بـين دعـــوى مربوطـــة ، و دعــوى معلقة ، ودعــوى قائمـة ، حتـى استقام المعنـى لمحكمة النقض بريـاسة إمـام اللغة القضــائية العصـــرية عبد العزيز باشا فهمي بأنها دعوى مرددة بين خصمين .

كمـا يـذكر الأسـتاذ إبـراهيم أنـيس موقفـا طريفـا حـار فيـه القضـاء الإنجليـزي بصدد دعوى أقامها أحد أعضـاء النـادي المصـري فـي لنـدن عـام ١٩٣٦ م بعد أن أحالته اللجنـــة التنفيـذية للنـــادي إلـى " مجلس تأديب " ، وكـان أهـم مـا استند إليـه فـي دعـواه أن كلمـــة " تأديـب " تنـاظر الكلمـة الإنجليزيـة " punitive " وهـي كلمة مهينة فيها قذف وتشـهير بسمعته ، وانتـدب للشـهادة بعض المتخصصـين فـي اللغتـين العربيـــة والإنجليزيـــة لترجمـــة كلمـــة " تأديـب " ، هـل هــي : punitive أو disciplinary ، فلـم يجمعـوا علــى رأي ، وظلــت القضــية منظـورة ثـلاث سنوات تحملـت فيهـا الحكومـة المصـرية آلاف الجنيهـات وتحمـل المدعى آلافا أخرى ولم تنته إلا بتنازل الأخير دون الاهتداء لـرأي حاسم فـي دلالـة كلمة " تأديب " [1]

وكان هذا هو الشأن فـي أول العهد بالدلالات الجديدة التـي حُملت بهـا بعض المرادفـات والألفـاظ ، ولكـن بفضـل مثـابرة رجـال القـانون وسـدنته فـي مصـر ، استقرت مقاصـد الألفـاظ والتعبيرات وأصـبحت جـزءا مـن الثقافـة العامـة للمجتمـع المصـري ، بعد أن نسجوا لها من خلال ممارساتهم وخبراتهم أزهـى أرديتهـــا مـن المسميـات الدقيقة المعبرة ؛ مما حفز مجمع اللغة العربية ومن بـين أعضـائه رجـال

[1] - علم الإعلام اللغوي : عبد العزيز شرف ، ١٣٩ .

قـانون أجـلاء ، إلـى إخـراج معجـم القـانون ، وهـو مخـتص بألفـاظ ومصـطلحات وتعبيرات القانون ، وقد حوى بين دفتيه ثمانية آلاف مصطلح في مختلف فروع القانون وفنونه ، وكانت مهمة إعداده قد بدأت منذ ما يربو على نصف قرن ، فيا لهـا من تؤدة ، ويـا له من طول بال !

تطور لغة الأحكام :

ظلت الأحكام تحكي بلغتها الممشوقة الرصينة ، وبنائـها المحكم ، وديباجتها المشرقة ، مسيرة قضاء مصر الشامخ ، وتثير الإعجاب بقدرتها على تطويع اللغة العربية بدقة الأداء وحسن اختيار اللفظ . ولا شك أنها قد تـأثرت فـى تطورها بلغة الصحافة التي أوجدت في العربية ما يسمى باللغة الثالثة ، وهي لغـة تمت إلى الفصحى من حيث تمسكها بصحة البنـاء النحوي ، وخلوها من الأخطاء ، وإلى العامية من حيث استخدام الألفاظ المتداولة قريبة المعنى والمنال .

مالت لغة الأحكام ، من ثم ، إلى الترسل والوضوح وهو سمة عامة في أنواع الكتابات القانونية ، حيث إن اللغة القانونية بصفة عامة لغة مباشرة ، بمعنى أن كل كلمة فيها لها مدلول مقصود لذاته ، بل إن كل موضع تأخذه العبارة القانونية يتم اختياره عن عمد لدواعي الدقة والوضوح حتى ولو كان ذلك يؤثر على سلاسة الأسلوب وبلاغته . ومن ثم فإنه يقال بحق : إن اللغة القانونية لا تصلح لاستخدامها في التخاطب وربما لهذا السبب أيضا ، تخلو اللغة القانونيـة من المحسنـات البديعيـة والأساليب البلاغية (مثل الاستعارة والتشبيه والتورية ... إلخ) حيث إن استخدام هذه الأساليب يضيف غموضا للمعنى قد يكون مطلوبا في اللغة الأدبية لكنه من المحرمات في اللغة القانونية .[1] لأنه – كما يقول الدكتور السنهوري – يجب أن تكون لغة التقنين واضحة دقيقة ، فاللغة المعقدة تجعل القانون مغلقا ، كما أن اللغة غير الدقيقة تجعل القانون مبهما .[2]

واللغة في الأحكام القضائية وسيلـة لا غايـة ، وغرضها التقريب والإقنـاع ويغلب على جملها التقليد و التكرار ، لا سيما في فواتـح الفقرات (ومن حيث إن) ؛ حتى أصبحت لغة سـاكنة مستقرة ، وألفاظها محـددة منضبطة ، وإن مال أسلوبها إلى السرد في عرض الوقائع ، والتسلسل المنطقي في بيـان الأسباب ، والتركيز في ذكر المنطوق . و لعل النماذج الآتية وهي مقتطفات من بعض الأحكام الصادرة حديثا تبرز المدى الذي وصل إليه تمهيد اللغة العربية من حيث

[1] - أصول الصياغة القانونية بالعربية والإنجليزية : محمود محمد علي صبرة ، القاهرة ، طبعة سنة ٢٠٠١م ، ص ٢٧ .

[2] - السابق ، ص ٢٨ .

تطويعها في التعبير عن الفكرة القانونية ، من خلال بناء وسبك الأحكام وما تتميز به من سلاسة وقوة ودقة ووضوح في التعبير :

- ... لا ينوب عن الشعب ويعبر عن إرادته وينبض بنبضه ويحس بآلامه ويلتحم مع آماله ، إلا من كان مصريا خالص المصرية ، فلا تشارك هذه الرابطة المقدسة رابطة معها ... فلا يستقيم للمواطن من وطنين في قلبه يستويان لديه . فالجنسية المصرية المتطلبة كشرط للترشيح لعضوية مجلس الشعب لا تحتمل شركة مع غيرها ، ولا تقبل في القلب والنفس مزاحما ولا منافسا أو شريكا .[١]

- ... ذلك أن الطالب الذي يسب الدين لأستاذه ويعتدي عليه بالضرب ويحدث به إصابات وفي داخل حرم المدرسة أو يشترك في ذلك ولو بالتحريض هو شخص منحرف السلوك ، انطوت نفسه على روح الاستهتار بالواجب والاستهانة بالعلم والمعلمين والاستخفاف الشديد بحرمة محراب العلم وهيبته ، بما ينعكس أثره على زملائه من الطلاب وأساتذته من المدرسين انعكاسا سلبيا يعود بالضرر البالغ على دواعي الانضباط والحفاظ على كرامة المعلم الذي كاد أن يكون رسولا ، وهي دواع أساسية لازمة لضمات حسن سير العملية التعليمية ، ومن ثم فإن هذا الشخص عضو فاسد في المجتمع المدرسي يجب بتره بمحو صفة الطالب عنه والتي لم يعد يستحقها بعد أن فقد أهم سماتها ، وهي حسن السلوك والتحلي بمكارم الأخلاق التي هي عماد كل طالب لاستمراره في المجتمع الطلابي والمسيرة العلمية .[٢]

- ... ومن حيث إن ضمان الدستور لحرية التعبير عن الآراء والتمكين من عرضها بنشرها في الصحف أو بغير ذلك من وسائل التعبير إنما قد تقرر بوصفها الحرية الأصلية التي لا يتم الحوار المفتوح إلا في نطاقها وبدونها تفقد حرية التعبير مغزاها وتفرغ من مضمونها ، وكذلك فإن ما توخاه الدستور من خلال ضمان حرية التعبير وأخص مظاهرها حرية الصحافة والنشر أن تترامى آفاقها وأن تتعدد وسائلها وأن تتفتح مسالكها وتفيض منابعها فلا يحول دون ذلك قيد يكون عاصفا بها مقتحما دروبها وذلك لأن لحرية التعبير أهدافا لا تستقيم بدونها وهي أن تظهر من خلالها الحقيقة جلية لا يداخلها باطل ولا يعتريها بهتان [٣] .

[١] - (حكم المحكمة الإدارية العليا الصادر بجلسة ٢٠٠٠/١١/٦ في الطعن رقم ١٩٦٠ لسنة ٤٧ القضائية) .

[٢] - (حكم محكمة القضاء الإداري الصادر بجلسة ٢٠٠٠/٢/١٥ في الدعوى رقم ٨٦٧١ لسنة ٥٣ القضائية)

[٣] - (حكم محكمة القضاء الإداري الصادر بجلسة ١٩٩٩/١٢/١٤ في الدعوى رقم ٤٨٢٨ لسنة ٥٣ القضائية) .

تخوف لا بد منه :

غير أن ما بات يخشى منه على وقار لغة الأحكام القضائية أن تعاين بين الفينة والفينة ، بعض صور اللحن الذي وصل - لا سيما في الأحكام التي تصدر عن محاكم أول درجة - إلى حد الخطأ الفاحش في قواعد النحو والإملاء ؛ ولا مناص أمام القضاة الذين يضطلعون بكتابة الأحكام من إتقان اللغة العربية والإلمام بقواعدها ؛ حتى يروضوا أنفسهم على التحدث والكتابة بلغة عربية صحيحة ؛ فتأتيهم المعاني أرسالا ، وتنثال عليهم الألفاظ انثيالا - كما يقول الجاحظ - و يتمكنون من التعبير والإفصاح بها عن صحيح حكم القانون فيما يقضون به ؛ وإلا وجدوا أنفسهم - متى قصروا دونها – تائهين بين لفظ متأبٍّ وعبارة مستعصية وفكرة لا تسعف .

فاللغة نور يسطع به الحق ، ومعرفتها - كما يري الإمام ابن تيمية - فرض واجب ، لأن فهم الكتاب والسنة لا يتم إلا بها ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب " ، وليس أضيع لبهجة لغة الأحكام من شيوع اللحن فيها ، وقد كان الناس قديما – كما يروي ابن فارس - يجتنبون اللحن فيما يكتبونه أو يقرءونه اجتنابهم بعض الذنوب ، وليس أدل على ذلك من أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد عد اللحن في اللغة ضربا من الضلال ، فقال – صلى الله عليه وسلم - عندما لحن رجل في حضرته : " أرشدوا أخاكم ؛ فإنه قد ضل " .

ولا شك أن القاضي ، وهو يحمل على كتفيه رسالة العدالة ، وما أجلّها وأسماها من رسالة ! أولى الناس بالتمسك بصحة قواعد اللغة ، ولا يليق أن يعتذر عن ذلك بأن دراسته تنصب على علوم القانون والتبحر فيه ؛ فمثل هذا القول إنما يدل على قصور في مناهج كليات الحقوق بصفة خاصة ، لأن المتخرجين فيها قد أصبحوا الدعامة التي ينبني عليها صرح القضاء المصري الذي يضيره لا شك أن تهمل دراسة قواعد العربية فيها بصورة أساسية لا ثانوية . وما لم يتدارك القائمون على أمر مناهج الكليات المختصة بدراسة القانون هذا الخلل ، فسوف تمتد آثاره السلبية لتشمل مختلف أوجه الحياة القانونية في مصر . وقد تطال صياغة النص القانوني التي تعد نقطة التقاء بارزة بين اللغة و القانون . فنصوص القانون هي نصوص لغوية في المقام الأول ، وصياغتها لا بد فيها من الدقة ، سواء من حيث وضع الأحكام والمقاصد التي تتغياها تلك النصوص أو بإلباسها الرداء الأنسب من ألفاظ اللغة .

وليست الصياغة التشريعية عملية هينة لأنها تتطلب فضلا عن الخبرة القانونية ، خبرة لغوية ، وهذه لا تتأتى إلا بامتلاك ناصية اللغة والتمكن من

تطويعها للتعبير عن المعنى القانوني دون زيادة أو نقصان ، ودون خلل في أداء اللفظة عن المعنى المراد لها في سياقها في التشريع ، وإلا أدى الخلط وعدم الدقة في استخدام ألفاظ اللغة إلى نوع من الغموض واللبس في فهم المعنى المراد من النص التشريعي المصوغ كما سبق . ولذلك يتوقف الصائغ طويلا أمام دقائق اللغة ويستنطق مصادرها ، ليحسم استخدامه لفظا دقيقا التناقض أو الجدل الذي قد يثار في الاستخدام العملي . وهكذا تمضي عملية مراجعة الصياغة من دقيق لأدق ومن فصيح لأفصح ، ليخرج العمل التشريعي في النهاية مبرءا من عيب الخطأ في الاستخدام اللغوي مما يمكن من أداء المهمة الجليلة التي شرع من أجلها تحقيقا لمقاصده بلغة عربية سليمة ، ومنضبطة ودقيقة ، وكل ذلك لا يتحقق دون الإلمام الكافي بقواعد اللغة والتمكن من أدواتها ومما يزيد الأمر سوءا أن تشغى مذكرات أغلب المحامين بانتهاكات في الصياغة فضلا عن الأخطاء الواضحة في قواعد النحو والإملاء والتي لا تخطئها عين ، ناهيك باللفظ الضحل ، والأسلوب الركيك !

بيد أن هذا لا يعني أن رجل القانون - قاضيا كان أو مترافعا - مطالب بدراسة قواعد اللغة وآدابها دراسة المتخصص فيها - وإن كان هذا يزينه لا يشينه - وإنما بمجرد الإلمام بقواعدها الأساسية التي تحفظ لقلمه ولسانه الاستقامة في التعبير ولحكمه أو مرافعته الهيبة والإجلال وقديما قيل : " ليس للاحن حرمة " ! وما أحوج نهر الضاد إلى الروافد العذبة ، التي اعتاد القضاء على أن يمده بها ؛ فانحنت له الرءوس تقديرا وإجلالا ؛ وما أحوج لغتنا العربية إلي الإخلاص لها والاعتزاز بها الذي أصبح مطلبا حضاريا لا يقل في وجوبه عن الاعتزاز بحجية أحكام القضاء .

تجربة رائدة :

يقدم مجلس الدولة المصري تجربة فريدة في النهوض بمستوى اللغة العربية في كتابة الأحكام القضائية ، من خلال تنمية المهارات اللغوية لدى أعضائه ، نتوقف عندها عسى أن تصبح سنة تتبعها الجهات المماثلة في الحرص على سلامة اللغة العربية واجتناب اللحن في كل ما يصدر عنها من مكاتبات . حيث ألزم مجلس الدولة أعضاءه المعينين حديثا (من درجة مندوب إلى درجة نائب) اجتياز دورة في اللغة العربية بدأ تنظيمها بالفعل في رحاب المجلس نفسه في مطلع العام الحالي (٢٠٠٢م) ، ولأول مرة في تاريخه .

وقد نبعت فكرة هذه الدورة ، لا شك ، من الإحساس بالغيرة على اللغة العربية ، وضرورة الحفاظ على هيبتها، وهو ما ينم في الوقت ذاته عن تقدير لأهمية الدور الذي يضطلع به مجلس الدولة جيلا بعد جيل في إثراء اللغة العربية ، والتأكيد على قدرتها ومرونتها في ميدان القضاء وقد دعا المجلس إلى

هذه الدورة محاضرين من أساتذة الكليات المختصة بتعليم اللغة العربية وآدابها ، وقدم بعضهم منهجا تناول فيه موضوعات متنوعة تفيد دارس العربية على نحو تطبيقي ، وقد شمل هذا المنهج أبوابا متعددة لتنمية المهارات اللغوية ، على النحو الآتي :

أولا - اللغة :
محاضرات تطبيقية تتناول ما يلي :

١. كيفية الكشف عن معاني الألفاظ في معاجم مدرستي القافية والأبجدية العادية ويكتفى بنموذج أو اثنين من كل مدرسة كالقاموس المحيط ولسان العرب وأساس البلاغة والمعجم الوسيط .
٢. الأصوات اللغوية : ترتيبها ، والطرائق الصحيحة لمخارجها وصفاتها .

ثانيا – النحو والصرف :
محاضرات تطبيقية تتناول ما يلي :
تقسيم الكلمة إلى اسم وفعل وحرف .
الاسم المفرد والمثنى والمجموع جمعا سالما أو جمع تكسير ، والمشتقات
الفعل وأنواعه وتصريفه وإسناده إلى الضمائر .
الإعراب والبناء .
النعت بالمفرد والجملة .
التوكيد المعنوي ، وألفاظه ، والتوكيد اللفظي ، وما يشترط فيه .
عطف البيان : تعريفه – الفرق بينه وبين النعت ، وبينه وبين البدل – حكمه الإعرابي .
عطف النسق : حروفه ، وأنواعها ، ومعانيها ، وشروط العطف بها
البدل : أنواعه ، ومطابقته للمبدل منه .
النداء : حروفه – إعراب المنادى المفرد وغير المفرد .
أساليب التحذير والإغراء ، والمنصوب على الاختصاص .
أسماء الأفعال والأصوات .
نواصب المضارع وجوازمه .
المصادر – التصغير – النسب – فعلا التعجب .

ثالثا – البلاغة :
محاضرات تطبيقية تتناول ما يلي :
التشبيه : تعريفه ، وأنواعه .
المجاز المرسل وعلاقاته .
الاستعارة وأنواعها .
الكناية : تعريفها ، وسر بلاغتها ، وأنواعها .

المحسنات البديعية :
أ – المعنوية : الطباق – المقابلة – المشاكلة – التورية – اللف والنشر – الجمع والتفريق – تأكيد المدح بما يشبه الذم والعكس – حسن التعليل – المبالغة .
ب – اللفظية : الجناس – رد العجز على الصدر – السجع .

ولا شك أن هذا المنهج يؤتي أكله بالقدر الذي تعد معه هذه الدورة بذرة ينثرها مجلس الدولة وهو جهة قضائية أصلا في بستان اللغة العربية ، وعيا بأهمية الحرص على سلامتها في بناء الأحكام والفتاوى الصادرة عنه وهي نصوص لغوية في المقام الأول ، وهو مسلك حضاري تضعه الأمم نصب أعينها ، فترتقي بقدر ارتقائها بلغاتها ، ومدى حرصها على التمسك بها .

وقد حذا مجلس الدولة ، منذ عام ١٩٩٣م ، حذو محكمة النقض المصرية في تعيين بعض المصححين اللغويين من الحاصلين على شهادات التخصص في اللغة العربية .

ولكن التوسع في تعيين المراجعين اللغويين والاعتماد عليهم على أهميته وضرورته حاليا ، لا يمكن أن يكون بديلا للقاضي الذي يضطلع هو نفسه بكتابة الحكم عن إتقان اللغة العربية والإلمام بقواعدها ؛ حتى يمكنه امتلاك أدوات التعبير عن رؤيته القانونية والقضائية بلغة عربية خالية من المزالق والأخطاء .

وقد كان المثقفون وأرباب العلم في مصر كما يقرر الدكتور محمد عبد البديع حتى بداية النصف الثاني من القرن العشرين على درجة عالية من التمكن في اللغة العربية وآدابها فجاءت مؤلفاتهم وكتاباتهم خالية من أية أخطاء نحوية وبأسلوب رفيع ، وكانت أحكام القضاء ومرافعات المحامين قطعا أدبية ينتظمها سياق عربي رصين سليم من اللحن وبرئ من الركاكة والضعف .

أما في النصف الثاني من هذا القرن فقد واجهت اللغة العربية ما يشبه الأزمة وأصبح أهلها كالغرباء عنها ، فلا تكاد تظفر بأديب أو كاتب أو عالم متمكن في العربية من غير المتخصصين فيها . ولم ينجح نظام الاستعانة بالمصححين اللغويين في ضمان سلامة المؤلفات في شتى مجالاتها أو الرسائل العلمية أو المقالات التي يراجعونها من الأخطاء النحوية ؛ وهم معذورون في ذلك لأنهم يراجعون مواد علمية وأدبية ومقالات في فروع شتى من فروع المعرفة لا يلمون بها مما قد يصعب معهم فهم مدلولها والتعرف على مواطن الخطأ فيها لصعوبة

استيعاب المعنى فضلا عما يصيبهم من ملل تشرد معه أذهانهم وتمر أعينهم على الأخطاء فلا يتبينونها" [1].

تبسيط قواعد اللغة :

شغل تبسيط القواعد وتيسير تعلمها لغير المتخصصين فيها ، بال كثير من أرباب اللغة قديما وحديثا ، فوضعوا مؤلفات تجل عن الحصر يقدمون فيها عصارة القواعد النحوية التي تفيد غير المتخصص من زاوية الاستخدام العملي ، منها على سبيل المثال : " الجمل في النحو " للزجاجي ، و " الواضح " للزبيدي ، و" اللمع " لابن جني ، " والتفاحة في النحو" لأبي جعفر النحاس ... إلخ قديما ، و" النحو الواضح " لعلي الجارم و" النحو المصفى " لمحمد عيد ، و" النحو الوظيفي " لعبد العليم إبراهيم ... إلخ حديثا ، وكل هؤلاء العلماء من أهل اللغة المشتغلين بها .

غير أن حرص بعض رجال القانون على أهمية تجنب اللحن في كتابة العمل القانوني ، وفي الأحكام القضائية على وجه الخصوص ، وإحساسهم بخطر استشراء الأخطاء اللغوية في بناء هذه الأحكام - قد حفزهم إلى الخوض في مضمار التأليف اللغوي ، واستنهض الهمة إلى تبسيط قواعد اللغة العربية بوضع " موجز لقواعد النحو العربي " من خلال " عرض مبسط واف مع دراسة ميسرة لكافة القواعد بأمثلة واضحة معربة " [2] .

ولكن طرق باب اللغة من جانب غير المختصين فيها - مهما حسنت مقاصدهم ودعت إليه غيرتهم عليها - إنما يعكس مظهرا من مظاهر أزمتها الراهنة ، يتجسد من ناحية في انشغال كثير من أهلها عنها بقضايا جدلية في الدرس اللغوي لا طائل اليوم للمستخدم العادي غير المتخصص من ورائها ، ومن ناحية أخرى في عدم اهتمام بعض هؤلاء اللغويين بالوضوح والتيسير في طريقة عرض قواعد اللغة وآدابها ، فاتسمت بعض الكتب التي يضعها هؤلاء بالصعوبة مما أدى إلى نفور المستخدم العادي منها والتجائه إلى الكتب الأخرى الأسهل والأوضح وإن كان ذلك على حساب مادتها العلمية ، وكان من نتيجة ذلك أن أصبحت اللغة كلأ مباحا يدلي كل من أراد فيها بدلوه !

ولا غرو إذن أن يشوب محاولات التأليف في اللغة العربية من جانب غير أهلها قصور في فهم قواعدها ، وأخطاء من ثم في عرضها والتصدي لها ، لأن " الخلفية اللغوية " والمراس الذي يتولد من دراسة اللغة بصورة متعمقة طوال

---

[1] - موجز النحو العربي : دكتور محمد عبد البديع ، دار الأمين للنشر والتوزيع ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦ ، ص ٨ .

[2] - انظر على سبيل المثال : " موجز النحو العربي " للمستشار الدكتور محمد عبد البديع ، مرجع سابق .

سنين متعاقبة مما لا يتوافر لديهم ، ولو أن أهل اللغة - مهما اجتهدوا - ألفوا في غير تخصصهم ، في القانون مثلا ، فلن تأتي تآليفهم على النحو الذي يرتضيه المبرزون فيه ، فاللغة أولى برجالها كما أن القانون لا يعي خوافيه ويقف على مقاصد أحكامه وقواعده الدقيقة مثل رجاله .

الفصل الخامس

اللغة العربية
ومنجزات العلم الحديثة

إنما يفيد لغة الأمة وعلومها وأخبارها
قوة دولتها
ونشاط أهلها وفراغهم
وأما من تلفت دولتهم
وغلب عليهم عدوهم
واشتغلوا بالخوف والحاجة والذل
وخدمة أعدائهم
فمضمون منهم موت الخواطر
وربما كان ذلك سببا لذهاب لغتهم
ونسيان أنسابهم وأخبارهم
وبيود علومهم
هذا موجود بالمشاهدة
ومعلوم بالعقل بالضرورة

(ابن حزم)
" الإحكام في أصول الأحكام "

اللغة صدى لنبض الواقع الذي تعيش فيه ، وهي المعيار الذي يقاس به حظ الأمم من التحضر والمدنية ، فارتقاء الشعوب في معارج الرقي إنما يعكس مدى اهتمامهم بلغتهم ، وقدرة هذه اللغة على استيعاب أنشطتهم العقلية ، أما الشعوب التي تهمل لغتها أو تؤثر عليها - دون مبرر- لغة أخرى غيرها ، فإنما تصير مسخا مشوها في الفكر واللسان ، ويغلب عليها " الطابع الاستهلاكي " فلا تقوى في دنيا العلم على الإبداع والابتكار ، واللغة – كما يقال - إن هي إلا شكل من أشكال العقل ، تضاهيه بنية وعملا .

وقد عاشت اللغة العربية ردحا طويلا من الدهر تعكس ما وصل إليه العرب من تقدم علمي في شتى المجالات ، وأثبتت مرونتها الفائقة من خلال التطور الذي أصاب مدلولات مفرداتها وطرائق التعبير بها قدرتها العالية على استيعاب التحول التدريجي الذي طرأ على المجتمع العربي فانتشله من حياة البداوة إلى مظاهر التحضر والتمدن ، بحيث أصبحت العربية خلال فترة وجيزة من نزول القرآن الكريم لغة العلوم العقليـة (كالطب والكيمياء والفلك والطبيعة) مثلما هي لغة العلوم النقلية (كالفقه والتفسير والكلام) ، بل غدت لغة العلم الأولى التي لا تضاهيها لغة في القرون الوسطى ، وخلفت آثارا تشهد بعبقرية العلماء العرب الذين عرفوا للغتهم العربية قدرها كما عرفه لها الأدباء فصعدوا بها جميعا كما صعدت بهم إلى عنان السماء .

ثم أصاب اللغة العربية سبات عميق ضرب على آذان أبنائها في كهف تخلفهم سنين عددا ، وما أن بدأت تفيق من الغفوة حتى وجدت نفسها في مهب ريح صرصر عاتية تثيرها - دون هوادة - مستجدات العلم الحديثة التي تترى عليها من كل صوب وحدب ، وأصبحت تجابه تحديا خطيرا يهدد مكانتها الحضارية في اجتياز مرحلة هامة من مراحل تطورها ، وما أشبه حالها اليوم وهي تلتمس النصرة من أبنائها وتحاول الاحتماء بهم ، بحال من يستجير من الرمضاء بالنار !

ولا شك أن الهوة الواسعة التي تفصل بين المجتمعات العربية وإنجازات العلم والتكنولوجيا التي تعتمد على اللغة في تقنيتها ، وتعتمد عليها اللغة في حل مشاكلها المزمنة ، لها أكبر الأثر في تخلف اللغة العربية عن اللحاق بركب اللغات العالمية في هذا المضمار ، بحيث تقف أية محاولة للنهوض باللغة عند مدى استخدام أهلها لمثل هذه المنجزات العلمية في معالجة قضايا الدرس اللغوي التقليدية ومسايرة روح العصر من الناحيتين النظرية والعملية بعد أن أصبحت المعرفة مرتبطة كليا

بهذه المنجزات وغدا تعريف الأمية في بعض المجتمعات المتقدمة مرادفا لعدم استجابة الأفراد للتعامل مع منجزات العلم الحديثة وبخاصة جهاز الكمبيوتر .

اللغـة العربية والكمبيوتر :

يتبوأ جهاز الكمبيوتر مكانا عليا بين المنجزات العلمية الحديثة ، حيث بدأ التوسع في استخدامه في معالجة اللغات الطبيعية معالجة آلية ، تكشف عن خصائص هذه اللغات ، وتمكن من التعامل مع ظواهرها المختلفة تيسيرا لتعلمها وتوسعا في نشرها .

ولعل العرب لم يدر بخلدهم قديما أن " حساب الجُمَّل " الذي كانوا يستخدمونه للعدّ في تعاملاتهم اليومية ، منذ الجاهلية ، سيصبح الأساس الذي ينبني عليه أهم اختراع توصل إليه الإنسان في العصر الحديث ! فحساب الجمل طريقة حسابية استخدمت في اللغات السامية ، توضع فيها أحرف الهجاء مقابل الأرقام ، فيأخذ الحرف الهجائي القيمة الحسابية للعدد الذي يقابله وفق جدول محدد يقوم على حروف أبجد .[1]

وجوهر الوظيفة الأساسية التي تقوم بها وحدات الإدخال الرئيسة (لوحة المفاتيح مثلا) في جهاز الكمبيوتر هو تحويل الحروف ، وكل ما يغذى إليها ، إلى أرقام ، وعن طريق أسلوب التشفير يأخذ كل حرف من حروف الألفباء شفرة رقمية ؛ فتحل سلاسل الأرقام – وقوامها الصفر والواحد - محل سلاسل الحروف في الكلمات ، ومن ثم الجمل ، وما عداها من نصوص في ذاكرة الكمبيوتر ، ثم تقوم وحدات الإخراج (الطابعات مثلا) برد الأرقام ، بعد معالجتها آليا ، إلى صورتها الطبيعية الأولى .[2]

وصوغ اللغة على أنها سلسلة من الرموز ذات الخصائص المحددة التي أمكن وضعها في إطارين : رياضي ، وإحصائي ، تشكلت في ضوئهما لغات البرمجة

---

[1] - وهذه الحروف هي (أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ) ومجموعها ثمانية وعشرون حرفا ، التسعة الأولى منها للآحاد (من ١ إلى ٩) والتسعة الثانية للعشرات (من ١٠ إلى ٩٠) والتسعة الثالثة للمئات (من ١٠٠ إلى ٩٠٠) أما الحرف الثامن والعشرون ، وهو الغين ، فقيمته ١٠٠٠ ، فإذا زاد العدد على الألف وضع قبل الغين حرف مناسب ؛ فالخمسة الآلاف مثلا يقابلها (هغ) وهي تساوي (٥ × ١٠٠٠) وأربعون ألفا يقابلها (مغ) وتساوي (٤٠ × ١٠٠٠) وهكذا يكون تركيب أي عدد بالحروف التي تلائمه ، وعلى هذه الطريقة ، تساوي كلمة ، مثل : (جواد) الرقم (١٤) ؛ لأن الجيم يقابلها ٣ ، والواو يقابلها ٦ ، والألف يقابلها ١ ، والدال يقابلها ٤ . وقد استخدم المسلمون حساب الجمل في التأريخ للمعارك ، والوفيات ، والأبنية وغيرها .
ومن أمثلته : عندما توفي السلطان (برقوق) وهو من سلاطين المماليك ، قاموا بصياغة عبارة تحدد تاريخ وفاته ، وهي : **(في المشمش)** ، وهي عبارة لا تخلو من طرافة ؛ فوفاة برقوق (في المشمش) ، والقيمة العددية لهذه العبارة هي : ف = ٨٠+ ي = ١٠+ أ = ١+ ل = ٣٠+ م = ٤٠+ ش = ٣٠٠+ م = ٤٠+ ش = ٣٠٠ = ٨٠١
وعليه تكون وفاة السلطان (برقوق) قد حدثت بتاريخ (٨٠١هـ) !

[2] - العرب وعصر المعلومات : د. نبيل علي ، عالم المعرفة ، العدد رقم ١٨٤ ، أبريل ١٩٩٤م ، ص ٦١

العالية - هو محصلة الدراسات اللغوية الحديثة التي رادها " دي سوسير " مؤسس علم اللسانيات ، بنظريته في البنوية اللغوية التي تقوم لديه على ثنائية الرمز ومدلوله ، وتزعمها في هذا العصر " أفرام ناعوم تشومسكي " بنظريته التوليدية التحويلية التي وضعها عام ١٩٨١م ، فقلبت الفكر اللغوي رأسا على عقب ، وواءمت بين الدراسات اللغوية والتقنيات الحديثة .

وقد أقر " تشومسكي" بأن النحو العربي كان له بالفعل تأثير كبير على نظريته في دراسة اللغة ، وأنه اعتمد على " كتاب سيبويه " كمرجع له .[١] ولا غرو في ذلك ؛ فقد طبق تشومسكي الأسس الرياضية على التحليل اللغوي بهدف وضع قواعد محددة ودقيقة للغة ، والنحو العربي " ينبني في جوهره على تصور منطقي رياضي استطاع بفضله اللغويون العرب أن يحللوا اللغة تحليلا دقيقا من خلال مفاهيم الباب والأصل والفرع والقياس وغير ذلك من الوسائل العقلية التي مكنتهم من اكتشاف مراتب ووحدات اللغة المتداخلة " [٢] ، فضلا عن أن الفكرة التحويلية التوليدية توجد في صلب قواعد اللغة العربية ، وما الحذف ، والإضافة ، والتقديم ، والتأخير إلا جزء منها .

كما أن اللغويين العرب القدامى قد تناولوا قضايا اللغة تناولا علميا دقيقا توصلوا من خلاله إلى جملة من النتائج العلمية التي لا تختلف كثيرا عما تتمخض عنه النظريات اللغوية الحديثة في الغرب مما يدل على أسبقيتهم واتصاف إسهاماتهم اللغوية بالعالمية وصلاحيتها للتناول والبحث في كل زمان مكان فضلا عن تأثر الإبداع اللغوي في الحضارات المختلفة بنظريات العلماء واللغويين العرب ورؤاهم الإبداعية في محيط الدرس اللغوي . فقد نظروا إلى اللغة مثلا على أنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم (ابن جني – بلومفيلد) تتكون منها الكلمات ، والكلمات تحتوي على المعاني (ابن الحاجب – دي سوسير) ، والكلمات متناهية لأن الأصوات متناهية (الكياهرسي – مارتينيه) ، واللغة مواضعة واصطلاح (ابن خلدون – دي سوسير) ، واللغات تختلف من مجتمع لآخر (ابن جني – بلومفيلد) ، واللغة فعل قصدي وملكة لسانية (ابن خلدون – سابير – تشومسكي) .[٣]

---

[١] - علم الترجمة وفضل العربية على اللغات : إبراهيم بدوي الجيلاني ، المكتب العربي للمعارف ، القاهرة ، طبعة ١٩٩٧م ، ص ١٩٤ .

[٢] - منطق النحو العربي والعلاج الحاسوبي للغات : عبد الرحمن الحاج صالح ، السجل العلمي لندوة استخدام اللغة العربية في تقنية المعلومات ، مكتبة الملك عبد العزيز العامة ، الرياض ، ١٩٩٣م ، ص ٢٨ . وقد أعدت دراسات كثيرة مقارنة بين نظرية " تشومسكي " وما سبقه إليه اللغويون العرب في شتى جوانبها ، منها ، على سبيل المثال : " استقامة الكلام بين سيبويه و تشومسكي " للدكتور ميشال زكريا .

[٣] - بحوث ألسنية عربية : د. ميشال زكريا ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٢، ص ٥٩ إلى ص ٧٣ .

تطور العلاقة بين اللغة والكمبيوتر :

توثقت العلاقة بين اللغـة والكمبيوتر ، منذ ظهور جيله الأول عام ١٩٤٦م ، حتى بلغت درجة عالية من التفاعل العلمي والتقني بفضل التطور الهائل في علوم اللسانيات ، والوثبات العلمية التي تحققت في ميادين علوم الكمبيوتر والاتصالات وانتشاره السريع ، لاسيما بعد بدء استخدام الكمبيوتر الشخصي عام ١٩٨٢م ، والتوسع في استخدام شبكة الإنترنت ، واستهداء علمائه بخصائص اللغات الطبيعية في تصميم لغات البرمجة الاصطناعية .

فنتج عن تدرج هذه العلاقة الحميمة ، بالنسبة إلى الكمبيوتر، تهيؤه بالسرعة الفائقة ، وضخامة الذاكرة ، وضآلة الحجم ، وأساليب الذكاء الاصطناعي ، ولغات البرمجة العالية ، أما بالنسبة إلى اللغة ، فقد تهيأت بدورها للمعالجة الآلية بدخولها مجالات التحليل الرياضي والمنطقي والإحصائي .[1] ، فضلا عن أن استخدام الكمبيوتر في دراسة اللغة ومعالجتها يزيد من سرعة إنجاز العمل العلمي ، ويحقق المنهجية والموضوعية في مناهج البحث اللغوي .

ولكن اللغة الإنجليزيـة التي ظهر الكمبيوتر في كنفها ، قد حظيت بنصيب ما زال الأوفر ، بين جميع لغات العالم ، من المعالجة الآلية ، وذلك بفضل هيمنة المتحدثين بها على صناعة الكمبيوتر عتادا وبرمجيات ونظما لم تصمم في الأصل إلا لتلبي مطالب ثقافتهم وثقافة لغتهم ، مما استنهض همم علماء اللغة بالتعاون مع الحاسوبيين في إنشاء مراكز بحثية تخصصت في دراسة وتأصيل الصلة بين اللغة وتكنولوجيا المعلومات - كما في الولايات المتحدة الأمريكية – وكان لها أكبر الأثر في اكتشاف وتعميق جوانب التحليل اللغوي ، وظهور دراسات تنظيرية جديدة في معالجة اللغة الإنجليزية آليا ، واستخدامها تبعا لذلك في البرمجة وشفرات تبادل البيانات ، وتدوين معظم مراجع ودوريات وبحوث تكنولوجيا المعلومات .

وقد تحقق للغة الإنجليزية بفضل جهاز الكمبيوتر ، من الشيوع والانتشار، ما لم يتحقق للغة من لغات العالم حديثا ، على الرغم من أن المتحدثين الأصليين بها لا يشكلون سوى نسبة ١٠% تقريبا من سكان العالم . و من ثم أدرك علماء اللغات الإنسانية ، في الشرق والغرب ، أن لغاتهم قد بات وجودها مهددا بالخطر ، في ظل هذه الغزوة الشرسة التي تشنها عليها الإنجليزية ، في عقر دارها ، متخفية في رداء هذا الجهاز العجيب ، وملحقاته التقنية التي يزداد الاعتماد عليها ، ويتعاظم دورها يوما بعد يوم ، بل ساعة بعد ساعة ، في شتى مناحي الحياة المعاصرة .

[1] - العرب وعصر المعلومات : د. نبيل علي ، مرجع سابق ، ص ٣٦٤ .

ويتوفر اليابانيون منذ حين على إنتاج جيل من الكمبيوتر يعتبر لغويا في المقام الأول ، حيث يعملون على تأهيله للتعامل مع اللغة بصورة طبيعية وذلك بهدف كسر حاجز العزلة اللغوية التي تعاني منها اليابان ، أملا في السيطرة على سوق المعلوماتية العالمي والذي يعد فيه تعامل تكنولوجيا المعلومات مع لغات العالم المتعددة عاملا حاسما في تحقيق هذه السيطرة .[1]

وقد استطاع اليهود تطوير النظم المتقدمة لمعالجة نصوص التراث العبري ، وخطوا خطوات واسعة في مجال الترجمة الآلية بين اللغات العالمية ولغتهم العبرية ، بل بين هذه اللغات ولغتنا العربية الأكبر سوقا والأهم عالميا ، مستغلين في ذلك التشابه اللغوي بين العربية والعبرية ؛ فكلتاهما من لغات العائلة السامية كما سبق .

أما نحن ، فلم نقصر يوما – كما يقول الدكتور نبيل علي - في إظهار الحمية على لغتنا القومية ، وضرورة الحرص عليها ، ومداومة تطويرها ؛ إلا أننا في الوقت ذاته نعاني حالة مزمنة من غياب إرادة الإصلاح اللغوي ! لقد استرخينا واستكنا إلى ما آلت إليه لغتنا ، وكأن لغات شعوب العالم تنمو بشكل تلقائي وتبرأ من عللها دون تدخل من أحد (من أبنائها) . إننا نشكو من أزمة لغوية حادة تلطخ جبيننا الحضاري ؛ أزمة على جميع الصعد تنظيرا وتعليما ، نحوا ومعجما ، استخداما وتوثيقا ، إبداعا ونقدا . وجاءت تكنولوجيا المعلومات لتضيف إلى هذه الأزمة بعدا فنيا متعلقا بمعالجة اللغة العربية آليا بواسطة الكمبيوتر . ولا يخفى على أحد أن وضعنا اللغوي الراهن ينذر بفجوة لغوية تفصل بيننا وبين كثير من الأمم التي تولي لغاتها القومية أقصى درجات الاهتمام ؛ بصفتها – أي اللغة – شرطا أساسيا للحصول على عضوية " نادي المعلومات العالمي "[2] .

ولعل من الضروري ، ونحن نتناول أسباب النهوض بلغتنا العربية ، أن نتوقف مليا أمام ما حققه استخدام جهاز الكمبيوتر في معالجتها التي بدأت متأخرة عن كثير من اللغات الأخرى ، وما وصلت إليه من إنجازات حتى الآن ، وما عساه أن يقدم لها من أسباب هذا النهوض المنتظر ، وكيفية تطويعه لتلبية متطلباتها ، كإحدى وسائل العلم الحديثة ، ورصد التغيرات والتطورات التي تترى عليها في أجواء التحول الجارف والانفتاح القسري على العالم ، وما يستتبعه ذلك من ضرورة الحفاظ على تماسك الكيان اللغوي .

وإذا كان الاتجاه السائد في الأوساط الرسمية يميل إلى أن " التوجه العلمي لأبناء الجيل الجديد بإقبالهم على الأخذ بالتقنيات العلمية الحديثة ، واستخدام

[1] - السابق ، ص ٣٤٩ .
[2] - الثقافة العربية وعصر المعلومات : د. نبيل علي ، عالم المعرفة ، يناير ٢٠٠١ م ، ص ٢٣٦ .

الحاسب الآلي ، وتعاملهم بمهارة فائقة مع شبكة الإنترنت ، سيكون له مردوده الإيجابي على استخدامهم اللغة ، بحيث تكون أكثر دقة ووضوحا ، وأنصع تعبيرا وبيانا "[1] ؛ فإن من العبث أن تتكالب الجهات المعنية بتحويل مجتمعنا إلى مجتمع " معلوماتي " ونشر وسائل التقنية الحديثة ، دون أن يسبق ذلك ، أو في الأقل يزامنه ، منهج واضح لكيفية الصمود لغويا أمام تحديات اللسان الأجنبي ، وتوفير البنى الأساسية لمعالجة اللغة العربية معالجة آلية تتيح لها الاستفادة من هذه الوسائل ، والإفادة من ثم في دنيا المعلومات كوعاء للثقافة العربية والإسلامية .

وقد أنفقنا وقتا طويلا ، واستنزفنا جهدا مضنيا ، في الجدل حول بعض المسائل " الهامشية " التي لم تفد اللغة العربية بنقير أو قطمير من فروعها وأصولها ، كالجدل الدائر بين مستخدمي الكمبيوتر حول مدى جدوى تعريب مصطلحاته ، وتدريسها باللغة العربية ، بل إن كلمة " كمبيوتر " نفسها التي ترجمها الفرنسيون إلى لغتهم بكلمة واحدة هي " Ordinateur " لم تستقر إلى الآن ترجمة واحدة لها في البلدان العربية في المشرق والمغرب ؛ حيث ترجمت إلى : الحاسب الآلي ، والحاسوب ، والمحيسب الكهربائي ، والعقل الإلكتروني ، والنظامة ، والرتابة ، والكبتار ... إلخ ، ولم يستقر أمره إلى اليوم [2] !

وعلى الرغم من أن شركات برامج الكمبيوتر العالمية التي لا يهمها إلا السعي وراء الربح ، وتعرف من أين تؤكل الكتف ، تقدم لنا ، على أطباق من ذهب المعز، نظم تشغيل وبرامج وتطبيقات تدعم اللغة العربية من خلال تعريب واجهات الاستخدام لتكون باللغة العربية ، فإن كثيرا من المستخدمين العرب ، ويا للعجب ، يفضلون عليها واجهات اللغات الأخرى ، كالإنجليزية ؛ وكأنهم استقلوا على أنفسهم أن يكتفوا بدور المستهلك لما تنتجه عقول غيرهم من برامج وتطبيقات فراحوا يلوكونه بألسنتهم أيضا (لنصير مسخا في العقل واللسان) ظنا منهم أن اللغة العربية غير قادرة على التجاوب التقني ، في حين أن النسخة العربية المطروحة لا تختلف من حيث الاستعمال عن غيرها من نسخ اللغات الأخرى ، وإلا لما أقدمت على طرحها وتسويقها أصلا هذه الشركات !

ولو كان الأمر يقف عند حد هذا التعريب المباشر في استخدام برامج ونظم التشغيل التي لم توضع أصلا لتعبر عن حاجات الثقافة العربية ؛ لهان ، ولكن اللغة العربية في حاجة إلى تصميم برامج تلائم خصائصها وسماتها التي تتفرد بها ، وإلى المزيد من استكشاف جوانب التحليل اللغوي التي لا محيص عنها في

[1] - انظر : الكلمة التي ألقاها الدكتور مفيد شهاب وزير الدولة للبحث العلمي في مؤتمر مجمع اللغة العربية التاسع والستين حول " اللغة ووسائل الإعلام " .

[2] - أثبت الاستخدام العملي أن كلمة (كمبيوتر) قد طغت على غيرها من الترجمات الأخرى ، شأنها شأن كلمة تليفزيون وكلمة تليفون ، لذلك آثر المؤلف ألا يغفل استخدامها دون مفاضلة لأي من هذه الترجمات على حساب الأخرى لعدم جدوى ذلك الآن .

تطويعها لمطالب المعالجة الآلية وتتجاوز تلك القضايا التقليدية التي يعج بها كثير من مناهج وطرق البحث اللغوي ، لتطوير تقنياتها، وقدرتها على التفاعل مع الكمبيوتر أخذا وعطاء ، لا سيما بعد أن سهلت بنية الكمبيوتر المفتوحة وتطوره السريع إلحاق برمجيات وتقنيات خاصة بلغات وثقافات أخرى غير الإنجليزية .

المعالجة الآلية للغة العربية :

أثبتت اللغة العربية أنها من أكثر اللغات قابلية لاستخدام الكمبيوتر في معالجتها آليا ؛ لأنها " تجمع بين كثير من الخصائص اللغوية المشتركة مع اللغات الأخرى ، فأبجديتها مثلا ليست فونيمية صرفة كالإسبانية والفنلندية ، حيث يناظر كل حرف فونيما (صوتا) واحدا ، كما أنها ليست مقطعية كاليابانية ، حيث رموز الأبجدية عبارة عن مقاطع يتكون كل منها من صامت (حرف) يتبعه صائت (حركة) مثل : " ما " ، " كي " ، " فو " ؛ فالأبجدية العربية رغم كونها فونيمية أساسا ، فإنها تتضمن حروفا ذات طبيعة مقطعية ، مثل : لا ، لأ ، لإ ، أ ، إ ، آ ، ؤ ، ئـ " . ويجمع نحو العربية بين الجملة الاسمية والجملة الفعلية ، كما تطابق العربية بين الفعل والفاعل في حين تخلو الإنجليزية من هذا التطابق (باستثناء حالة الفعل المضارع مع الفاعل المفرد الغائب He goes) ، وتعرف العربية الأسماء الموصولة (الذي ، التي...) فتصل المعرف ولا تصل النكرة ، في حين لا تستخدم الصينية ظاهرة الصلة إطلاقا " [1] فضلا عن الاطراد في قواعد وضوابط نحوها وصرفها ومعجمها وأصواتها ، وخاصيتها الاشتقاقية العالية التي لا تضاهيها فيها لغة أخرى كما سبق في الفصل الثاني من هذا الكتاب .

وتشتمل المعالجة الآلية للغة العربية على شقين أساسيين :

الشق الأول - يشمل نظام البرمجة المستخدمة في المعالجة الآلية أو بواسطة الكمبيوتر للفروع اللغوية المختلفة ، مثل :

١- نظام الصرف الآلي الذي يقوم بتحليل الكلمات إلى عناصرها الاشتقاقية والتصريفية ، أو يعيد تركيبها من هذه العناصر (مثال : تحليل كلمة " بإيجادها " إلى : حرف الجر " الباء " ، والضمير المتصل " ها " ، وساق الكلمة " إيجاد " ، الذي يحلل إلى الجذر " وجد " على صيغة " إفعال ") .

٢- نظام الإعراب الآلي الذي يقوم بإعراب الجمل آليا .

[1] - العرب وعصر المعلومات : د. نبيل علي ، مرجع سابق ، ص ٣٥٢ .

٣- نظام التحليل الدلالي الآلي الذي يستخلص معاني الكلمات استنادا إلى سياقها ، ويحدد معاني الجمل استنادا إلى ما يسبقها وما يلحقها من جمل . وذلك علاوة على قواعد البيانات المعجمية والقواميس الإلكترونية ومنهجيات هندسة اللغة .

والشق الثاني - يتضمن التطبيقات التي تقوم على النظم اللغوية الآلية السابقة ، والتي تشمل على سبيل المثال لا الحصر : الترجمة الآلية ، والتدقيق الهجائي والنحوي ، والفهرسة والاستخلاص الآلي ، وفهم الكلام ونطقه آليا .[١]

الكمبيوتر ورسم المصحف الشريف :

وحتى ندرك مدى الإفادة التي تعود بالفعل على اللغة العربية من جراء استخدام الكمبيوتر في معالجتها آليا ، نضرب المثال الآتي :

فمن أهم تطبيقات الكمبيوتر ، في التعامل مع منظومة الكتابة العربية ، نظم القراءة الآلية للنصوص العربية ، سواء المنسوخة ، أو المطبوعة ، أو حتى المكتوبة بخط اليد ، وإظهارها ، وطباعتها باستخدام طابعات الليزر التي أصبحت قادرة على توليد معظم أنماط الحروف العربية (الثلث – النسخ – الكوفي – الرقعة – الديواني ... إلخ) سواء بنظام الكتابة العربية المعتاد ، أو بالرسم العثماني المتبع في كتابة المصحف الشريف .[٢]

ومن المعروف أن بعض الحروف الهجائية ، في المصحف الشريف ، قد اختلف رسمها عن الصورة التي ألفها الناس في كتاباتهم واصطلحت عليها قواعد الإملاء ، ومن أمثلة هذا الاختلاف : إبدال الألف واوا ، في مثل (صلوة) صلاة ، و(زكوة) زكاة ، و(حيوة) حياة وحذف ألف يا النداء في مثل " يأيها الناس " والألف المتوسطة في مثل : إبرهيم : إبراهيم وصلح : صالح ، و (ميكئيل) : ميكائيل ... إلخ .

وقد ذهب فريق من العلماء في تفسير هذه الظاهرة إلى أن قواعد الكتابة القرآنية توقيفية وأن الرسم الهجائي المأثور قد أملي على كتاب الوحي ولا تجوز مخالفته ، وممن تشيعوا لهذا الرأي ابن البناء في كتابه " عنوان الدليل في رسوم خط التنزيل " ومن ثم راح يجهد نفسه في البحث عن أسباب اختلاف رسم بعض

[١] - الثقافة العربية وعصر المعلومات : د. نبيل علي ، مرجع سابق ، ص ٢٨٧ .
[٢] - العرب وعصر المعلومات : مرجع سابق ، ص ٣٧٠ .

حروف القرآن عن الحروف المألوفة من منطلق أنه " إنما اختلف حالها في الخط بحسب اختلاف أحوال معاني كلماتها وأن فيها فوائد بلاغية ولغوية ونحوية " .

وذهب فريق آخر إلى أن قواعد كتابة القرآن اصطلاحية ، أملاها محض اجتهاد من الكتاب فلا ارتباط لها بوحي إلهي ، وممن تشيعوا لهذا الرأي " ابن خلدون " في مقدمته ، يقول " كان الخط العربي لأول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة ولا إلى التوسط لمكان العرب من البداوة ، والتوحش وبعدهم عن الصنائع ، وانظر ما وقع لأجل ذلك في رسمهم المصحف ، حيث رسمه الصحابة بخطوطهم وكانت غير مستحكمة في الإجادة فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها ".[1]

غير أن هذا الخلاف حول توقيفية قواعد كتابة المصحف أو اصطلاحيتها لم يعد ثمة مجال لإثارته الآن ؛ لأن الواقع التاريخي قد رسخ صورة الحروف كما وردت في المصحف الشريف بالرسم العثماني الذي توارثه المسلمون جيلا بعد جيل ، ولم تنجح خلال أربعة عشر قرنا أية محاولة لكتابته طبقا لقواعد الهجاء المألوفة ، كما أفتى بعض علماء الأزهر الشريف بعدم جواز مخالفتها . ولكن عند الاستشهاد بأية أو جزء من أية في كتاب مطبوع آليا ، لم يكن من المتاح المحافظة على هذا الرسم ، لعدم ظهور التقنيات الملائمة في آليات الطباعة التقليدية التي تستوعب اختلافه عن صورة الرسم العادي .

وعندما بدأ استخدام جهاز الكمبيوتر في الكتابة ، وظهرت أجهزة المسح الضوئي ، أمكن تحويل الآية أو الجزء المستشهد به من المصحف وبالرسم العثماني الذي أجمعت الأمة على صحته وضرورة الاقتداء به ، إلى صورة ، ثم تثبيتها في موطن الاستشهاد ، بل إن بعض البرامج التقنية التي ظهرت حديثا تمكنت من تحويل رسم المصحف العثماني إلى " بنط طباعي " حقيقي ، من نوع (True Type Font (TTF بحيث يرتبط تصميم البرنامج بشكل وثيق وعملي وسهل مع برامج معالجة الكلمات في نظام التشغيل . وهكذا يتيسر الآن ، بفضل تطبيقات جهاز الكمبيوتر، الاستشهاد بنص قرآني في الكتاب المطبوع آليا ، لاسيما في الكتب المقررة في مناهج التعليم والكتب الدينية واللغوية ، مع المحافظة على الرسم العثماني للقرآن ، بل على التشكيل ، ومواضع الوقف .[2]

---

[1] - انظر تفصيل الخلاف وترجيح هذا الرأي في : لغة الإدارة : مرجع سابق ، من ص ١٨١ إلى ص ١٩٨

[2] - PC magazine (الطبعة العربية) ، السنة الخامسة ، العدد الحادي عشر ، ديسمبر سنة ١٩٩٩م ، ص ٤٦ .

قصور برامج اللغة الإنجليزية عن استيعاب طاقات اللغة العربية :

لا يزال مطورو البرامج والتقنيات المتعلقة باللغة العربية يواجهون بعض الصعوبات التي تتعلق بثرائها الواسع ، صرفا وصوتا ومعجما ، نظرا لقلة الأبحاث الأكاديمية والتقنية المرتبطة بها ، وتناثرها وغياب التنسيق فيما بينها سواء من الناحية النظرية أو العملية ، مع قلة الإمكانيات المتاحة ، والقصور عن ملاحقة التطورات التي تحققها العلوم الأخرى المتصلة بمعالجة اللغة آليا ، كالرياضيات الحديثة ، والمنطق ، والإحصاء .

وكان من أثر ذلك أن استعارت بعض التطبيقات العربية حلولا من النظريات الخاصة باللغات الأجنبية (وبخاصة اللغة الإنجليزية) ، ولكن ذلك – شأنه شأن الاعتماد على الأسلوب التقليدي في معالجة النحو والصرف العربيين – لم يسهم في استيعاب طاقات اللغة العربية كمبيوتريا ؛ لأنها في شتى قواعدها أشمل وأثرى من النموذج الإنجليزي (مثلا : تحتاج قواعد النحو الإنجليزي لصياغتها آليا إلى حوالي ١٠٠٠ قاعدة رياضية ، في حين وصل عدد القواعد الرياضية غير المشكولة للنحو العربي ، في بعض المحاولات التي أجريت لصياغته آليا ، إلى ١٢٠٠٠ قاعدة) [١] .

ومن الأمثلة التي تدل على قصور البرامج التي تعد بناء على النموذج الإنجليزي في استيعاب خصائص اللغة العربية وقدراتها الثرية التي تتميز بها على اللغة الإنجليزية كمبيوتريا ، تقنية التحليل الصرفي ، حيث يقف المحلل الصرفي الإنجليزي ، نظرا لخلو اللغة الإنجليزية من خاصية الاشتقاق ، عند حدود ساق الكلمة Stem ، فإذا أردنا ، مثلا ، أن نستخدمه في نطاق اللغة العربية ، فلن نجد أي ارتباط بين الجذر ومشتقاته ، فإذا بحثنا مثلا عن الفعل : " اعلم "، وجدناه تبعا للنموذج الإنجليزي في حرف الألف بينما نجد " تعلم " في حرف التاء و" علم " في حرف العين ، و" يعلم " في حرف الياء ، وهكذا . وهذا يجرد اللغة العربية من خاصية استدعاء الجذر لمشتقاته التي شيدت على أساسها ثروتها اللفظية في المعاجم وكتب التراث المتداولة .

ومن ثم تنبهت بعض الجهات والشركات التي تهتم ، لأسباب تجارية في المقام الأول ، بتقنيات اللغة بصفة عامة ، إلى ضرورة بناء نموذج لغوي خاص باللغة العربية ، تتم فيه إعادة صياغة قواعد النحو والصرف العربيين بطريقة تجمع بينهما ، وتناسب في الوقت نفسه أساليب المعالجة الآلية ، وأخذ الاهتمام بتقنيات اللغة العربية يتجاوز مرحلة التعريب المباشر والمعالجة السطحية، وظهرت بعض البرامج والتطبيقات التي تستخدم أحدث ما توصل إليه علم

[١]- العرب وعصر المعلومات : مرجع سابق ، ص ٣٥٥ .

الاحتمالات وتقنيات الذكاء الاصطناعي ، في معالجة اللغة العربية ذاتها ، دون الحاجة إلى إخضاعها لقيود ومواصفات النموذج الإنجليزي .

وقد تعاملت هذه البرامج والتطبيقات الآلية - على الرغم من بقاء الكثير منها ردحا طويلا من الزمن دون مستوى برامج وتطبيقات اللغات الأخرى في المعالجة التطبيقية - مع اللغة العربية على مستويات مختلفة شملت مكوناتها الأساسية بدءا من الحرف ، ومرورا بالكلمة ، وانتهاء بالتركيب ، ولعل من المفيد أن نتوقف أمام هذه البرامج والتقنيات قليلا لنتبين إلى أي مدى أمكن لها أن تتعامل مع المنظومة العربية وما قدمته وما يمكن أن تقدمه للدرس اللغوي العربي على مستوياته المختلفة .

أولا - على مستوي الحرف :

الكتابة ثلاثة أنواع : الكتابة اليدوية الشخصية (فلكل منا كتابته الخاصة التي تخضع لحركات اليد في خط الحروف وتستخدم في شتى التعاملات اليومية) ، والكتابة اليدوية الفنية (وهي كتابة الخطاطين المتخصصين في إجادة الخط ، وتعتمد على إبراز جماليات الخط العربي وزخرفته) ، والكتابة الطباعية أو الآلية (وهي كتابة تنتجها الآلات - ومنها الكمبيوتر – وغايتها نقل المعارف وتبليغ المعلومات للعامة والخاصة ، بأقل ما يمكن من علامات ، ويجب أن تكون شاملة للحروف والحركات بالإضافة طبعا إلى الأرقام العشرة وعلامات الوقف) .[١]

وقد بدأ اللقاء بين اللغة العربية والكمبيوتر من الناحية العملية في عام ١٩٦٢ عن طريق (معهد التخطيط القومي في مصر) وهو أول مؤسسة عربية تقتني جهاز الحاسب الآلي ، واقتصر الأمر في البداية – فيما يخص التعريب – على إحلال الحروف العربية محل الحروف الإنجليزية في الطباعة .

وبعد مرور عقد من الزمان ، حدثت أول نقلة نوعية في معالجة اللغة العربية آليا ، وذلك عندما تمكن الدكتور سيد حيدر – وهو من أصل باكستاني – من تصميم نظام آلي لاختيار شكل الحرف العربي تلقائيا حسب الحرف السابق عليه والحرف اللاحق له ، (فحرف العين مثلا له أربعة أشكال : ع ، عـ ، ـعـ ، ـع تحدد حسب موقعه من الكلمة) وبذلك اختصرت لوحة المفاتيح العربية لتشمل الحروف الأصلية فقط بحيث تختار الآلة الشكل المناسب للحرف وفقا للسياق الذي

[١] - الكتابة العربية والحاسوب : أحمد الأخضر غزال ، ضمن " تطبيقات الحاسوب التربوية " ، من منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، الرباط ، ١٩٨٧م ، ص ٨٨ .

يرد بـه داخل الكلمـة ، ممـا مكن من استفـــادة اللغـة العربيـــة عمليـا من تطبيقـات الكمبيوتـــر المختلفة [1] .

ولكن بداية الالتقاء بين الكمبيوتر ونظـام الكتابـة العربيـة لم تخل من بعض الصعوبات التي نتجت عن تفرد نظـام الكتابـة العربيـة ببعض الخصـائص التـي لا تتوافر في اللغات اللاتينية ، منها على سبيل المثال :

١ - اتجاه الكتابة العربية من اليمين إلى اليسار ، بينما صمم الكمبيوتر للتعامل مـع الحرف اللاتيني من اليسار إلى اليمين .
٢ - تشكيل الحروف العربية بالحركات (الفتحة – الكسرة – الضمة – السكون – الشـدة ...) ، وربمـا احتـاج الحـرف المُشكَّل إلـى ثلاثـة أضـعاف مسـاحة تخـزين الحرف اللاتيني ، وقد بدأت جهود تعريب الحاسبات في مراحلها الأولـى " بحل مشـــاكل الحــــرف العربـــي بـــدون تشكيـــــل ســـواء مـــن حيـــث وحــــدات الإدخــــالKey Boards أو وحدات الإخراج Monitors – Printers ، ثم أمكن لاحقا التعامل مع الحرف العربي المشكل ، كما أمكن إظهـار جمـال الخطـوط العربية المتنوعة " [2] .
٣ - تعدد أشكال الحرف الواحد ، تبعا لاختلاف موقعه في الكلمـة ، كـالهمزة التـي تأخذ في الكتابة أشكالا خمسـة هي (أ – إ – ؤ – ئـ - آ) .

الدعوة إلى استخدام الحروف المنفصلة في الكتابة :

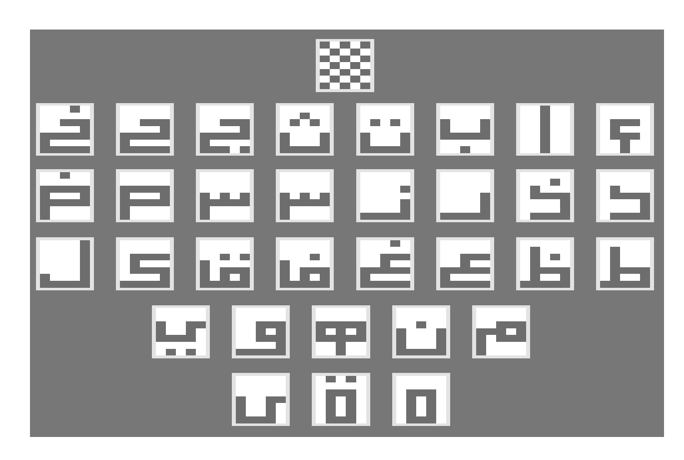
وقد أدت هذه الصعوبات بالبعض في مبدأ الأمر إلـى التفكير فـي بنـاء نمـوذج للوحة مفاتيح عربيـة تحـاكي نمـاذج لوحـات مفـاتيح اللغـات الأخـرى وذلـك بالـدعوة إلى الاقتصار على استخدام الحروف المنفصلة وحدها ، وطرح الحـروف المتصـلة في نظام الكتابة العربية مثلما فعلت اللغات اللاتينية في نمـاذج لوحاتهـا ، ومـا انفك يتبنى هذه الدعوة وينتصر لها حديثا بعض رجال التقنية العربية ، ومنهم الجزائري عبد المالك بوحجرة الذي راح يقسم العالم ، في ضوء استخدام أنماط الخطوط التي تتلاءم مع الآلات الحديثة ولاسيما الكمبيوتر ، إلى قسمين : شعوب متقدمـة ، وهـي التي تستخدم الحروف المنفصلة ، وشعوب متخلفة ، وهي التي تصر على استخدام الخط المتصل في كتابة حروفها .

وتقسيم شعوب العالم على هذا النحو يعيد إلى الأذهان تقسيما آخر سبقه إليه عبد العزيز فهمي في اقتراحه الذي قدمـه إلـى مجمـع اللغـة العربيـة عـام ١٩٤٤ أي قبـل اختـراع جهـاز الكمبيـوتر ، ودعـا فيـه إلـى طـرح الحـروف العربيـة وإحـلال

[1] - اللغة العربية والحاسوب : د. نبيل علي ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨ ، ص ١٧٩ .
[2] - تطويع تقنية المعلومات لخدمة العلوم الشرعية : محمود عوض المراكبي ، السجل العلمي لنوة استخدام اللغة العربية في تقنية المعلومات ، مرجع سابق ، ص ١٣٠ .

الحروف اللاتينية محلها ، حيث قسم أمم العالم إلى قسمين أيضا : أمم راقية علميا وصناعيا ، وهي التي تستعمل حروف الحركة في كتابتها ، كأوروبا وأمريكا ، وأمم متأخرة علميا وصناعيا ، وهي التي لا حروف حركات عندها ، كالعرب .[١]

ويأخذ بوحجرة على العرب ، أنهم من أرباب الخط المتصل ، لأنه " في عصر المعلوماتية لا بد أن يدرك العرب أنه لا يمكن الدخول في مجال الحضارة العالمية ، وصنع التكنولوجيا ، إلا باستعمال الخط المنفصل . إننا نعيش الآن في عالمين متداخلين : عالم الإنسان ذي الطبيعة المتصلة ، ويمتاز بالهواية ، وعالم الآلة الذي يتعامل بالإشارات منفصلة ، ويمتاز بالسرعة ، والدقة والكفاءة ، أي الاحتراف " [٢]



نموذج الحروف العربية المنفصلة الذي يدعو إليه الدكتور بو حجرة

لكن هذه الدعوة ، شأنها شأن كل دعوة فردية ، تجرد الخط العربي من أبرز سماته ، بدعوى ملاءمته لمتطلبات الآلات الحديثة ، والتشبه بأنظمة الكتابة في اللغات الأخرى ، دون مراعاة لاختلاف هذه النظم عن نظام الكتابة العربية في الخصائص والسمات من ناحية ؛ وهي دعوة تجافي العقل والمنطق من ناحية أخرى . لأنه من غير المستساغ أن يتعرض النظام الكتابي للعبث تحت مسمى

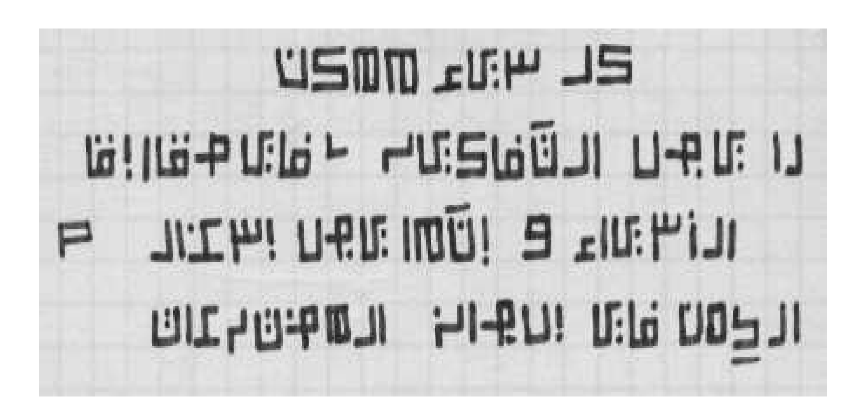
---

[١] - الحروف اللاتينية لكتابة العربية : عبد العزيز باشا فهمي ، دار العرب للبستاني ، القاهرة ، ص ١٤٧ . وقد اعتبر رسم الكتابة العربية (بحروفها الحالية) هو" الكارثة الحائقة بنا في لغتنا "، لأنه " رسم لا يتيسر معه قراءتها قراءة مسترسلة مضبوطة حتى لخير المتعلمين ، وذلك لخلوه من حروف الحركات التي تتوفر في نظام الكتابة اللاتينية " ، وقدم من ثم اقتراحه باتخاذ الحروف اللاتينية لرسم الكتابة العربية وطرح الحروف العربية ، لكن المجمع قد التفت عن هذا الاقتراح ، ولم يجد صوتا يناصره أو يؤيده اللهم إلا صوت صاحبه ، وقد عارض هذا الاقتراح كل من نمى إلى علمه ، واعتبره الأستاذ العقاد خطرا يهدد صلتنا الوثيقة بتراثنا وبأمتنا العربية .

[٢]- الأبجدية الموحدة : د. عبد المالك بوحجرة ، مجلة جامعة قسنطينة ، للعلوم الإنسانية ، الجزائر ، العدد التاسع ، ١٩٩٨م ، ص ٨١ .

التغيير والتطوير بعد أن ظل يعبر عن طاقات اللغة الإبداعية منذ ستة عشر قرنا أو يزيد ، بغرض تطويعه لنظام آلة ظهرت اليوم ، وربما ظهرت غدا آلة أخرى يستدعي استخدامها الدعوة إلى نظام جديد أو العودة إلى النظام القديم ! وهكذا يرتهن مصير نظام الكتابة للغة عريقة باستعمال آلــة أو إهمال أخرى ، والأحرى أن يتغير نظام هذه الآلة وبنيتها لتوائم متطلبات نظام الكتابة العربية وتنسجم مع خصائصها ، وهو ما كانت اللغة العربية تنتظره من الدكتور بو حجرة وغيره من رجالات التقنية الحديثة .

ولا شك أن اتصال حروف الخط العربي يعكس جانبا من جوانب تأثير اللغة العربية في نفوس المتحدثين بها كواحدة من أمتن الروابط التي تصل بينهم منذ فجر التاريخ ، رغم المحاولات التي لا تهدأ لتقطيع أوصال رابطة العروبة ، والعرب اليوم أولى من أي عهد مضى بالتمسك برابطة اللغة والتصدي لمحاولات النيل من خصوصية نظامها الكتابي تحت ستار من استخدامها وتطويعها لوسائل العلم الحديثة ، وليس يفيد العربية في صد هذه الدعاوى مثل الرد عليها بمحاولات أكثر جدية من أجل تطويع وسائل العلم الحديثة نفسها لخدمة اللغة العربية واستيعاب طاقاتها وثراء منظومتها . وليس أدل على نشوز شكل الحروف العربية في حال كتابتها منفصلة ، على النحو الذي دعا إليه بو حجرة ، من هذا النموذج الذي ساقه :



نموذج لكتابة اللغة العربية بالحروف المنفصلة ، ويقرأ:
كل شيء ممكن
لا يجب التفكير في حقائق الأشياء وإنما يجب إشغال العقل في إنجاز المخترعات !

غير أن هذه الدعوة على الرغم من مجافاتها لطبيعة وخصائص الحروف العربية التي تستعيض بتشبيك الحروف عن تغلغل حروف الحركات في بنيتها التركيبية تبدو أخف ضررا بنظام الكتابة العربية إذا ما قورنت بالدعوة إلى طرحها

كليـــة : منفصـلة ومتصـلة ، واستبدال الحـروف اللاتينيـة بهـا ، والتـي نـادى بهـا ، وتحمس لها قبلـه عبد العزيـز فهمـي .وكلتـا الـدعوتين قوبلتـا بـالرفض ، لأنهمـــا لـم تراعيـا تميز اللغة العربية ، نطقا وكتابة ، بمجموعة من الخصـائص والسمات التي تجعلها أما للغات العالم جميعها على نحو ما سبق ، وليس مـن الإنصـاف أو الفطنـة أن تشوه ملامح الأصـل أو أن تجـرى فيهـا عمليـات تجميل للتشبه بملامـح غريبـة عنها ولا تليق بها .

تنسيق الحروف على لوحة المفاتيح العربية :

كان مـن الطبيعـي إذن أن يـتم التغلـب علـى الصـعوبات التـي واجهـت الحـرف العربـي فـي أو عهـده بالتقنيـة الحديثـة وأن تراعـى فـي وحـدات الإدخـال (لوحـات المفاتيح) التي تستخدم حاليا لإدخال النصوص العربية كتابة إلـى ذاكـرة الكمبيـوتر خصـائص وسمات الخط العربي ، من حيث اتصال حروفـه ، طبقـا للشـفرة العربيـة الموحدة التي استقرت عليها البلدان العربية بصورة نهائية منذ عام ١٩٨٢م .

ومن الملاحظ أن لوحة المفاتيح العربية المتفق عليها قد اعتمدت علـى بعض الأسس اللغوية ، منها : التوحيد الخطـي (حيث ترسم الحروف بخط النسخ وحده) والمحافظة على الكتابـــة العربيـــة المأثورة (برسم الحـروف متصلة لا منفصـلة) والمحافظة على هيئة الحرف المعتادة ، فضلا عن عدم إهمـال علامـات الحركـات الضـرورية لضـمان النطـق الصـحيح للعرب وغيـر العـرب .[1] وقد استوعبت هذه اللوحة الحروف الهجائية التسعة والعشرين جميعها ، بالإضـافة إلـى أشكال الهمـزة وعلامـات الإعـراب ، وبعـض الصـور المختلفـة للحـروف ، كالتـاء المربوطـة ، والهاء المتطرفة ، والألـف اللينـة ، وقد وضـعت الألفبـاء العربيـة بطريقـة مزدوجـة مع الألفباء اللاتينية التي لا تحتوي في حدها الأدنى إلا على ست وعشرين علامـــة تكتب بها اللغـــة الإنجليزيـــة كاملة .



(نموذج ترتيب الحروف والعلامات العربية على لوحات إدخال النصوص كتابة إلى الكمبيوتر)

[1] - الكتابة العربية والحاسوب : أحمد الأخضر غزال ، مرجع سابق ، ص ٨١ .

ولكن ترتيب الحروف العربية على النحو الذي يبدو عليه في لوحة المفاتيح المستخدمة حاليا ما زال يمثل عائقا كبيرا أمام كثير من المستخدمين لا سيما الناشئة والمبتدئون ؛ لأن هذا الترتيب يبدو عشوائيا ، حيث لم يأت على النسق المألوف لترتيب الحروف العربية (أ ب ت ث ج ح خ د ذ ...) [1]، وهو الترتيب الذي يوافق سليقة اللغة العربية التي كانت – فيما يرى العقاد - الهداية النافعة لعلمائها فيما اختاروه من ترتيب ؛ " لأن هناك تناسبا موسيقيا فنيا بين الحروف المتقاربة لا مثيل له في الأبجديات الأعجمية التي تلحق فيها السين بالباء أو التي يمكن ترتيبها على غير هذا الوضع دون تغيير في دلالات الألفاظ أو دلالات الأشكال . أما اللغة العربية ، فخذ منها - مثلا - حروف الباء والتاء والثاء فإن الباء قريبة من مخرج التاء وإن التاء والثاء لتتقاربان حتى ليقع بينهما الإبدال في كثير من الكلمات . وخذ مثلا حرفي الحاء والخاء، أو حرفي الدال والذال ، أو حرفي السين والشين ، أو حرفي الصاد والضاد ، أو حرفي الطاء والظاء ، أو حرفي العين والغين ، أو حرفي القاف والكاف ، أو حروف اللام والميم والنون ؛ فإن التقارب بينها في النسق يشبه التقارب بينها في اللفظ كما يشبه التقارب بينها في الشكل كلما امتنع اللبس عند تكرار الأشكال " [2] .

فضلا عن أن الحروف المتشابهة ، منها ما ضم في هذه اللوحة بعضه بجوار البعض ، مثل : (ج – ح – خ) ، (ع – غ) ، (ف – ق) ... إلخ ، ومنها ما لا يزال متباعدا ، مثل : (ب ت ث) ، (د – ذ) ... إلخ ، كما يلاحظ عليها خلوها من علامة تدل على الألف المحذوفة ، لا سيما في الرسم القرآني ، كما في : الرحمن ، ملك ، الصرط ... إلخ .

ولا تزال اللغة العربية تفتقر إلى لوحة مفاتيح تصمم للتعامل مع الحروف بتقنية عربية خالصة ، وتستوعب اللمسات الفنية البديعة للحرف العربي .

ومن المعروف أن الخط العربي قد تنافس العرب في إجادته وحذقه حتى بلغ مع مر السنين ذروته من الجودة والحسن ، وغدا فنا يتفرد به الإبداع العربي في التراث الإنساني ، ووجد فيه الفنان المسلم متنفسا لإظهار موهبته داخل المساجد

[1] - كان ترتيب الأبجدية العربية ، منذ عرف العرب الخط عن طريق الأنباط، يسير على نظام (أ ب ج د هـ و ز ح ط ي ك ل م ن س ع ف ص ق ر ش ت ث خ ذ ض ظ غ) ولكن نصر بن عاصم ، وهو أحد قراء القرآن الكريم في البصرة ، لم يعجبه هذا الترتيب لوجود عدد من الحروف المتشابهة في رسمها دون تمييز بينها ، فكانت كلمة مثل (بيت) يمكن أن تنطق أيضا بصور مختلفة ، منها (بنت) و(تبت) و (ثبت) ... إلخ ، فاهتدى إلى وضع النقط فوق أو تحت كل حرف ليميزه عن الحرف المشابه له ، وهو ما يسمى بالإعجام ، ثم ضم هذه الأحرف المتشابهة بعد إعجامها بجوار بعضها ؛ فأصبح ترتيب الأبجدية العربية " أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن هـ و ي " .

[2] - - اللغة الشاعرة : عباس محمود العقاد ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، سنة ١٩٩٥م ، ص ١٠ .

وفوق جدران المآذن ، تبركا وتقربا إلى الله وتجميلا وتزيينا لبيوت الله ... وقد أنجز الفنان العربي أعظم لوحات تجريدية باستخدامه وحدات الحرف العربي في التشكيل ، وقد ساعده على ذلك قابلية الحرف العربي للمد والمط والاستدارة والبسط والصعود والهبوط واللين والجفاف [1] .

هذا الخط العربي من حيث هو فن له أصوله وقواعده قد تأثر بجهاز الكمبيوتر تأثرا سلبيا ليس فقط من حيث إهمال الناس له بعد أن استعاضوا بالكمبيوتر عن القلم ، فطغى على كتابة المحررات مطبوعة وغير مطبوعة ، وإنما أيضا بتشويه جمالياته التي عرفت بها أنواعه وأنماطه ، وإضافة أسماء كثيرة لمستنسخات من أنواع الخطوط المعروفة فيما يسمى " Fonts " ليس للخط العربي قبل بها ولتدارك هذا التخبط وقبل أن يستفحل أثره لا بد أن تتبنى الجهات المعنية التنسيق بين البقية الباقية من الخطاطين و التقنيين العرب للمحافظة على بهاء صورة الخط العربي وجماليات أنساقه وأصالة أنواعه .

طرق أخرى لإدخال النصوص العربية إلى الكمبيوتر :

ليست " لوحة المفاتيح " هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن بواسطتها إدخال الحروف ومن ثم النصوص العربية إلى ذاكرة الكمبيوتر ، والتعامل معها بالحذف أو الإضافة أو التعديل ، فثمة وسائل أخرى تستخدم في ذلك ، منها :

١- برامج التعرف الضوئي على الحروف العربية التي بدأ استخدامها بالفعل في أواسط التسعينيات متأخرة عن نظيرتها الإنجليزية عقدا من الزمان ، وتعتمد بشكل أساسي على تقنيات تقطيع الكلمات ومقارنة الأشكال ، وتهدف إلى تحويل النصوص المخزنة في شكل صور عن طريق الماسح الضوئي " Optical Scanner " [2] إلى نصوص قابلة للمعالجة ، فيمكن الإضافة إليها أو الحذف منها ، كما يمكن عن طريقها التعرف على النصوص المكتوبة يدويا .

وهذه التقنية تسهم بدور فعال في معالجة اللغة العربية من خلال بث وتوثيق الكتب اللغوية ، وكتب التراث والثقافة الإسلامية باللغة العربية وتداولها ، سواء

---

[1] - موسيقى الخط العربي : محمد بغدادي ، مجلة فصول القاهرية ، المجلد الخامس عشر ، ربيع سنة ١٩٩٦م ، العدد الأول ، ص ١٣٦ .

[2] - هو جهاز يعمل بناء على الظاهرة الكهروضوئية ، حيث يتم امتصاص الضوء النافذ في الأماكن المعتمة من الصورة وتحويل الضوء النافذ من الأماكن غير المعتمة نسبيا إلى إشارات كهربائية ، وبذلك يمكن تحويل النص المكتوب إلى صورة رقمية يستقبلها الحاسب المتصل بالجهاز ، وتحفظ بذاكرته الرئيسة ، وتمثل الشكل العام للنص المكتوب والمطلوب هو التعرف على الحروف المكونة له وبالتالي الكلمات الموجودة بالنص وتحويله للشكل المعتاد عند إدخاله يدويا بلوحة المفاتيح (انظر : القراءة الآلية للنص العربي ، حازم عبد العظيم و أحمد عبد المجيد ، ضمن السجل العلمي لندوة استخدام اللغة العربية في تقنية المعلومات ، مرجع سابق ، ص ١٨٩) .

بواسطة الأقراص المرنة أو المدمجة سهلة الاستخدام والانتشار (ومن المعروف أن قرصا مرنا واحدا تبلغ زنته ١٥ جراما ، ولا يتجاوز قطره ١٢ سم ، يمكن أن تستوعب سعته التخزينية ألف كتاب بحجم المصحف الشريف) أو بواسطة شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) وهي أحدث وسائل الإعلام التي يتزايد الإقبال عليها يوما بعد يوم .

٢- برامج إملاء النصوص العربية صوتيا على الكمبيوتر، بحيث يصبح الكمبيوتر في هذه الحالة بديلا لوسائل الكتابة التقليدية التي تستخدم فيها أصابع اليد ، ويمكن أن تفيد هذه التقنية في تعليم اللغة للنشء أو المستخدمين الأجانب ، لا سيما بعد أن ساعد انتشار الكمبيوتر واستخدامه في العملية التعليمية على نطاق يتسع يوما بعد يوم على تحديث الطرق التقليدية في تلقي اللغة ، فيمكن إسناد دور أساسي فيها للكمبيوتر ارتكازا على النشاط الإيجابي والتفاعلي للمتعلم نفسه فيما يسمى بالتعليم الذاتي .

كما تفيد هذه التقنية أيضا في الإسراع في إنجاز النصوص العربية وتحريرها ، لكنها في الوقت ذاته ، (وعلى فرض نضجها وتخطي صعوباتها في الاستخدام العربي كتعرفها على الكلام الطبيعي المستمر دون توقف بين المتلازمات ، كأل التعريف والاسم المعرف بعدها ، وسعة قاموسها ، وعدم تأثرها بالحالة النفسية والمزاجية للمستخدم أو بالضوضاء التي قد تحيط به) ، لكنها تفقد المملي القدرة على التركيز التي كانت تستوي لديه نتيجة اشتراك عدد أكبر من جوارحه وحواسه في عملية الإبداع أو التأليف .

وكانت هذه التقنية – وما زالت - مثار جدل في الاستخدام العملي من حيث مدى توثيق المعلومات التي تنتج بواسطتها ، لا سيما في بعض المجالات التي تتطلب سرية وتحوطا ، كأحكام القضاء .

وقد صدرت بخصوص هذه التقنية فتوى شهيرة عن مجلس الدولة المصري تجسد الخلاف الدائر حول جواز استخدامها في كتابة مسودة الحكم – التي جري العرف القضائي - منذ إنشاء المحاكم الأهلية قبل ما يزيد على قرن من الزمان - على كتابتها بخط اليد (وبالقلم الرصاص) !

وقد جاء طلب هذه الفتوى رغبة في مسايرة روح العصر والاستفادة من منجزاته الحديثة لا سيما في مضمار اللغة ، باستخدام جهاز كمبيوتر لديه إمكانية الكتابة بمجرد التحدث إليه بديلا عن القلم الرصاص في كتابة مسودة الحكم ؛ ولكن الجمعية العمومية لقسمي الفتوى والتشريع قد انتهت في جلستها المعقودة في ١٠ / ٣ /١٩٩٩م إلى عدم جواز ذلك .

و تأتي أهمية هذه الفتوى من كونها تدور حول استخدام إحدى التقنيات التي انبثقت عن المعالجة الآلية للغة العربية بصورة عملية ، بواسطة برامج إملاء النصوص العربية صوتيا على الكمبيوتر ، وهي لا تزال في مراحلها الأولى ، وفي مضمار القضاء - تشغل بال كثير من القضاة وغيرهم من الذين يعتمدون على الكمبيوتر في أعمالهم ، وقد تعددت الآراء بشأن جدوى استخدامها في توثيق أعمال الجهات الأخرى (يري مركز المعلومات القضائي بوزارة العدل ، ومركز دعم اتخاذ القرار بمجلس الوزراء ، جواز استخدام الكمبيوتر في كتابة الوثائق بما فيها مسودات أحكام القضاء) . ويبدو أن الموضوع سيظل قيد التناول إلى أن يحسمه الاستخدام العملي !

ثانيا – على مستوى الكلمة :

بعد النقلة النوعية في معالجة اللغة العربية على مستوى الحرف ، التي شهد بدايتها عام ١٩٧٣ على نحو ما سبق ، جاءت النقلة النوعية الثانية بعد ذلك باثني عشر عاما أي في سنة ١٩٨٥، ولكن على مستوى الكلمة ؛ حيث أمكن تطوير أول معالج صرفي قادر على التعامل مع الأطوار المختلفة لمنظومة الكتابة العربية (المشكولة كليا أو جزئيا ، وغير المشكولة) . وبدأت بذلك مرحلة جادة لمعالجة اللغة العربية باستخدام الحاسب الآلي .[١]

ويعتبر المحلل الصرفي العربي من أبرز التقنيات التي تتجلى فيها خصائص اللغة العربية في مجال المعالجة الآلية ، حيث يتاح عن طريقه توليد جميع الكلمات التي يمكن اشتقاقها من جذر معين ، ورد أية كلمة مشتقة إلى جذرها أو أصلها المأخوذة منه ، وهو الأسلوب الذي تفردت به معاجمنا العربية .

كما يستطيع الكمبيوتر أن يولد جميع الأسماء المشتقة قياسيا وسماعيا من الفعل المجرد أو المزيد ، وهي تشمل : اسم الفاعل ، وصيغ المبالغة ، واسم المفعول ، واسمي الزمان والمكان ، واسم الآلة ، واسم التفضيل ، والصفة المشبهة والمصادر بأنواعها (المصدر الصريح ، والمصدر الميمي ، ومصدر المرة ، ومصدر الهيئة) ، كما يقوم الحاسوب بتصنيف الأسماء من حيث التذكير والتأنيث والإفراد والتثنية والجمع والنسبة والتصغير .

أما بالنسبة للأفعال ، فيعطي الكمبيوتر جميع مزيدات الفعل الثلاثي بحرف (أفعل – فعَّل – فاعل) ، وبحرفين (انفعل – افتعل – افعلَّ – تفاعل – تفعَّل) ، وبثلاثة أحرف (استفعل – افعوعل – افعوّل – افعالَّ) وعددها ١٢ مزيدا ، وكذلك مزيدات الفعل الرباعي بحرف (تفعلل) ، وبحرفين (افعنلل – افعللّ)

[١] - اللغة العربية والحاسوب : د. نبيل علي ، مرجع سابق ، ص ١٨١ .

وعددها ٣ مزيدات ، كما يبين الحاسوب الفعل من حيث الصحة والاعتلال ، والهمز والتضعيف ، إضافة إلى تحديد بابــه التصريفي ، مثل : (أزَّ : فعل صحيـــح مهموز الفاء مضعف ، ويتصرف من بابي : ضرَب- يضرِب ، ونصَر – ينصُر) ... إلخ [١]

كما يمكن للكمبيوتر أن يرد الكلمة سواء أكانت مشكولة أم غير مشكولة إلى جذرها الأصلي ، مع تحديد حروف الزيادة فيها ، وحالتها الإعرابية ، وميزانها الصرفي ، ولكن معالجة الكلمة خالية من التشكيل ومستقلة عن سياق الجملة تجعل لها إمكانيـــات عديدة ، فكلمــة (ورد) مثلا يمكن أن تكـــون (وَرَدَ ، و وَرَّدَ ، و وُرِدَ ... أفعــال) ، و(وَرْد ، و وِرْد ... أسمــــاء) ، و (و+ رَدَّ ، و و+ رُدَّ حروف عطف + أفعال) ... إلخ . كما يحدد الكمبيوتـر كلا من سابقة الفعل ولاحقته ، وصيغته ، وبنائه للمعلوم أو المجهول ، وتجرده أو زيادتـه ، ووزنه ، وأصله المشتق منه ، وحالته الإعرابيـة ، والضمير المسند إليه ، مثل (استمع : فعل ماض ، معلوم ، مزيد ، على وزن افتعل ، من الفعل سمع ، مبني على الفتح مسند إلى الغائب المفرد) [٢] .

كما تبرز أهمية المحلل الصرفي عند التعامل مع النصوص العربيـة الكبيرة مثل : القرآن الكريم ، وموسوعات الحديث الشريف على جهاز الكمبيوتر ، فيكفي على سبيل المثال ، أن نستخدم للبحث في القرآن الكريم جذرا مثل (سلم) ، فيستدعي البرنامج جميع الآيات القرآنية التي وردت بها مشتقـــات هذا الجذر ، مثل (أسلم – سلام – سالمون – سليم – مسلمون - الإسلام ... إلخ) .

ويعطي المحلل الصرفي الباحث أيضا القدرة على البحث الدلالي ، فمثلا إذا أراد الباحث الوصول إلى الآيات القرآنيـــة التي تتناول لفظ (رِبا) ، وهو يقصد ربا بكسر الراء ، أي : ربا الأموال ، فهو إذا أدخل إلى برنامج التحليل الصرفي ربا مع تشكيل الحرف الأول ، عرض له البرنـامج الآيـات الدالــة على ربا الأموال ، وأما البحث عن (رَبّا) بمعنى الرب بفتح الراء تظهر له الآيـــات التي تحتوي عليهـــا ، فإذا أدخل كلمة (ربا) دون تشكيل ، فإن البرنامج يعرض الجذور المحتملــة لكلمــة ربا ، ويطلب من المستخدم أن يحدد له الذي يريـــد : (ربب أو ربو) ، ويعتبر المحلل الصرفي أيضا إحدى الدعائم الأساسية التي يقوم عليها مشروع خدمة السنة النبوية ، فحاجتنا للبحث عن الحديث الذي يضم عددا من الألفاظ على مستوى الجــذر تتضاعف مع كثرة البحث وتعدد أهدافه [٣] .

---

[١] - اللسانيات وبرمجة اللغة العربية في الحاسوب : د. محمد علي الزركان ، السجل العلمي لنوة استخدام اللغة العربية في تقنية المعلومات ، مرجع سابق ، ص ٥٨ .
[٢] - السابق : ص ٥٩ .
[٣] - تطويع تقنية المعلومات لخدمة العلوم الشرعية : محمود عوض المراكبي ، مرجع سابق ، ص ١٣١ .

ثالثا – على مستوى الجملة :

يقصد بالجملــة في نطاق اللغــة العربية " كل كلام اشتمل علـى مسند ومسند إليه " ، ومعنى ذلك أنها تقوم على وجود علاقة بين كل كلمة من كلماتها وجاراتها في السياق ، وفي ضوء هذه العلاقة تتحدد وظيفة الكلمة في الجملة ودورها في حمل المعنى المقصود .

وعلى الرغم من وجود بعض الظواهر النحوية التي تجافي سمة الاطراد في اللغة العربية ، كالاستتار ، والتقدير ، وتعدد أوجه الإعراب والتقديم والتأخير ، فإن " معالج النحو الآلي " قد تمكن من تحليل الكلمة نحويا سواء كانت فعلا أو حرفا أو اسما بمعزل عن السياق أو في داخل السياق .

فإذا كانت الكلمة فعلا حدد المعالج النحوي صيغته في الماضي والمضارع بأنواعه (مرفوعا ومنصوبا ومجزوما) والأمر ، وكونه مؤكدا (بالنون الثقيلة أو الخفيفة) أو غير مؤكد ، ومعلوما أو مجهولا ، ومبنيا أو معربا ، وعلامة كل منهما ، ظاهرة أو مقدرة ، حرفا كانت أو حركة . كما يبين معالج النحو ضمائر الرفع التي أسند إليها الفعل ، ظاهرة كانت أو مستترة ، وضمائر النصب المتصلة به واحدا كان أو أكثر ... إلخ . وإن كانت اسما يعين الحاسوب حروف الأصل في الأسماء المجردة التي عرض لبعض صيغها حذف أو تغيير ، وحالة الاسم من حيث الإعراب والبناء ، وعلامة كل منها ... إلخ ، وإن كانت حرفا يقوم الحاسوب بتحديد سابقتها ولاحقتها ووظيفتها الإعرابية وعلامات بنائها . [1]

ويعد برنامج " المشكِّل الآلي " الذي ظهر حديثا وأمكن بواسطته تشكيل النص العربي آليا (بحيث يتم إدخال النص ويتولى الكمبيوتر تشكيله باستخدام هذا البرنامج) من أهم التطبيقات التي ساهمت في تطويع الكمبيوتر لخدمة اللغة العربية ، وسوف يكون له أكبر الأثر في استخدامها ومعالجتها آليا . ويأتي هذا البرنامج في قمة هرم التدقيق الذي يقوم به جهاز الكمبيوتر منذ بدء إدخال النص العربي إلى ذاكرته ، أما قاعدة هذا الهرم فيرسخ فيها المدققان : الإملائي ، والنحوي .

ومن المعروف أن الكتابة العربية قد ظلت منذ نشأتها تكتب دون تشكيل ، حتى جاء العالم اللغوي الفذ أبو الأسود الدؤلي ، فرأى أن ثمة تطورا لا بد منه لصحة نطق الحروف الأبجدية في بنية كل كلمة ، فاهتدى إلى وضع نقطة فوق كل حرف تمثل الفتحة ، ونقطة تحته تمثل الكسرة ، ونقطة بين يديه تمثل الضمة ، ونقطتين تمثلان التنوين ، وكانت هذه النقط تكتب بمداد يخالف لون المداد

[1] - اللسانيات وبرمجة اللغة العربية في الحاسوب : د. محمد علي الزركان ، مرجع سابق ، ص ٦٠ .

الذي تكتب به الحروف ، فوضع بذلك أول تصور كتابي لحركات الإعراب والشكل .

ثم غذى الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ) هذا التصور ، بعد أن أدرك بخبرته في مجال الأصوات ، ما بين هذه الحركات الإعرابية وحروف المد الثلاثة في اللغة العربية ، وهي الواو والألف والياء ، من صلة ، فالضمة ما هي إلا واو قصيـرة ، والواو ضمة طويلة ، والفتحة ألف قصيرة ، والألف فتحة طويلة ، والكسرة ياء قصيرة والياء كسرة طويلة ؛ فتطورت علامات أبي الأسود إلى هذا الشكل الخليلي الذي يعرف بيننا حتى الآن ، وهو (ـُ) و (ـَ) و (ـِ) ، وأضاف إليها علامات السكون (ـْ) ، والشدة (ـّ) ، والمدة (~) ، والهمزة المتصلة والمنقطعة .

وقد صادف هذه التعديل الذي أجري على نظام الكتابة العربية قبولا لدى عامة المسلمين [١] ؛ لأنه قد حافظ على سلامة نطق كلام الله في قرآنه خاصة لغير العرب من المسلمين ، كما يسر عليهم تفهم معـاني اللغـة العربيـة (لا سيما في الكلمات المتفقة في التهجي ، مثل عَلِم ، عُلِم ، عَلَّم ، عِلْم، عَلَم) ؛ إذ أوضح التشكيل موقع الكلام من الإعراب ، ووظيفة كل كلمة في الجملة . لذا ، ظل التشكيل من أهم السمات التي ارتبطت باللغة العربية ، وكان على جهاز الكمبيوتر وهو بصدد معالجتها أن يحافظ عليها سواء بإضافة علامات التشكيل إلى مفاتيح وحدات إدخـال النصوص العربية (لوحات المفاتيح) ، أو بالتعامل مع بعض البرامج التقنية التي ترتبط بها ، كبرنامج " المشكل الآلي " الذي ما إن يتم إدخال النص اللغوي إلى ذاكرة الكمبيوتر حتى يقوم هذا البرنامج بتشكيله آليا .

ولكن عملية التشكيل الآلي للنصوص اللغوية ما زالت – في رأينا – في حاجة إلى المراجعة المستمرة سواء من جانب التقنيين واللغويين أو التربويين على حد سواء ؛ ذلك أن الحاسة اللغوية وجوانب الإبداع اللغوي التي تتكون لدي المتعلمين والناشئة في سني التعليم ومراحله المختلفة قد تتأثر بهذه (الآلية) في التعامل مع اللغة مما يجعلهم يعتمدون على الآلة اعتمادا كليا في ضبط الكلمات وتشكيلها ، وقد يعطل هذا الاعتماد ما قد تكون لديهم من محصلة إبداع لغوي ، لا سيما أن النحو

---

[١] - في حين قوبلت بعض المحاولات الفردية الأخرى بالرفض ، كمحاولة إدخال علامات الترقيم مثل : الفاصلة ، والشرطة ، والنقطتين ... إلخ التي دخلت العربية نقلا عن اللغات الأوروبية الحديثة إبان فترات الاستعمار الأوروبي - على النص القرآني ، وهي محاولة دعا إليها المفكر الهندي محمد حميد الله ، بهدف تحقيق مزيد من التيسير والوضوح في قراءة القرآن وفهمه . وقام البعض بتفنيد هذه الدعوى وبيان مدي الخطر فيها على النص القرآني وعدم ملاءمتها على أساس أن استخدام علامات الترقيم ينبني على فهم مستخدمها للنص ، واستخدامها على هذا معناه أن يجمد النص على فهم فرد بذاته مع أنه قابل لأن يفهم على أنحاء أخرى . وقد أجريت مقارنة بين ترجمتين للقرآن الكريم استخدمتا علامات الترقيم في الترجمة ، لا في النص القرآني ، فثبت منها أن كلا من المترجمين قد فهم النص على نحو مختلف عن الآخر بدلالة ما استخدمه فيه من علامات الترقيم (انظر : اللسان العربي : الهوية – الأزمة – المخرج : مرجع سابق ، ص ٩٥) .

العربي لا بد فيه من التفكير للوصول إلى تحديد موقع ووظيفة كل كلمة في النص اللغوي . ولعل هذا التخوف يشبه ما أبداه البعض من تحذير بشأن استخدام الآلة بوجه عام كبديل لحاسة التفكير وإثارة الخيال لدى الإنسان ، فالآلة الحاسبة مثلا قد أصبحت لدى بعض الناس عقلا مفكرا لا يستطيعون إجراء حتى أبسط العمليات الحسابية التي كان العقل يجريها في الماضي بدونها ، مما جعل المخاوف تزداد بشأن ضمور جوانب التفكير لدى الإنسان فما بالنا وجانب التفكير الذي نخشى عليه يرتبط بالإبداع اللغوي في واحدة من السمات التي تتميز بها اللغة العربية عن غيرها من سائر اللغات وهي سمة الإعراب ؟!

تصحيح الأخطاء اللغوية آليا :

مع انتشار أجهزة الكمبيوتر وزيادة الاعتماد عليها في طباعة ومعالجة النصوص اللغوية ، ظهرت طرق مختلفة تقوم الآلة من خلالها بتصحيح الأخطاء التي قد يقع فيها المستخدم عند إدخال هذه النصوص ، حيث تتم طباعة النص في ملف داخل ذاكرة الحاسوب ، ثم يتم بعد ذلك إيجاد الأخطاء وتصحيحها . وفي أغلب الأحيان " تتم عملية التصحيح عن طريق قاموس ، حيث يتم تخزين الكلمات الشائعة أو جذورها من مفردات اللغة داخل ذاكرة الحاسوب ، وتجرى بعد ذلك مقارنة وتصحيح كلمات الملف بالتوالي مع كلمات القاموس ، وبطبيعة الحال ، فإنه كلما زاد عدد كلمات القاموس زادت مقدرته على التصحيح "[١] . وقاموس اللغة العربية من أغنى قواميس اللغات في العالم بالمفردات والقواعد ، فبينما يبلغ عدد مفردات قاموس اللغة الإنجليزية ، مثلا ، حوالي ٣٠٠ ألف كلمة ، نجده في اللغة العربية يصل إلى أكثر من ٧ ملايين كلمة[٢] !

أولا - تصحيح الأخطاء الإملائية :

لا شك أن برامج التدقيق الإملائي تؤدي دورا لا ينكر في تصحيح أخطاء اللغة المكتوبة لدى المستخدم الذي لا تتوافر له الثقافة اللغوية الكافية ، وهي في الوقت ذاته تسهم في ترسيخ الرسم الإملائي للألفاظ ، وتفض بذلك إشكالا طالما أدى بكثير من اللغويين العرب إلى الحيرة والاضطراب (لاسيما في كتابة الهمزة : متوسطة ، ومتطرفة) فقواعد الرسم والإملاء ليست موضع اتفاق حتى بين العلماء قديما وحديثا ، ولهم آراء متضاربة فيها . وقد جاء في تقرير لجنة الإملاء بمجمع اللغة العربية (الدورة الرابعة عشرة) " ومن حسن حظنا أن

---

[١] - تصحيح الأخطاء في النصوص المكتوبة باستخدام الفائض اللغوي : د. عبد الرحمن الجبري ، السجل العلمي لندوة استخدام اللغة العربية في تقنية المعلومات ، مرجع سابق ، ص ٩٣ .

[٢] - تقنيات اللغة العربية : دراسة منشورة بمجلةPC magazine ، مرجع سابق ، عدد يناير سنة ٢٠٠٠م ، وقد تناولت هذه الدراسة ، معالم المشهد التقني للغة العربية لدي الشركات والجهات العاملة في هذا المجال داخل وخارج الوطن العربي .

علماء الرسم لم يتركوا قاعدة إلا وقد اختلفوا فيها ، واستفدنا من هذا الخلاف في وضع قواعد مطابقة لما نريد من التيسير والتذليل " ولكن الخلاف لا يزال قائماً في الإملاء العربي بالفعل بين الدول العربية المختلفة ، وبين أبناء الدولة الواحدة ، بل بين أبناء الطبقة المتجانسة من المتعلمين [1]

ويسهم الكمبيوتر بانتشاره وتزايد الاعتماد على برامج التدقيق الإملائي في حسم هذا الخلاف ، لأن هذه البرامج التي يراعى في تسويقها حاجة البلدان العربية تنتشر ، فتنتشر معها ، من ثم ، النماذج التي صممت على أساسها في كتابة قواعد الإملاء ، وترسخ هذه النماذج يوما بعد يوم في أذهان المستخدمين ، فلا يكون ثمة محل لتعدد صور هذا الخلاف بعد ترسيخ صورة واحدة . ويوضح الجدول التالي بعض نماذج الخلاف في رسم قواعد الإملاء ، والصورة التي ارتضتها برامج التدقيق الإملائي :

أوجه الاختلاف في رسم الكلمة	رسمها في برنامج التدقيق الإملائي
يقرءان – يقرأان – يقرآن	يقرأان
أؤدبه - أأدبه	أؤدبه
جزءان - جزأان	جزءان
عبءا - عبئا	عبئا
اقرءا - اقرآ - اقرأا	اقرأا
يلجأون - يلجئون - يلجؤون	يلجئون
تبدأين - تبدئين	تبدئين
يجرءون - يجرؤون	يجرءون
مئة - مائة	مائة

ولكن برامج التدقيق الإملائي لم تستطع بعد أن تلبي مطالب اللغة العربية لعدم غناء قاموس مترادفاتها الذي تعمل على أساسه ، فلا تتعرف بالتالي على

[1] - الإملاء والترقيم في الكتابة العربية : عبد العليم إبراهيم ، مكتبة غريب ، القاهرة ، ص ١٠١ .

كلمات كثيرة يخلو منها ، ولا تستطيع من ثم أن تطرح بدائل لها ، إنما تكتفي بوضع الخطوط الحمراء تحتها .[١]

وهذا التطوير لن يحدث بالصورة المرجوة إلا إذا أقدمت على تحقيقه الهيئات والجهات العربية المعنية نفسها عملا بالمثل القائل : ما حك جلدَك مثلُ ظفرك ، فتولَّ أنت جميع أمرك ، ولا أدري : لماذا نترك للشركات الأجنبية التي لا تعطي إلا بقدْر ما تستفيد وتأخذ أن تحل محل مجامعنا اللغوية في وضع وتقنين قواعد اللغة للمستخدمين العرب ؟

إن هذه الشركات والجهات لا تحركها غيرة لغوية ، ولا يهمها غير الربح ؛ لذا فإنها لا تهتم بالتطوير إلا بالقدر الذي يحقق لها مصالحها أو بالأحرى : مطامعها .[٢]

ثانيا - تصحيح الأخطاء النحوية :

أما تصحيح الأخطاء المتعلقة بقواعد النحو عن طريق " مدقق النحو العربي " الذي لم يطرح للاستخدام في أجهزة الكمبيوتر على نطاق واسع إلا منذ عام ٢٠٠٠م ، فيعد هو أيضا من التقنيات التي استطاعت تطويع جهاز الكمبيوتر لخدمة اللغة العربية والنهوض بها ؛ واستحق بذلك وصف " المعلم الآلي " ، لأن المستخدم يستطيع من خلاله معرفة الخطأ النحوي ، وتصحيحه آليا ، فإذا كتب مثلا في أحد النصوص : (عندما اهتم العرب بلغتهم كانوا متقدمون) فإن المدقق النحوي يتوقف عند هذه الجملة قائلا : " خبر كان وأخواتها واجب النصب ، تستبدل الكلمة " متقدمون " بالكلمة " متقدمين " [٣] لتصحيح الخطأ . فإذا أمرته بالتغيير صححها تلقائيا ، وقد جربته في كثير من الجمل البسيطة التركيب نحويا ، مثل : " إن الإنجليز غيورين على لغتهم " و " مازال العرب مقصرون "

---

[١] - جرب مثلا في مجال القواعد الإملائية : كفءان - كفئان - كفآن – كفئان ، وفي مجال المفردات جرب بعض الكلمات الثي وردت في القرآن الكريم ، في سورة النبأ مثلا ، مثل : المعصرات ، ثجاجا غساقا ، مفازا ... إلخ ، كما لا يتعرف على كلمات مشهورة ، مثل : مروة ، أميمة ، طنجة ... إلخ .

[٢] - ومما يؤكد ذلك أن كبرى شركات البرمجة في العالم التي تقدم مجموعة تطبيقات وبرامج Office ومن بينها برنامج معالجة الكلماتWord الذي طرح معه المدقق الإملائي لأول مرة عام ١٩٩٢م ، واستخدم على نطاق أوسع وبشكل أفضل منذ عام ١٩٩٧م ، ولكنه ظل كما هو دون تغيير في إصدار سنة ٢٠٠٠م ، ولم تبدأ الشركة في إدخال بعض التحسينات الطفيفة عليه (مثل : زيادة عدد الكلمات التي يتعرف عليها المدقق الإملائي ، وعدد البدائل التي يقترحها ، فضلا عن ميزة الحصول على مرادفات الكلمات العربية التي لم تكن متوفرة في الإصدارات السابقة) اللهم إلا في أحدث الإصدارات (XP) التي ظهرت في العام الماضي ٢٠٠١م .

[٣] - يلاحظ أن المدقق النحوي عند تصحيحه قد وقع في خطأ لغوي ؛ لأن الباء بعد الفعل استبدل لا تدخل إلا على المتروك (قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ) (البقرة: من الآية٦١) فالأصح أن يقول : تستبدل بكلمة " متقدمون " الكلمة " متقدمين " لتصحيح الخطأ .

و " اللغتان منتشرتين " ... إلخ ، فأبلى بلاء حسنا في تصحيح أخطائها الواضحة إلى (غيورون - مقصرين – منتشرتان ... إلخ) .

بل إنه في قد استطاع أن يكتشف الأخطاء في قواعد أعمق ، مثل : الاستثناء (اعتز شعوب العالم بلغاتهم إلا الخاملون) ، والحال : " من يهمل لغته يعش نادم أبد الدهر " ، و الاختصاص : " نعتمد نحن المسلمون على غيرنا " والمضارع المنصوب : " لن تعيشون سعداء إذا أهملتم لغتكم " ... إلخ ، وصوبها جميعا إلى : (الخاملين ، نادما ، المسلمين ، تعيشوا) .

ولكن هذا المدقق الآلي لا يكتشف إلا أكثر الأخطاء النحوية شيوعا في الجمل القصيرة وحدها ، ومن ثم فما زال دون المستوى المنشود ، فجملة مثل : " أكثر الناس وقوفا يوم القيامة أكثرهم خوضا في الباطل " أدخلت إليه دون نصب كلمتي (وقوفا ، و خوضا) ، فلم يستطع تصحيحهما . والحق أن مثل هذا البرنامج على الرغم من وجود بعض هذه الهنات البسيطة التي نأمل أن يبادر التقنيون العرب أنفسهم إلى تلافيها في إعداد برمجياتهم ، ربما يسدي إلى اللغة العربية ما تقصر دونه مدارس وزارة التربية والتعليم !

الكمبيوتر وتعليم اللغة العربية :

لا يقف استخدام الكمبيوتر في مضمار النهوض باللغة العربية عند حد تصحيح الأخطاء الإملائية والنحوية التي قد يقع فيها المستخدم العادي على نحو ما سلف ، وإنما يتعدى ذلك إلى تقمص دور المعلم – دون أن ينتقص منه - في تعليم اللغة العربية ، وذلك من خلال تطوير الأنشطة التي تؤدي ممارستها إلى تنمية المهارات اللغوية لدى الناشئة فضلا عن قدراتهم الإبداعية .

ويعتبر استخدام جهاز الكمبيوتر في تعليم اللغة العربية أحدث صور " التعليم عن بعد " الذي بدأ بالمراسلة ثم بواسطة الإذاعة ، فالتليفزيون ، وقد انتشر استخدام هذه الوسيلة من وسائل تعليم اللغة في العالم في العقدين الأخيرين ، من خلال إعداد بعض البرامج المسجلة على أقراص تحوي دروسا في تعليم اللغة وتبسيط قواعدها .

ويكمن الأثر الفعال للكمبيوتر في تعليم اللغة العربية - كما يرى الدكتور أحمد المعتوق - من خلال " الطريقة المنهجية التي تعد وتعرض وتستخدم بها برامج التعليم الآلية ، وفي الشكل الحركي الذي تتخذه اللغة وتفاعل المتلقي واستجابته للمثيرات والحوافز السمعية والبصرية التي تصاحب عمليات تعليم اللغة فتجسد له قواعد اللغة في إطار مرئي جميل أو مسموع مؤثر أو هما معا ، أو تستحثه على المنافسة والتحدي وتستدرجه فيواصل أو يعاود النشاط ويكرر

المجابهة والتحدي من دون سأم أو ملل ، هذا بالإضافة إلى ما يتوافر له من قدرة على الانتقال والاختيار لما يتناسب مع قابلياته الطبيعية الخاصة وإمكاناته المادية والزمنية وما يتلاءم مع حاجاته ويلبي رغباته [١].

ويجدر بوزارة التعليم ما دامت أمينة على النهوض باللغة العربية في مدارسها أن تتوسع - بالتنسيق مع المؤسسات المعنية كمجمع اللغة العربية - في إعداد برامج تعليم اللغة العربية آليا ، لعله يساعد في سد العجز الناجم عن تدهور مستوى تعليمها (بشريا) ، لا سيما أن الوزارة آخذة في إدخال تكنولوجيا التعليم المتقدمة إلى كافة المدارس ، ومن شأن هذه الخطوة – كما يقول وكيلها الأول – " إحداث ثورة في بنية العملية التعليمية كما وكيفا . حيث تنتقل العملية التعليمية من " عملية التعليم " التي ترتكز على معلم ومنهج محدد إلى " عملية التعلم " التي ترتكز على النشاط الذاتي والإيجابي للمتعلم نفسه ، وهنا يصبح التلميذ قادرا على تجاوز المنهج المحدود إلى منهج مرن يتعامل مع قدراته وطاقاته الإنسانية المبدعة بل يصبح قادرا على تجاوز جدران حجرة الدراسة إلى مناهل للمعرفة غير محدودة المصادر ، وهذا هو الشرط الأساسي والكافي لعملية " التعليم الذاتي " [٢].

وعلى الذين يهتمون بتقعيد ظواهر اللغة العربية احترام صورها المتجددة كما يحترمون تقاليدها الموروثة ، لأن اللغة - في رأي الدكتور عبد الصبور شاهين - قسمة بين الواقع والتاريخ ، ونحن لا نتعلم النحو الذي يخدم لغة سيبويه وعصره ، وإنما الهدف هو خدمة لغة الحضارة الحديثة . ولقد مضى العصر الذي كان فيه منتهى البراعة في استعمال اللغة أن يصوغ القائل كلمة ، أو يطلق مثلا ، أو يخطب الناس بجمل تشبه جمل قس بن ساعدة الإيادي ، على حلاوة جمله ، وأصبح استعمال اللغة الآن خاضعا لضرورات التعبير المباشر ، والعلمي والبسيط أي أننا نعيش فترة تتكون لنا فيها تقاليد لغوية متميزة ، بفضل الصحافة والإذاعة (والكمبيوتر والإنترنت) ، ويكاد الاتصال بين القديم والجديد أن ينقطع بسبب الجمود الذي فرضته المقاييس المتشددة حتى ليحس الباحث في هذه المقاييس أنه يدرس ويعالج لغة أخرى غير التي يرجو خدمتها ويحاول دعم تطورها [٣].

الكمبيوتر والمعجم العربي :

وما دام الدور الذي يضطلع به جهاز الكمبيوتر في النهوض باللغة العربية لا يقف ، عند حد تعامله مع مستوياتها المختلفة (الحرف ، والكلمة ، والجملة) ، بواسطة برامج التدقيق والتحليل الإملائي والصرفي والنحوي ، على النحو السابق

---

[١] - الحصيلة اللغوية : د. أحمد محمد المعتوق ، مرجع سابق ، ص ١٠٩ .
[٢] - اللغة العربية وجهود متواصلة لا تنكر : د. حسن البيلاوي ، جريدة الأهرام ، عدد ٢٠٠١/٢/١٥ ، ص ١٠.
[٣] - - دراسات لغوية : د. عبد الصبور شاهين ، مرجع سابق ، ص ٩٥ .

فهذه البرامج وغيرها لا تلبي وحدهـا احتياجـات اللغة العربية في المعالجة الآلية . فمـن ثـم بـرزت الحاجـة إلـى تطبيقـات أخـرى تسـتوعب طاقـات اللغـة العربيـة ، وتستطيع اللغة بها أن تستفيد فعلا من إمكانيات الكمبيوتر الذي يشعر المرء بحق أنه إنما ابتكر للنهوض بهذه اللغة الجليلة ، ولكن إذا أحس أهلها بقيمته ، وأحسنوا من ثم استخدامه وتطويعه من أجلها . ولا بد لهذه التطبيقات لكي تؤتي أكلهـا أن تبنـى علـى أسـاس معجمـي يستوعب مفردات اللغـة العربيـة ، ويعبـر عـن ثرائهـا الواسع . كما يحافظ عليها حيـة نامية متطورة .

فالمعاجم تحفظ مفردات اللغة و" تتولى تفسيرها وتوضيحها ، وتتكفل ببيـان صور استعمالاتها ، وتمييز الأصيل من الدخيل ، والحقيقـي مـن الزائـف ، والحـي من الميت ، والسائد من النادر منها ، فيرجع إليها الإنسان ليتزود بما يحتـاج إليه من ألفـاظ ، يعبر بها عما تخطـر له من أفكـار وتبدو له من معان ، ويتعرف على ما صعب عليه فهمه من مدلولات ، وبذلك يحيي لغته ، وينعشـها ، ويبقيها ثابتـة حيـة متطورة مع الزمن باستخدامه المستمر السليم لها نطقا وكتابـة ، وبما يبدعه وينتجه فيها فكره ، كما أنه يتخطى حاجز الزمن ويعيش مع الأجيال الماضية فيفيد من خبراتها ، وما أبدعته قرائح أهلها وأنتجته عقولهم " .[1]

وقد بـرزت الحاجـة إلـى وضـع معجم لغوي عندما أحس العرب بـأن الثروة اللفظيـة للغـتهم قـد اتسـعت وتعـددت روافـدها ، إثـر اتجـاه المجتمـع العربـي نحـو التحضر واختلاطه بالأجناس الأخرى ، مما كان له أكبر الأثر في شيـوع اللحـن واستعمال لفظة وإهمال أخري ، فاستنهضت همم علمـاء اللغـة الغيورين عليهـا فـي التأليف المعجمي الذي ابتدئ بكتاب " العين " للخليل بن أحمد الفراهيدي وقد بنـى ترتيبه على أساس صوتي راعى فيه مخارج الأصوات ، ثم تعددت بعد الخليـل مناهج وطرق التصنيف المعجمي ، حتى كادت تستقر أخيرا على الترتيب الألفبائي للجذور . يقول ابن منظور (ت ٧١١ هـ) في مقدمة " لسان العرب " وكأنـه يصـف حالنا مع اللغة العربية في هذا العصر :

" فإنني لم أقصد سوى حفظ أصول هذه اللغة النبويـة وضبط فضـلها ؛ إذ عليهـا مدار أحكام الكتاب العزيز والسنة النبويـة ، ولأن العـالم بغوامضـها يعلم مـا توافق فيه النية اللسان ، ويخالف فيه اللسان النية ، وذلك لما رأيته قد غلب في هذا الأوان من اختلاف الألسنة والألوان ، حتى لقد أصبح اللحن في الكلام يعد لحنـا مـردودا ، وصـار النطـق بالعربيـة مـن المعايـب معـدودا ، وتنـافس النـاس فـي تصـانيف الترجمانات في اللغة الأعجمية ، وتفاصحوا فـي غيـر اللغـة العربيـة ، فجمعت هذا

[1] - الحصيلة اللغوية : د. أحمد المعتوق ، مرجع سابق ، ص ٢٢٢ .

الكتاب في زمن أهله بغير لغته يفخرون ، وصنعته كما صنع نوح الفلك وقومه منه يسخرون "[1] !

واستخدام الكمبيوتر في بناء المعجم العربي بصفة عامة غدا مطلبا أساسيا تفرضه طبيعة المعجم من حيث مضمونه ، وتنظيمه ، وتحديثه ، وخدماته للبشر ولنظمهم الآلية ، وذلك بالإضافة إلى ما تفرضه بالطبع طبيعة العلم باعتباره معرفة ، أو باعتباره منهجا لتطوير المعرفة ، وهو ما ينعكس في النهاية في صورة مفاهيم تحتاج إلى مصطلحات تدل عليها .. وقد تعددت مظاهر المعجم العربي المزمنة وترسخت إلى الحد الذي أدى إلى عزوف معظم الناطقين بالعربية عن استخدام معجم لغتهم الأم ، وقد زاد من تفاقم الأزمة تعقد بنية المعجم العربي نظرا لطغيان الخاصية الاشتقاقية على ظاهرة تكوين الكلمات العربية ، والتي تضيف طبقات أخرى لعمق بنيته[2] .

ويعد استخدام الحاسوب في صناعة المعجم العربي - كما يرى الدكتور محمد على الزركان - " ظاهرة مثالية للمعالجة اللغوية ، لأنه – المعجم الحاسوبي - يتجاوز كل ما يوجه إلى المعاجم التقليدية قديمها وحديثها من مآخذ في المادة والشرح والمنهج ، ويشتمل على توصيف معلوماتي لمواده يتضمن كل منها المعطيات اللازمة لتحديد المادة وخصائصها النحوية والصرفية والصوتية والدلالية ومعدلات استخدامها وغير ذلك ، بما يوفر حاجة الباحثين والنظم اللغوية الآلية مثل : المعالجات الصرفية والنحوية والدلالية والفهم الآلي والترجمة بمساعدة الحاسوب ، واسترجاع المعلومات وفهرستها ، والمصححات الإملائية والنحوية ، وتعليم اللغات وتركيب الكلام وفهمه .

وطبيعي في معجم كهذا أن تتوخى فيه سهولة التحديث زيادة وحذفا وتعديلا وأن يجرى تصميم قاعدة بياناته على نحو يسمح باستخلاص معاجم فرعية : متخصصة ، أو دلالية ، أو خاصة بظواهر لغوية – كالمشترك اللفظي والمترادف والتضاد والتعابير الاصطلاحية – أو تاريخية ، أو غيرها ، وأن يفيد من سمة الاطراد في مادة المعجم العربي ، ويستغرق ما يخرج عن القياس في المشتقات وغيرها ، وما سيكون سببا في وقوع مشكلات فنية في المعالجة الآلية ، مثل : الجمع بين التعدي واللزوم ، وتعدد الأبواب التصريفية للفعل الثلاثي مع اتفاق المعنى أو اختلافه ، وجموع التكسير ، وكثرة المجاز بأنواعه "[3] .

---

[1] - لسان العرب : ابن منظور (جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم) ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، الجزء الأول ، ص ١٣ .

[2] - اللغة العربية والحاسوب : د. نبيل علي ، مرجع سابق ، ص ٤٥٩ .

[3] - اللسانيات وبرمجة اللغة العربية في الحاسوب : د. محمد على الزركان ، مرجع سابق ، ص ٥٤ .

وليس هذا فحسب ، بل يمكن استختتدام الكمبيوتر في بنـــاء " المعجم الأبجدي " الذي ترتب الكلمات فيه دون مراعاة لمادة أو تصريف .

ومن المعروف أن ترتيب الكلمات في المعاجم العربية قد تغير من مدرسة إلى أخرى ؛ ومن واضع إلى آخر ، فالخليل بن أحمد رائد المدرسة الصوتية قد رتب " كتاب العين " – كما سبق - حسب مخارج الحروف بادئـا بحروف الحلق أما أصحاب المدرسة الأبجدية فبعضهم رتبها حسب أواخر أصول الكلمات كما فعل الجوهري في الصحاح ، والبعض الآخر رتبها بمراعاة الحرف الأول وهو ما عليه جل المعاجم الآن .

وقد أصبحت الحاجة ملحة لتحديث منهج إعداد المعجم وطريقة بنائه التقليدية التي أخنى عليها الدهر ، ليتواكب مع روح العصر الحديث في ظل استخدام الكمبيوتر في صناعته ، وذلك عن طريق حصر مفردات الثروة اللغوية ، لا سيما المفردات الشائعة ، وترتيبها على حسب نطقها لا على حسب تصريفها باعتبار الحرف الأول للكلمة على حـالتها ، بقطع النظر عن أصلها أو تصريف مادتها ، فيتسنى لغير الملمين بقواعد الكشف في المعاجم التقليديـة (من أصحاب التخصصات العلمية البحتة ، كالمهندسين والأطباء وغيرهم) البحث عن أية كلمة حسب الحرف الأول منها فما يليه ؛ فهؤلاء لا درايـة لكثير منهم بقواعد الصرف العربية وما يحدث لكثير من الكلمات من إبدال وإعلال وقلب ورد و حذف .. إلخ .

فكلمة مثل (صلة) يبحث عنها بناء على هذا الترتيب الأبجدي الذي يراعى فيه ترتيب الكلمات على حسب نطقها ، في باب الصاد ولا داعي للتوقف أمام الحرف المحذوف (الواو) الذي ربما أرهق الكثيرين البحث عنه ، بينما يكشف عن اتصال وهي من نفس المادة في باب الألف فالتاء ، وعن وصال في باب الواو فالصـاد ، ولا شك أن ترتيب المعجم العربي على هذا النحو ييسر استخدامه وتداوله في الأوساط المختلفة ، وهو في الوقت ذاته لا يسبب أي خلل في مفردات اللغة أو يتغول على الثروة المعجمية التي تتميز بها . كما لا يؤثر على خاصية الاشتقاق التي تتميز بها اللغة العربية فالأمر لا يعدو مجرد إعادة ترتيب للكلمات في أبواب المعجم .

وهذه الطريقة هي التي تستخدم في بناء معاجم كثير من اللغات العالمية ولا ضير أن تستخدم في بناء المعجم العربي لأن الغرض تذليل عقبات استخدام المعاجم العربية للمستخدمين لا التمسك بدعاوى التميز والتفرد في حين تتسع الفجوة بين الناس والمعجم العربي . وقد راعت بعض المعاجم الحديثة بالفعل هذا الترتيب ، كمعجمي " الرائد " لجبران مسعود و " المرجع " للعلايلي ، فضلا عن " المنجد الأبجدي " كما اعتمدت بعض المصادر التراثية هذا الترتيب الأبجدي العادي كما فعل ابن الأثير في كتاب " النهاية في غريب الحديث والأثر " حيث لم

يراع في ترتيبه الرجوع إلى أصل الكلمة أو تصريفاتها ، وما أحوجنا اليوم إلى ترتيب المعجم بصورة ميسرة تلبي متطلبات المستخدمين على تنوع اختصاصاتهم وتذلل استخدامه وتحقق من ثم الفائدة المرجوة منه وقديما قيل : **المعجم هو الكون مرتبا ترتيبا هجائيا .**

الكمبيوتر والمعجم العربي التاريخي :

ينص مرسوم إنشاء مجمع اللغة العربية على أن من أهم أغراضه : " أن يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية " وعلى الرغم من أن اللغة العربية قد سبقت الكثير من لغات العالم في وضع المعاجم اللغوية حيث ظهر أقدم معجم عربي معروف وهو معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي في القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي بينما " لم يظهر مصطلح المعجمية في اللغات الأوروبية إلا في القرن السابع عشر وما بعده " [1] ؛ على الرغم من ذلك فإن اللغة العربية قد تخلفت عن اللغات الأوروبية في وضع المعجم التاريخي الذي يعتبر حلقة مفقودة في تراث اللغة العربية وثقافتها ، وتنبع أهمية المعجم العربي التاريخي من خلال تتبع أصول الكلمات والتطورات التي أصابت أصواتها ومدلولاتها عبر العصور المختلفة وذلك باستقصاء الشواهد والنصوص التي يعتبر تسجيلها في حد ذاته حفظا للثروة اللغوية من الضياع (يضم معجم أكسفورد بين دفتيه أكثر من ثلاثة ملايين شاهد لغوي) .

ومن العجيب أن فكرة إنشاء معجم تاريخي للغة العربية قد بدأ تنفيذها بالفعل عام ١٩٣٦ ، أي بعد إنشاء مجمع اللغة العربية بأربع سنوات ، على يد أحد أعضاء المجمع من الأجانب ، وهو المستشرق الألماني " فيشر " الذي أراد أن يضع للعربية معجمها التاريخي على غرار معجم أكسفورد – المعجم التاريخي للغة الإنجليزية - ولكن فكرته على الرغم من تبني مجمع اللغة العربية وتحمسه لها ، لم تكتمل لمرضه ثم وفاته عام ١٩٤٩ ، ولم تجد اللغة العربية من أبنائها حتى الآن من يكمل مسيرة فيشر في إنجاز هذا المعجم ، على الرغم من أن فيشر حين بدأ تنفيذ فكرته لم يكن ثمة كمبيوتر قد استخدم بعد في معالجة اللغة العربية **!**

ويذهب الدكتور **إبراهيم بيومي مدكور** إلى أن السبب في تجاهل هذه الفكرة إنما يعود إلى تعذرها ، لأن العربية أفسح مجالا من الإنجليزية ، ومصادرها أكثر وأغزر ، ومنها ما لم يكشف عنه بعد ، وما كشف لا يزال قدر منه مخطوطا ، ثم يقرر أن المجمع قد قنع بعد يأسه من إخراج معجم فيشر بإخراج " المعجم الكبير "

---

[1] - أعمال مجمع اللغة العربية بالقاهرة : محمد رشاد الحمزاوي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٨ ، ص ٤٩١ .

بعد " الوسيط " و" الوجيز " تاركا للزمن استكمال الوسائل الضرورية لوضع المعجم التاريخي [1] .

ولا شك أن استخدام الكمبيوتر في معالجة اللغة العربية هو أهم هذه الوسائل التي استكملها الزمن ، ولا أدري سببا لتقاعس الجهات المعنية باللغة العربية في إنجاز هذا المعجم الذي يعد خزانة لغوية وثقافية وأدبية لتراث اللغة العربية ، اللهم إلا إذا كانوا ينتظرون اختراع إنسان آلي يقوم مقامهم في وضع المعجم التاريخي للغتهم أو لعلهم ينتظرون بعث فيشر من الممات !

الكمبيوتر والشعر العربي :

إذا كان الكمبيوتر قد استطاع أن يحاكي عقل الإنسان من حيث بنيته في تخزين المعلومات واسترجاعها آليا ، فإن الإنسان وهو آلة الخالق – سبحانه – بما أودع فيه من حس وشعور وروح من أمر ربه ، قد تميز في أداء رسالته ووظائفه عن أية آلة يمكن أن يتفنن البشر في ابتكارها ، حيث خصه الله دون سائر المخلوقات بالإبداع الذي يفيض به معين إحساسه ومشاعره .

ولذا تعددت المخاوف من شيوع استخدام (الآلة) التي تهدد ملكة الإبداع وتنقلها من الإنسان إلى الآلة الصماء ، بحيث يستسلم الإنسان مع مرور الزمان لآليتها فينضب المعين شيئا فشيئا . وقد وصف الكمبيوتر بأنه وحش أسطوري بألف ذراع وذراع ، يحاول من خلال أصابع كل منها أن يقبض على شبكة المعلومات ، ليضفرها جميعا حبلا واحدا ، يلف به على عنق البشرية ، فيسلبها أثمن ما تملك ، وهو التأمل والتفكير والإبداع .

ولأن الشعر ديوان العرب كما أثر عنهم ، كان على الكمبيوتر أن يدلي فيه بدلوه ، ليس بأن يشعر هو نفسه - وإن كنا لا نستبعد اليوم الذي نرى فيه معالجة المشاعر آليا عن طريق " الكمبيوتر الشاعر" ! - ولكن بتحليل أبيات الشعر العربي عروضيا ، بشكل آلي ، بعد أن أمكن للكمبيوتر أن يخزن في ذاكرته ما يربو على مليون بيت من عيون قصائد الشعر العربي ، وكان من الطبيعي أن يقوم بهذه المهمة بعض التقنيين العرب [2] ، فتمخض عن تطبيقها على الشعر العربي بعض النتائج العملية ، منها :

---

[1] - في اللغة والأدب : الدكتور إبراهيم بيومي مدكور ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ١١٢ .

[2] - هو السوري برهان بخاري ، حيث اعتمد على أحدث ما توصلت إليه دراسات علم الصوت في العالم ، وعلى خصائص الصوتيات العربية وعلم العروض ، وقام بعملية دمج بينهما استطاع من خلالها ابتكار هذه التقنية التي يمكنها تقطيع أي شعر في العالم بصرف النظر عن عدد أحرف هجائيته ، أو نوعها . (انظر مقالته بمجلة PC magazine ، عدد يناير ٢٠٠٠م) .

١ - إنجاز المعجم العروضي للشعر العربي ، والذي يتضمن مختلف التفعيلات العروضية التي يمكن للشعر أن يصاغ بها .
٢ - إنجاز المعجم التاريخي للعروض ، أي تحديد تاريخ ميلاد كل تفعيلة وتاريخ التوقف عن استخدامها .
٣- دراسة العلاقات الحاكمة بين نوع التفعيلات التي تأتي في صدر البيت الشعري والتفعيلات التي تأتي في عجزه .
٤ - إجراء دراسات آلية معمقة على التفعيلات الشعرية الخاصة بكل بحر من البحور .
٥ - دراسة العروض المقارن بين اللغات والوقوف على التفعيلات المشتركة بين أشعارها ... إلخ .

ولا شك أن النقاد العرب في حاجة دائمة للتواصل مع الآلة لمتابعة هذه التطورات التقنية التي تمس من قريب جوانب الإبداع الشعري والثقافي للغة العربية ، وذلك حتى تتواكب رؤيتهم مع معطيات العصر الذي ينتمون إليه من جانب ، وحتى تبقى أعينهم يقظة للآلة التي تحاول دائما أن تسحب البساط من تحت أيديهم من جانب آخر كما فعلت بالفن التشكيلي بتغلغلها في أوصاله حتى كادت تطغى على إبداع الفنانين أنفسهم ، ولكن هل تفلح الآلة ذات يوم في أن تزلزل أركان الإبداع الشعري والنقدي ؟

ترجمة اللغة العربية آليا :

تعتبر الترجمة الآلية من اللغة العربية وإليها ، إحدى التقنيات التي لا تزال اللغة العربية تترنح فيها ببطء لا يتناسب مع ما تنجزه اللغات الأخرى غير الإنجليزية ، كاليابانية والعبرية ، وسوف تعمل هذه التقنية على سرعة إنجاز برامج تعليم اللغة العربية لأبناء اللغات الأخرى مما يسهم في انتشارها ، وإبراز طاقاتها وقدراتها التي تضؤل أمامها اللغات الأخرى ، وتتردد السرعة التي تقدمها نظم الترجمة الآلية باستخدام الكمبيوتر حاليا بين ١٠٠٠٠ و ٢٥٠٠٠ ألف كلمة في الساعة الواحدة ، فضلا عن أنها تساعد على اتساق استخدام المصطلحات في النص المترجم .

فإذا علمنا أن كمية المعلومات التي أنتجت في الثلاثين سنة الأخيرة ربما فاقت تلك التي أنتجت في خمسة آلاف سنة مضت .

وأن اللغة العربية في مصر ، وهي أكثر الدول العربية سكانا ، يترجم إليها ، كل عام ، مائة كتاب فقط مقابل ٢٥ ألف كتاب تترجم إلى اللغة اليونانية ، و ١٨ ألف

كتاب تترجم إلى اللغة التركية ، وتترجم كتابا واحدا مقابل ١٧٠٠ كتاب تترجم إلى اللغة اليابانية [١]

وأن الإجمالي التراكمي لما ترجم منذ عصر الخليفة المأمون إلى الآن (أي منذ أكثر من ألف سنة) يبلغ حوالي عشرة آلاف كتاب ، وهذا العدد تترجمه دولة مثل إسبانيا حاليا في عام واحد !

إذا علمنا ذلك كله ، عرفنا السبب الذي يجعل اللغة العربية تترنح في مجال الترجمة عامة ، والترجمة الآلية على وجه الخصوص . وإذا عرف السبب بطل العجب ! فالترجمة الآلية تحتاج إلى تكاليف باهظة ، والتكاليف في أيدي المستثمرين ورجال الأعمال ، والمستثمرون ورجال الأعمال العرب ليست لديهم الغيرة اللغوية الكافية لاستثمار أموالهم في أبحاث وتقنيات لا تعود عليهم بالربح السريع مثلما تعود به مشاريع وتقنيات أسرع ربحا وأقل نفعا ! ولعل هذا الموقف يعكس جانبا آخر من جوانب التغافل عن نصرة اللغة العربية التي تقف وحدها بين بنيها والمتربصين بها ،وقوف الواثق الذي لن تهزه أبدا نقمة ناقم أو غفلة غافل ، وكأن لسان حالها يقول :

عجب الدهر من صمودي وصبري
رغم أن الجناة أهلي وقومي
هجروني بغير ذنب ولكن
هي دعوى جهالة دون علم
ما الذي في اللغات ليس عندي
وهي مني ومن جذوري وجرمي
من تكونوا بغير اسمي وديني
غير عجم على جهالة بُهْم ؟!

اللغة العربية والإنترنت :

إذا كان الكمبيوتر هو أداة إعداد المعلومات ، وتخزينها ، واسترجاعها ، فإن الإنترنت ، وهي عبارة عن شبكة من أجهزة الكمبيوتر المتصل بعضها بالبعض في جميع أنحاء العالم ، هي وسيلة نشرها وتناقلها. وقد أصبحت الإنترنت بحق " نافذة الإنسان على عالمه الصاخب المضطرب ، ووسيطه الجديد الذي يرى من خلاله واقعه ويتعامل معه ، ويمارس فيه عن بعد ، معظم أنشطته العملية والذهنية . فعن بعد ، يسترجع المعلومات وينشرها ، يشتري ويبيع ، يعلم ويتعلم ،

[١] - سياسة ثقافية جديدة لا تكرار للسالفة : أحمد عبد المعطي حجازي ، الأهرام ، عدد ١٩٩٣/١/٢٠م .

يتفاوض ويتسـامر ، يعقد الصفقات ويقيم الصداقات ، يفض المنازعات ويحشد تحالفات الوفاق والعداء ... وقد وفرت تكنولوجيا المعلومات ساحة مثيرة لعمل الثقافة ولقاء الثقافات ، وفاقا كان هذا اللقاء أم صراعا وقد انصهرت في الكيان المجتمعي ، وأصبحت متاحة لجميع الأعمار على اختلاف قدراتهم ".[1]

ولا شك أن هذه التعاملات (الإنترنتية) لا تتم إلا من خلال اللغة " وما دمنا قد دخلنا عصر الإنترنت ، فلندخله بما يليق بنا "[2] وهل يمكن أن يتحقق لنا " ما يليق بنا " من استخدام هذه الوسيلة الإعلامية التي تعتمد في المقام الأول على اللغة دون أن يتحقق بالفعل للغــة العربية " ما يليق بها " " ؟

وضع اللغة العربية على شبكة الإنترنت :

قبل سنوات قليلة ، كانت جميع المواقع على شبكة الإنترنت تستخدم اللغة الإنجليزية ، وانخفضت النسبة سنة ١٩٩٧م إلى حوالي (٨٥%) وفي عام ١٩٩٩م إلى أقل من (٧٠%) من إجمالي مواقع الشبكة ، ومن المتوقع انخفاضها إلى أقل من (٥٠%) بحلول عام ٢٠٠٣م . ومعنى ذلك أن لغـات العـالم قد بدأت تتمرد بالفعل على هيمنة اللغة الإنجليزية على هذه الوسيلة الإعلامية التي يتزايد الإقبال على استخدامها في شتى أنحاء العالم ، كما يتزايد الدور الذي تضطلع به في الإعلام والتعليم والثقافة .

أما اللغة العربية – ويا لله للغة العربية ! – فما زالت تحتل مرتبة دنيا بين اللغات المستخدمة على شبكة الإنترنت (المرتبة العشرين) ، حيث تبلغ نسبة عدد المواقع التي تستخدم اللغة العربية على شبكــة الإنترنت حوالي (٣%) فقط [3]، على الرغم من توافر تقنيات وأدوات البحث التي تتيح الإبحار بها في هذا الخضم المتلاطم من الألسنة واللغات . وهذه النسبة لا تعني استخدام اللغة العربية وحدها في تشييد المواقع العربية ، بل إن جزءا كبيرا من هذه المواقع العربية يستخدم مع اللغة العربية لغة أخرى وبخاصة الإنجليزية ، سواء أكانت تخص العرب أو بعض الجهات التي تهتم لأغراض مختلفة باللغة العربية .

وليس هناك سبب واحد مقنع لإعراض العرب أنفسهم عن تشييد مواقعهم بلغتهم العربية ورفد الشبكة بها ، وإيثارهم التحول عنها إلى الإنجليزية ، اللهم إلا

---

[1] - الثقافة العربية وعصر المعلومات : د. نبيل علي ، مرجع سابق ، ص ٧٣ .

[2] - هذه الجملة التي بين علامتي التنصيص اختتم بها الأستاذ رجب البنا مقالته المنشورة بجريدة الأهرام ، في ٢٠٠٢/١/١٣ ، تحت عنوان " ثقافتنا العربية على الإنترنت " .

[3] - لا تثبت هذه الإحصائيات طويلا في دنيا المعلومات التي يعتبر التغير والتطور السريع من أبرز سماتها ، ونأمل أن يصيب الإحصائيات الخاصة باللغة العربية مس من التطور الإيجابي .

ما يردده البعض من أن التحدث إلى العالم لا بد أن يتم بلغته العالمية التي تستخدم على أوسع نطاق في شتى الأرجاء .

وهذه قولة أشبه بالسم الذي يقدم في أطباق العسل ، فيصيب اللسان العربي في مقتل ؛ لما يبدو فيها من إحساس بالدونية والضعة أمام نماذج اللغات الأجنبية التي اعتادت ألسنة البعض على أن تفوه بها ، وهؤلاء ممن نالوا قسطهم من التعليم في أوطانهم باللغة الأجنبية فنشأت الهوة بينهم وبين لغتهم العربية وزادت مع الأيام حتى اتسع الخرق على الراتق ، وهذه القولة لا شك تغمط اللغة العربية حقها في أن تستعيد مكانتها العالمية السليبة في أوطانها وبين أبنائها يوم أن كانت تصول وحدها في ساحة العلم وتجول .

وليس في العالم أمة تتعامل مع لغتها بامتهان في مجالات التقنية الحديثة والإنترنت كما يفعل العرب بلغتهم الآن ، ولو أن العالمساير هذا المنطق المعوج العاجز ، في التعامل مع العلوم والمستجدات الحديثة ، لأصبح العالم كله مسخا في اللسان ، وتبعا لسيطرة لغة واحدة !

ولا جرم أن يستخدم العرب مع اللغة العربية في تصميم المواقع العربية على شبكة الإنترنت لغة أخري إلى جوار العربية يترجم إليها المحتوى الذي تقدم من خلاله الثقافة العربية والإسلامية ، لكن أن يقتصر العرب في بناء مواقعهم ، وإن كانت موجهة لغير العرب ، على لغة غير عربية ، فهذا ما لا يغتفر ، يقول شاعر النيل على لسان اللغة العربية :

أيهجرني قومي عفا الله عنهم
إلى لغة لم تتصل برواة ؟
سرت لوثة الأعجام فيها كما سرى
لعاب الأفاعي في مسيل فرات

والغريب أن يصادف هذا الوضع استكانة ولامبالاة في المجتمع العربي ، فيغض الكثيرون الطرف عنه ارتكانا واتكالا – بل تواكلا - على قول الله - سبحانه وتعالى : " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون " [١] ؛ فمثل هذا التخاذل قد أضر باللغة العربية في عالم التكنولوجيا والمعلومات أيما إضرار ؛ حيث تقاعس بها عن اللحاق بركب اللغات الأخرى . وليس من شأن التسليم بقدرة الله وتكفله سبحانه بحفظ اللسان العربي تجاهل الدور الذي ينبغي على أبناء اللغة العربية أنفسهم – لا على ملائكة السماء – أن ينهضوا به تجاه لغتهم ، وأولى بالمسلم الذي يرتكن إلى النص القرآني ليرفع عن كاهله عبء الحفاظ على اللغة التي نزل بها

[١] - الحجر : ٩ .

أن يدرك أن ما يتقاعس دونه واجب ألزمه الله به تجاه لغة دينه ، ودين الله – كما يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله - لا يقدر على حمله ، ولا حمايته الفاشلون في مجالات الحضارة الإنسانية الذكية ، والثرثارون في عالم الغيب ، والخرس في عالم الشهادة .

فإذا كان هذا هو شأن الكثيرين ، ويا للأسف ، في هذا المضمار ، فإن ثمة جهودا ما زالت تبذلها القلة في سبيل نشر الثقافة العربية والإسلامية على شبكة المعلومات الدولية ، وجعل اللغة العربية إحدى اللغات العالمية التي تستطيع التعامل الفعلي مع " البنية التحتية لشبكة الإنترنت " بمختلف الوسائل ، ومنها على سبيل المثال استخدام أبجديتها في كتابة عناوين المواقع العربية والبحث عنها ، بعد أن كان دعم اللغة العربية في برامج التصفح والبريد الإلكتروني ، منذ فترة وجيزة حلما يداعب خيال المستخدمين العرب .

وإذا علمنا أن عدد الصفحات والمتصفحين على شبكة الإنترنت بالغ في الازدياد والانتشار يوما بعد يوم بل ساعة بعد ساعة ، أدركنا أهمية الاهتمام بوضع لغتنا العربية عليها ، ودورها في استعادة مكانتها اللائقة بها بين لغات العالم لاسيما ونحن نعاين حرص بعض اللغات القليلة الحجم جغرافيا على الاستيلاء على أكبر مساحة ممكنة من المواقع على هذه الشبكة لنشر ثقافتها وتراثها . وليست العبرية عنا ببعيد ؛ فلئن كان عدد المواقع في عشر دول عربية لم يتعد في إحصائية لمطلع هذا العام – ٢٠٠٢ م – ثلاثة آلاف موقع ، وعدد مواقع الثقافة الإسلامية لم يتعد ثلاثمائة موقع ، فإن عدد المواقع الإسرائيلية التي تقدم باللغة العبرية قد وصل في مطلع هذا العام نفسه إلى ما يقرب من ثلاثين ألف موقع ، وعدد مواقع الثقافة اليهودية بلغ حوالي سبعمائة موقع ! ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد من اللامبالاة باللغة العربية من الزاوية التقنية على المستوى الرسمي ، بل إن كثيرا من المستخدمين العرب - لاسيما الشباب – ما زالوا يؤثرون اللغة الإنجليزية في مراسلات بعضهم البعض عبر شبكة الإنترنت حتى عن طريق المواقع التي تدعم اللغة العربية !

والأمر من ذلك أن يستخدم العرب الذين لا يستطيعون التحدث باللغة الإنجليزية الحروف اللاتينية في كتابة مفردات اللغة العربية وتعبيراتها المتداولة ، مثل : (inshallah) – (shukran jaziilan) – (wa alaykum as-salaam) على النحو الذي دعا إليه عبد العزيز فهمي في مقترحه الشهير الذي قدمه في الأربعينيات من القرن العشرين إلى مجمع اللغة العربية باستبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ! وتنبأ وقتها بأن اقتراحه سوف يرى النور لا محالة ، وها هو ذا جيل الإنترنت يلبي له رغبته في طرح الحروف العربية برسمها المعهود منذ نشأة الخط العربي ، ويستبدل بها الحروف

اللاتينية ! ولم يكتف جيل الإنترنت بإحياء هذه الدعوة ، التي تضر – لا شك - بنظام الكتابة العربية ، إذا ما ترك لها الحبل على الغارب ، وانتشرت بين فئات الشباب بصفة خاصة ، بل إنهم يتفننون أيضا في استبـــــــدال ما لا نظير له من الحروف العربيــة في نظام الكتابــة في اللغة الإنجليزية بالأرقام فالعين مثلا تكتب في مراسلاتهم الممسوخة ٣ والحاء تكتب ٧ وهكذا كما يتضح من النموذج التالي :

ezzayak ya ٣azizy
Wallhy wa٧ashteny
ana ٢olt ab٣at kam mail keda lel ٧abaieb
m٣ salamaty wa ta٧iaty legami٣ alas٧ab

(نموذج لرسالة من مستخدم عربي إلى مستخدم عربي آخر
عبر البريد الإلكتروني)

ويرفض علماء اللغة الإنجليز هذه الظاهرة المستحدثة على نظام اللغة و يرون أن ما أدخل على لغة شكسبير وبرناردشو وبايرن وجيمس جويس من علامات حذف واختزال ، واختصارات هو بمثابة ضربة سوط قوية إلى الوراء ، وقعت على اللغة الإنجليزية من يد التحديث الذي فرضته استخدامـات عصر التكنولوجيـا الحديثـة ، وما نتج عنه من وســائل الاتصــال المتعددة ، مثل الإنترنت ، والبريد الإلكتروني ، والهاتف المحمول الذي فرض هو الآخر أسلوبـا جديدا في المخاطبة ، أو المراسلة ، حيث تستخدم فيه الأرقام للدلالة على الحرف أو الكلمة وتستخدم الحروف اختزالا للكلمة واستغناء عن ذكرها كاملة مجاراة لعصر السرعة . فمثلا إذا أردت أن تخاطب أحدهم : ? Are you free to talk يمكنك وفق الأسلوب الحديث في الكتابــة الإنجليزيــة وعلى شاشــة الهاتف المحمول أن تكتب هكذا (ryf ٢t) فحرف r مقـــــابل are ، وحرف y مقابل you ، وهكذا من العبارات والجمل التي أصبح جيل الإنترنت والبريد الإلكتروني يستخدمها ويستسهلها ويتشبث بها إلى حد اعتبار من لا يتعامل بها يعيش بمعزل عن سبل التطور والمعرفة[١] ! ولئن كانت اللغة العربية قد عرفت نظام الاختصار في كتابة الكلمات التي استخدمها المؤلفون بكثرة في متونهم ، مثل (ثنا) اختصار (حدثنا) ، و(إ.هـ) اختصار (إلى هنا) ، و (إلخ) اختصار (إلى آخره) فإنها في الوقت ذاته لا تسمح أبدا بأن تصير رموز الأصوات العربية مسخا مشوها باستخدام حروف اللغات الأخرى في كتابتها وهي لا تنسجم لا شك مع سليقة اللغة العربية ونظامها الأصيل .

١ - جريدة الأهرام ، عدد ٢٠٠١/٥/٢٢ .

موقع مجمع اللغة العربية على شبكة الإنترنت :

يجدر التنويه ، أولا ، بأن مجمع اللغة العربية قد تنبه – أخيرا - إلى ضرورة " الإفادة من الحاسب الآلي فى أعماله ، وفق خطة لتطوير العمل من خلال التقنيات المتقدمة ، مع الارتباط بشبكة المعلومات (انترنيت) وبمراكز المصطلحات العالمية ، وإتاحة استخدام الأقراص المدمجة فى عمل المجمع ، وإتاحة أعماله عن طريقها لجمهور المستفيدين " .

وهذا أمر قد طال انتظاره كثيرا من الجهة المسئولة الأولى عن النهوض باللغة العربية ؛ فإذا كان قد عرف عن المجمع تمهله وتأنيه في معالجة شئون اللغة العربية والمستجدات عليها ، فإنه عند دخول دنيا المعلومات لا مناص أمام المجمع من أن يطرح الجمل جانبا ويمتطي صهوة الصاروخ ما أمكن حتى يحطم أسوار العزلة التي وضعت بينه وبين الناس .

وقد نتج عن العزلة الطويلة للمجمع منذ إنشائه أن " كثيرا من قراراته وتصويباته وتيسيراته – فيما يتصل بمتن اللغة وأصولها ولهجاتها وما يتصل بالألفاظ والأساليب – لم يصل إلى الجمهور أو لم يصل الجمهور إلى العلم به ، فلا يزال معلمو اللغة في المدارس – كما يقول أحد أعضاء المجمع - يحاسبون تلاميذهم ويؤاخذونهم في صحة نطق كلمة " مِنطقة " بكسر الميم ، وقد أجاز المجمع نطقها بفتح الميم ، ونطق كلمة " مُتحف " بضم الميم ، وقد أجاز المجمع نطقها بفتح الميم ، وهو النطق الشائع فعلا على الألسنة ، كما أجاز استعمال كلمة " تقييم " بمعنى بيان القيمة للتفرقة بينها وبين " تقويم " الشيء بمعنى تعديله وتهذيبه ، وأجاز قول الناس : بواسطة كذا تماما كما يقال : بوساطة كذا ، وأجاز في معاجمه اللغوية استعمال كلمة " الماس " للحجر الكريم المعروف وكان بعض المشتغلين باللغة يصرون على كلمة " الألماس " ، وحكم بصواب قول الكتاب : العشرينيات والثلاثينيات ومثلها ألفاظ العقود جميعا بإلحاق ياء النسب بها وجمعها جمعا مؤنثا سالما ويراد بها السنوات التالية للعقد حتى نهايته ... ومثل هذا ألوف من التصويبات والتيسيرات يجدها من يريد الاستزادة في بعض إصدارات المجمع" [١] .

ويقدم هذا الموقع معلومات عن المجمع نفسه بوصفه من أعرق مجامع اللغة في العالم العربي (هو ثاني المجامع اللغوية العربية ظهورا حيث تأسس عام ١٩٣٢م ، بعد مجمع دمشق الذي تأسس عام ١٩١٩م) من خلال بعض المداخل في صفحته الرئيسة التي يستطيع الزائر بمجرد الضغط عليها معرفة الكثير عن هذه الهيئة العلمية الجليلة ، ومعرفة بعض أغراضها ، ومنها :

[١] - مجمع الخالدين واللغة في وسائل الإعلام : فاروق شوشه ، الأهرام ، عدد ٢٠٠١/٣/٢٥ ، ص ١٣ .

أ- وضع معجمات لغوية محررة على النمط الحديث في العرض والترتيب ، ومعجمات علمية اصطلاحية خاصة أو عامة ذات تعريفات محددة .

ب- بيان ما يجوز استعماله لغويا ، وما يجب تجنبه من الألفاظ والتراكيب في التعبير .

ج- الإسهام في إحياء التراث العربي في اللغة والآداب والفنون ، وسائر فروع العلوم المأثورة .



(جانب من الصفحة الرئيسية لموقع مجمع اللغة العربية على شبكة الإنترنت)

كما يلم زائر هذا الموقع ببعض إنجازات هذا المجمع العريق ، ومنها :
أولا – المعاجم اللغوية :
١- معجم ألفاظ القرآن الكريم ، ويضم هذا المعجم كل ألفاظ القرآن الكريم ودلالاتها ومواضعها في القرآن الكريم . وقد صدرت منه ثلاث طبعات .
٢- المعجم الكبير ، وهو أكبر معاجم اللغة العربية ، طبع منه خمسة أجزاء ، وبالمعجم لغة وأدب ونحو وصرف وبيان وبلاغة ، وفيه أيضا تاريخ وجغرافيا وفلسفة ومعارف إنسانية وعلوم حياة وحضارة وما يشيع من مصطلحات علمية وفنية لتضفي عليه طابعه الموسوعي .
٣- المعجم الوسيط ، وهو معجم حديث مؤلف لجمهرة المثقفين ، وقد ظهرت الطبعة الأولى منه عام ١٩٦١م في جزءين كبيرين (١١٠٠ صفحة ، و٣٠ ألف مادة ، ومليون كلمة ، و٦٠٠ صورة) . اهتم باللغة قديمها وحديثها ، وتوسع في المصطلحات العلمية والأدبية والفنية ، وكذلك في ألفاظ الحضارة ، وقد صدرت منه ثلاث طبعات .
٤- المعجم الوجيز ، وهو معجم مختصر يفي بحاجات الطلاب بالمدارس والجامعات ، يستخدم في المدارس الثانوية في مصر وبعض الدول العربية .

ثانيا – مجموعة المصطلحات العلمية والفنية :
وقد صدر منها حتى الآن سبع وثلاثون مجموعة ، وهي تتضمن كل ما تعده لجان المجمع ، ويقره مجلسه ومؤتمره من المصطلحات المجمعية . ويسير المجمع في وضع المصطلحات العلمية على نهج واضح ، حيث يدرس المصطلح في لجنة علمية متخصصة ، تبحث المبنى والمعنى ، وتدرس أصله اللاتيني أو اليوناني ، وتبحث عن أفضل المقابلات له ، وقد ترجع في ذلك إلى المعاجم اللغوية القديمة والحديثة ، ثم يعرف المصطلح تعريفا علميا دقيقا . ويمر المصطلح في مراحل في الدراسة والمناقشة والتمحيص كفيلة بصقله وصوغه الصياغة المثلى ، بدءا باللجنة العلمية المتخصصة ، ثم بمجلس المجمع ، وبمؤتمره السنوي . وتلتزم اللجان في عملها بما سبق أن أقره مجلس المجمع ، بمؤتمره في شأن قواعد وضع المصطلح العلمي ، ومنها الأخذ بالاشتقاق ، والنحت ، والسوابق ، واللواحق ، وأن يؤدى المصطلح الواحد بلفظ واحد ما أمكن ليكون صالحا للاشتقاق منه والنسبة إليه ، وجمعه ، وألا يلجأ إلى التعريب إلا إذا استعصى إيجاد المقابل العربي .

ثالثا – المعاجم العلمية المتخصصة :
تجمع لدى المجمع عبر سنواته الطوال أكثر من مائة وخمسين ألف مصطلح علمي في مختلف التخصصات ، أعدتها اللجان العلمية بأعضائها وخبرائها ، وأقرها مجلس المجمع ومؤتمره ، وقد أصدر المجمع من هذه المصطلحات معجمات علمية متخصصة ، منها ما يلي :

١- معجم الجيولوجيا ٢ – معجم الفيزيقا النووية والإلكترونيات
٣- معجم الفيزيقا الحديثة ٤- معجم الحاسبات .
٥- معجم المصطلحات الطبية . ٦- معجم الكيمياء والصيدلة .
٧- معجم البيولوجيا في علوم الأحياء والزراعة . ٨- معجم النفط .
٩- معجم الرياضيات . ١٠ – المعجم الجغرافي .
١١- المعجم الفلسفي . ١٢ – معجم ألفاظ الحضارة والفنون .
١٣- معجم علم النفس . ١٤- معجم الهندسة .
١٥- معجم القانون . ١٦ – معجم الهيدرولوجيا .
١٧- معجم الموسيقا .

وإلى جانب ذلك ، فإن الموقع يقدم - حتى كتابة هذه السطور - خدمة البحث الفوري في أربعة من المعاجم ، هي : معجم ألفاظ القرآن ، معجم المصطلحات العلمية ، معجم الأساليب ، معجم قرارات المجمع .

ولكن الموقع على هذا النحو لا يشفي غلة اللغة العربية ، فما زال ينتظر منه الكثير ، وإن كان المجمع قد أراد بهذا الموقع تعريف الناس به ، وتذكيرهم بدوره بعد أن غلب عليهم النسيان ، فإنه قد وفى وكفى ، وما زال عليه عبء النهوض بإنشاء عدد من المواقع الأخرى للتعريف باللغة العربية نفسها نطقا وكتابة ، على المستوى العالمي ، من خلال مواد سمعية (كيفية النطق الصحيح للحروف والكلمات) وبصرية (معاجم مصورة) ، تقدم للزائر ، وبشرح مبسط واضح . فضلا عن نشر الدراسات والأبحاث المعاصرة التي تبين ثراء اللغة العربية وقدرتها على التجاوب مع معطيات العلوم الحديثة ، فليست مواقع الإنترنت زوايا يستفيد بها الباحث المحلي وحده ، وإنما يتسع نطاقها لكل باحث في شتى أرجاء العالم ، وهذا الباحث " العالمي " لا يهمه نشر " لسان العرب " ، بقدر ما يهمه ما في هذا " اللسان " من دراسات لسانية وأبحاث لغوية ترتبط بالعلوم الحديثة لا سيما العلوم التقنية ، وتضيف لبنة إلى صرح علم اللغة المعاصر ، وهذا لا يتأتى إلا بنشر هذه الدراسات ، بالتنسيق مع مراكز التقنيات العربية ، جنبا إلى جنب " اللسان " باللغة العربية ومترجمة إلى ما تيسر من اللغات الأخرى .

كما أن مجمع اللغة العربية مطالب كذلك بضرورة التحديث المستمر للمعاجم التي يتزود بها الموقع لتواكب مستجدات هذه العلوم ، بحيث لا تبدو مساحتها المحجوزة على شبكة الإنترنت كهفا تغط فيه المعلومات في نوم عميق (لم يتم تحديث أو تنقيح مادة المعجم الوسيط منذ صدوره في مطلع الستينيات حتى الآن – أي بعد مرور حوالي أربعين عاما - على الرغم من ظهور مستجدات ومفردات في الحياة العملية والعلمية لا حصر لها ، ويكون هذا الوضع مزريا إذا عرفنا أن معجم دودن Duden أشهر معاجم اللغة الألمانية يتم تحديثه كل سبع سنوات) !

الإنترنت ومشكلة المصطلح العلمي :

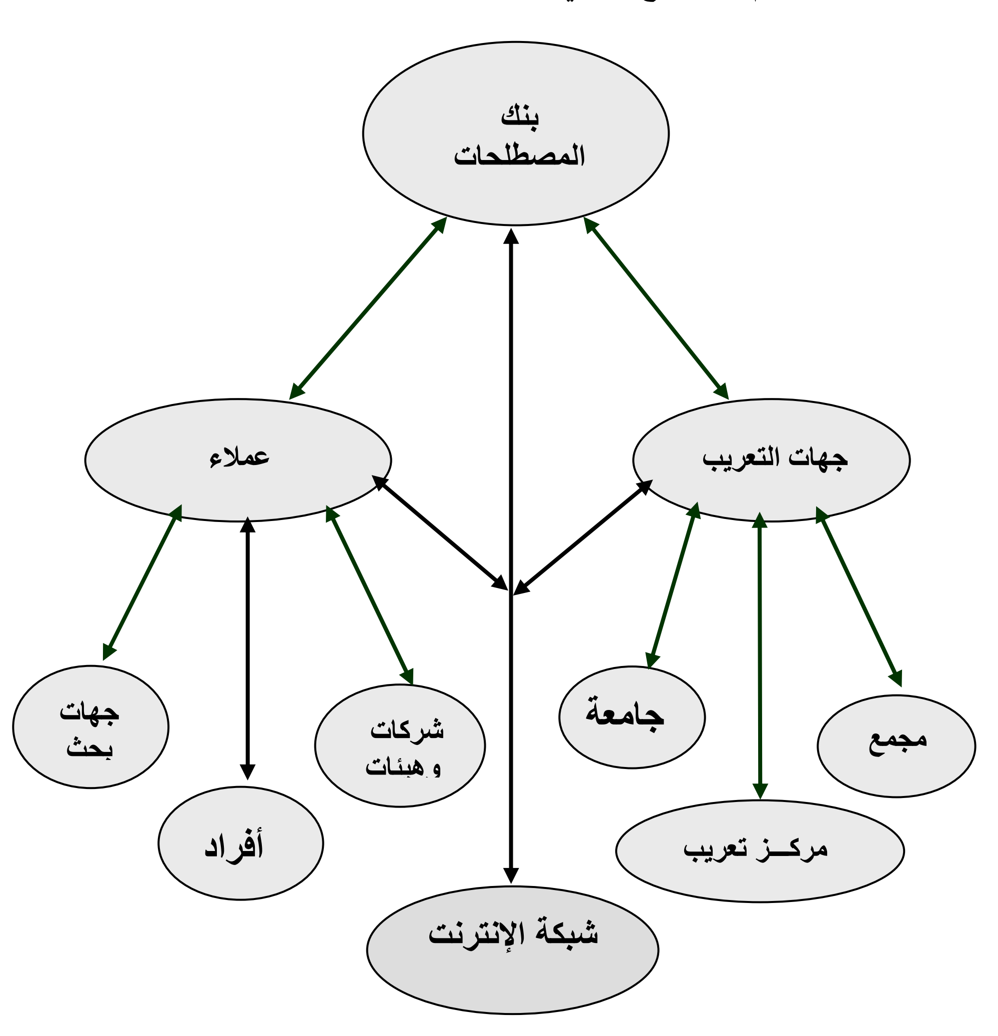
المصطلح جزء من المنهج العلمي ، ولا يستقيم منهج إلا إذا قام على مصطلحات دقيقة تؤدي الحقائق العلمية أداء صادقا ، وقديما قيل : " العلم لغة أحكم وضعها " . وبالمصطلح يستحضر المعنى بأيسر وسيلة ، ويقرب إلى الأذهان . وبه يستعان على التعلم ، ويتفاهم العلماء ولذلك يقول ليبنتز : " إن معظم الخلافات العلمية يرجع إلى خلاف على معنى الألفاظ ودلالاتها "[1] .

وثمة مشكلة تقض مضجع اللغة العربية ، وتؤرق المتحدثين بها ، وهي قصور المعاجم الحاد عن استيعاب المصطلحات العلمية الحديثة التي تترى عليها كل يوم من كل صوب وحدب ، كنتاج طبيعي لمستحدثات العلم التي لا تني تظهر وتستحدث في شتى أنحاء العالم ، إزاء عجز الجامعة العربية عن التنسيق بين المجامع والهيئات العلمية في الاتفاق على صك مصطلح أو إهمال آخر مما يؤدي إلى التخبط في استخدام الدول العربية المصطلحات العلمية . بالإضافة إلى غياب التنسيق العلمي والسريع بين اللجان المختصة في الوزارات المختلفة ومجمع اللغة العربية مما يؤدي إلى تداول المخترع وشيوع اسمه الأجنبي قبل أن يتفق على وضع المقابل له في اللغة العربية . فإذا ما اقترح المجمع اسما يكون الاسم الأجنبي قد شاع وانتشر وأصبح المقابل المجمعي حبيس أدراج اللجان . وليس أدل على هذا التخبط من كثرة الأسماء المتداولة تعريبا لمسمى واحد ، كما سبق أن رأينا في استخدام الحاسوب أو الحاسب الآلي أو الكمبيوتر ... إلخ . أو كما حدث من قبل مع كلمات ومصطلحات لا حصر لها ، مثل : Telephone التي عربت في البلدان العربية باثنتي عشرة كلمة عربية ، منها : تليفون ، وهاتف ، ومسرة ، ومقول ، وإرزير ، وتلغراف ناطق ، وآلة تكلم عن بعد ... إلخ .

ويمكن لشبكة الإنترنت أن تكون وسيلة فعالة وسريعة في حل هذه المشكلة عن طريق إنشاء ما يسمى " ببنك المصطلحات " ، ويكون " عملاؤه " كل من يستخدمون اللغة العربية ويتحدثون بها ، أما " رصيده " فهو كل مصطلح يصادف أي عربي ، ولا يعرف له معنى في مجال عمله أو فيما يستجد من العلوم المختلفة . فما على العميل إلا أن يفتح من منزله أو مخبره ، أو معمله ... إلخ موقع هذا البنك على شبكة الإنترنت ، ويرسل إلى السادة القائمين على أمره - المنظمة العربية للموازين والمقاييس مثلا – بأوصاف المسمى ، فيمدونه بالاسم العربي إن كان ثمة تعريب له ، وإلا تطرح بيانات هذا المسمى المراد وضع اسم عربي له ، على الجهات التي تعنى بصياغة المصطلح العلمي ونشره ، كمجامع اللغة العربية ومراكز التعريب – عبر الاتصال بمواقعها على الإنترنت أيضا – لتضع ما تراه كل جهة تعريبا ملائما لهذا الشيء .

[1] - في اللغة والأدب : د. إبراهيم بيومي مدكور ، مرجع سابق ، ص ٩٤ .

ومن خلال استطلاع الآراء المختلفة والموازنة بينها ، يتم انتقاء المصطلح المعرب الأنسب ، ثم يبلغ لهذا المستخدم ، في أسرع وقت ، ويصير ملزما له ولغيره من نفس تخصصه وبذلك تتحقق الملاحقة المستمرة لطوفان المصطلحات المستجدة في شتى التخصصات ، فضلا عن درء اللبس والتضارب في استخدام هذه المصطلحات ، ويبين الشكل التوضيحي التالي تصور المؤلف لحل مشكلة استخدام المصطلح العلمي من خلال شبكة الإنترنت :



(شكل توضيحي يبين كيفية الاستفادة من شبكة الإنترنت
في حل مشكلة المصطلح العلمي في اللغة العربية)

الفصل السادس

اللغة العربية
والنشـاط الاقتصـادى

إذا أردتُ أن أبيعــك بضاعتي
يجب أن أتحدث لغتـك
وإذا أردتَ أن تبيعني بضاعتــك
عليك أن تتحدث بالألمانيـة

المستشار الألماني الأسبق
(ويلي براندت)

في أواخر الثلاثينيات من القرن التاسع عشر الميلادي ، نشبت في الولايات المتحدة الأمريكية حرب لغوية أطلق عليها " حرب المعاجم " ، وقد لعبت المنافسة التجارية في مجال اللغة دورا بارزا في هذه الحرب التي أسفرت في النهاية عن تأكيد استقلال الجمهورية الفتية (أمريكا) والحفاظ على هويتها من التأثر اللامحدود ببريطانيا العظمى !

وقد جرت هذه المنافسة التجارية بين اثنين من رواد صناعة المعجم الحديث للغة الإنجليزية : أحدهما (وورسستر Worcester) الذي كان ينتصر للنموذج الإنجليزي المحافظ ، وبالتالي للهيمنة الاقتصادية اللغوية لبريطانيا العظمى . والآخر هو (وبسترWobster) الذي أعلن أنه " بوصفنا أمة مستقلة فإن كرامتنا تدعونا لأن يكون لنا نظامنا الخاص في اللغة وفي الحكومة أيضا " ، ورأى أن الممارسة العامة للأمة الأمريكية هي التي يتعين أن تحدد وحدها اللغة الأمريكية الموحدة وقدم مذهبا سياسيا للديمقراطية اللغوية ، لم يقصد به فقط الاعتراض على سيطرة اللغة الإنجليزية المدرسية بل قصد به أيضا ترسيخ اللهجة الإنجليزية الأمريكية بوصفها اللغة القائدة للمستقبل . ثم بنى معجمه الذي راج باسمه حتى أصبح هذا الاسم مرادفا للمعجم في الولايات المتحدة ، شأنه شأن روبير (Robert) في فرنسا ، و دودن (Duden) في ألمانيا ولا يزال هذا المعجم يتنافس على السيطرة على سوق اللغة الإنجليزية حتى اليوم [١] .

وهكذا شكلت المنافسة التجارية عاملا حاسما في استتباب اللغة الإنجليزية الأمريكية ، ونشرها حتى كادت تطغى على اللهجات التقليدية للغة الإنجليزية ، وقد ظلت العلاقة بين الاقتصاد واللغة تتنامى عالميا حتى غدت اللغة بالنسبة للنشاط الاقتصادي الحديث ركيزة محورية ، مثل النقود ، وتنشأ أهميتها من كونها عنصرا أساسيا من عناصر الاتصال الذي يعتمد عليه النشاط الاقتصادي اعتمادا كبيرا ، كما أن الاقتصاد قد أصبح دوره مهما في انتشار اللغة والإقبال .

وكم أدى التوسع في النشاط الاقتصادي لأمة من الأمم إلى تمكين لغتها في بيئات جديدة لم يكن لأهلها عهد بها ، كما حدث مع العربية إبان ازدهارها في مناطق العالم المختلفة ، شرقا وغربا ، عبر المنافذ التجارية ، جنبا إلى جنب بضائع العرب ومنتجاتهم ، وكما يحدث مع الإنجليزية اليوم ، حيث يمثل النشاط

[١] - اللغة والاقتصاد : فلوريان كولماس ، ترجمة د. أحمد عوض ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، العدد ٢٦٣ ، نوفمبر ٢٠٠٠م ، ص ٩٦ .

الاقتصادي الحديث ، لا سيما في سوق منتجات التكنولوجيا والاتصال ، عاملا من أهم عوامل انتشارها ، وقد أضحت مصائر اللغات (والشعوب) رهنا باقتصادياتها ، فكلما نشط اقتصاد لغة زاد انتشارها والإقبال عليها .

ويبين " لينين " صلة اللغة بتشكيل الكيان الواحد للمجتمع عن طريق إسهامها في إيجاد السوق ، وتمكين الأمة من عمليات البيع والشراء والأخذ والعطاء ، قائلا : " اللغة هي الأداة الأساسية للتعامل الإنساني ، ووحدة اللغة وتطورها غير المحدود ، هو أحد الظروف الأكثر أهمية من أجل تعامل تجاري حر بالفعل ، وواسع النطاق ، على المستوى الذي تتطلبه الرأسمالية الحديثة ، ومن أجل التجميع الحر والعريض لكل السكان ، من مختلف الطبقات . وأخيرا من أجل إقامة ارتباط وثيق بين السوق وكل مالك ، كبيرا كان أو صغيرا ، بائعا أو مشتريا " [١]

اللغة العربية بنت سوق :

توصف لغتنا العربية ، في التعبير الدارج ، بأنها " بنت سوق " ؛ حيث نشأت وترعرعت بين أحضان التجارة ، وهي الحرفة الرئيسة - بعد الرعي - التي كان العرب يلتمسون بها أسباب الرزق ، وكان لها أثر بالغ في مضاعفة أغراض اللغة العربية ، وتنمية ثروتها اللفظية والدلالية ، من خلال التعاملات التجارية التي كانت تجرى سواء بين القبائل في أرجاء الجزيرة العربية بعضها والبعض ، أو عن طريق احتكاكهم بالشعوب المجاورة لهم في قوافل رحلاتهم التجارية الموسمية ومنها رحلتا الشتاء والصيف .

ومما يدل على توسع العرب في المسائل الاقتصادية ، كثرة ألفاظ اللغة العربية الدالة على المال ، فإن منها بضعة وعشرين اسما لكل منها معنى من المعاني الاقتصادية التي ترجع إلى الاستثمار وغيره ، منها : التلاد (المال الموروث) والركاز (المال المدفون) والضمار (المال لا يرجى) والطارف (المال المستحدث) ، و التالد (المال القديم) ونحو ذلك من أسماء النقود وأنواعها من الذهب والفضة .[٢]

كما كانت للعرب أسواق يعقدونها ، لا بغرض التجارة وتبايع السلع وحدها بل كانت محفلا تعرض فيه أيضا فنون القول ، على كل شكل ولون ، وتطرح القضايا والموضوعات الأدبية واللغوية للتناقش والتباحث ، على غرار ما يحدث

---

[١] - ملاحظات انتقادية حول المسألة الاقتصادية : لينين ، انظر : " الأمة العربية وقضية الوحدة " : د. محمد عمارة ، دار الوحدة ، بيروت ، ١٩٨٤م ، ص ٧٥ .

[٢] - تاريخ آداب اللغة العربية : جرجي زيدان ، مراجعة الدكتور شوقي ضيف ، دار الهلال ، الجزء الأول ، ص ٣١ .

في بعض المنتديات والصالونات الثقافية المعاصرة ، ويتسابق أهل اللغة من ثم في عرض حصيلتهم اللغوية والبلاغية – شعرا ونثرا – على النقاد والجمهور .

وكانت هذه الأسواق تستغرق أشهر العام بصورة دورية ومتتابعة ، فيعقد سوق " دومة الجندل " في ربيع الأول ، وسوق " هجر " في ربيع الآخر ، وسوق " عمان " في جمادى الأولى ، وسوق " المشقر" في جمادى الآخرة ، وسوق " صحار " في رجب ، وسوق " الشحر " في شعبان وسوق صنعاء في النصف الثاني من رمضان وسوق " عكاظ " – وكانت أكبر أسواق العرب وأجلها شأنا – في ذي القعدة ، وسوقا " ذي المجاز ، ومجنة " قرب أيام موسم الحج ، في ذي الحجة ، وسوق " حجر " في المحرم .[1]

اللغة العربية والنشاط الاقتصادي الحديث :

لئن كانت هذه الأسواق ، وغيرها من أوجه النشاط التجاري والاقتصادي الذي شهدته الحياة العربية في مختلف البقاع ، وعلى مر العصور ، قد استخدمت فيها اللغة العربية على أنها الوسيلة الأساسية في ترويج وتبايع البضائع والسلع ، أي من خلال عمليات البيع والشراء فإن أهمية اللغة بصورة عامة ، قد زادت في النشاط الاقتصادي الحديث ، لتعدد صور ومجالات استخدامها تبعا لتعدد أدوات الاتصال التجاري بين الأفراد والشعوب ، حتى أصبحت هي الأخرى ينظر إليها باعتبارها سلعة ذات قيمة تبادلية تتزايد مبيعاتها في ظل الطلب المتنامي عليها ، غير أن لها ميزة تختلف بها عن باقي السلع ، وهي أن مخزونها أبدا لا ينفد .

ويخضع تحديد القيمة السوقية للغة ما ، في فترة ما ، للعوامل الاقتصادية ؛ فاللغة الصينية ، مثلا ، على الرغم من أنها لغة جماعة لغوية ضخمة ذات تراث ثقافي عميق ، ولغة بلد ذي أهمية سياسية كبيرة في عالم اليوم ، ليست تحظى بطلب كبير عليها على مستوى العالم بوصفها لغة أجنبية ، لأن إمكان استغلالها الاقتصادي إمكان محدود . أما اللغة اليابانية – في المقابل – فقد ارتفعت قيمتها في السوق العالمية للغات الأجنبية خلال العقد الماضي ، وهو تطور لافت للنظر يكاد يشبه ارتفاع شأن الين في سوق العملات ، حيث إن اليابان قد أصبحت شريكا تجاريا مهما لبلاد كثيرة على مستوى كل القارات .[2]

ونظرا لقيمتها الاستعمالية الكبيرة في السوق العالمية ، وسيطرتها على وسائل وبرمجيات التقنية الحديثة ؛ فإن اللغة الإنجليزية ما زالت تتربع على عرش اللغات الأكثر مبيعا في العالم ، في حين أن اللغة العربية ، وهي الأقدر والأجدر

[1] - بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب : محمود شكري الألوسي ، الطبعة الثانية ، ١٩٢٤م ، الجزء الأول ، ص ٢٦٤ ، وانظر لغة الإدارة : عبد السميع الهراوي ، مرجع سابق ، ص ١٤ .
[2] - اللغة والاقتصاد : مرجع سابق ، ص ١٠٦ .

من حيث خصائصها وسماتها ، ما زالت تترنح تحت وطأة اقتصاد ضعيف لا يقيم لها وزنا في حساباته ، أو يقدم لها الدعم الواجب في نشاطاته .

فلم تجن اللغة العربية ، في ظل التحول الجارف الذي يشهده المجتمع المصري ، كنموذج للمجتمعات العربية ، إلى تنامي الاهتمام بالقطاع الخاص ؛ سوى بعض الجدل الذي صاحب هذا التحول حول المصطلح الأنسب لوصفه ، حتى استقر ، أو كاد ، على تسميته بالخصخصة على الرغم من أن معاجم اللغة العربية لم يثبت بها فعل هذا المصدر : خصخص **!**

ولكن هذا التجادل اللغوي لم يعن أموال رجال الأعمال والمستثمرين في شئ ، فراحوا يستثمرون هذه الأموال في شتى المجالات ما عدا اللغة **!** غير أن التطور السريع الذي تشهده تقنية المعلومات وأدوات الاتصال ، فضلا عن نمو الوعي القومي بأهمية ملاحقة هذا التطور ، كل ذلك تطلب إعادة النظر إلى منظومة اللغة باعتبارها من أهم أدوات الإنتاج في هذا المجال ، وحظيت معالجة اللغة العربية من ثم بشيء من الاهتمام لم يتناسب بعد مع ثرائها وإمكاناتها .

و من العبث أن نغفل أهمية العامل الاقتصادي في النهوض باللغة العربية ، لأن ما يشغل العالم كله الآن هو في المقام الأول مشاكل اقتصادية ، وليس ثمة مجتمع يريد أن ينهض دون أن يحسن اقتصاده ، واللغة بوصفها ظاهرة اجتماعية تتأثر كما رأينا باقتصاديات المجتمعات المتحدثة بها ، ويمكن أن تكون اللغة العربية شأنها شأن اللغات الحضارية من عوامل تحسين الاقتصاد من خلال ما يسمى بالتصدير اللغوي للبرامج والتقنيات التي تعالج منظومتها .

ويمكن القول : إن توجيه رأس المال نحو الاستثمار في مشاريع معالجة اللغة العربية له عائد كبير للمستثمر نفسه وللغة أيضا ، وذلك للأسباب الآتية :

١- قابلية هذه الاستثمارات للنمو ، نظرا لاتساع سوق اللغة العربية في المنطقة العربية ، وتزايد الطلب على برامج المعالجة اللغوية .

٢- تفاعل الثقافة العربية والإسلامية مع ثقافات العالم المختلفة عبر شبكة الإنترنت وتنامي رغبة المستخدم العربي في إثبات ذاته من خلال لغته العالمية ، وإقبال غير العرب على برامج تعلمها .

٣- قدرة ومرونة اللغة العربية ، وهي السلعة في هذا الوضع ، على استيعاب التقنيات المختلفة ، لتعدد خصائصها ، وتفردها . مما يجعلها حقلا خصبا للدراسات التنظيرية اللغوية بصفة عامة ، مما يضمن رواجا لها في حركة البيع والشراء عند الطلب ، وتناميا في وسائل العرض .

وتتحدد مجالات الاستثمار اللغوي بقيمة رأس المال وقدرة المستثمر على سرعة الإنجاز والمنافسة التجارية ؛ وأهم هذه المجالات بناء المعاجم وصناعتها باستخدام الكمبيوتر ، فربح المعاجم كبير ودائم ، وكذلك برامج الترجمة الآلية من وإلى العربية ، وبرامج المعالجة الآلية للنحو ، والصرف فضلا عن برامج تعليمها للنشء وغير المتحدثين بها .

دور الأنشطة الاقتصادية في النهوض باللغة العربية :

إن أي نهوض باللغة العربية يرتبط - شئنا أم أبينا - بتقدم حالة الاقتصاد المصري والعربي ، وهذا يتطلب :

أولا – أن يغار رجال الأعمال العرب على لغتهم ، ولا يؤثروا عليها المشاريع ذات النفس القصير والربح السريع الوفير . ويقدموا من ثم على المشاريع التي تخدم اللغة لا سيما من خلال التقنيات الحديثة ، فالعرب أولى بلغتهم من الشركات وبيوت الخبرة الأجنبية التي يتفرق دم اللغة عليها فلا يحسنون التعامل مع منظومتها في ظل تقاعس أبنائها عنها ، واستغلال أموالهم في كل شئ ما عدا ما يخصها ، ومن الخزي أن تقوم بعض الدول الآسيوية الصغيرة التي تعرف هي الأخرى من أين يؤكل الكتف العربي ، بتصدير الدمى و" فوانيس رمضان " التي تنطق بلغتنا العربية ، بينما يكتفي العرب بمجرد الطرب لها !

ثانيا - أن تعي الحكومات أن الاهتمام باللغة العربية هو من أوليات مسئولياتها ، أو في الأقل تعطيها من الرعاية والاهتمام ما تعطيه للأمور الترفيهية التي يعد التمسك بها على حساب الجوهر في بناء شخصية المواطن مدعاة لفقدان ثقة هذا المواطن بقدرة هذه الحكومات على الرقي به ، والإخلاص للمسئولية الجسيمة الملقاة على عاتقها تجاه شعبها ودينها ولغتها .

ثالثا – أن يدرك الشعب نفسه أن مستقبل الأجيال رهن برعاية اللغة والنهوض بها ، وأن عبء النهوض لا يجب أن يلقى كله على جهة واحدة ، وإنما يشترك الجميع كل بأداء دوره المنوط به تحت راية النهوض بلغتهم ، ويمكن أن يضطلع الشعب العربي بالدور الرئيس تجاه اللغة بعد غياب أو تغييب الدور الفاعل والمؤثر للحكومات ورجال الأعمال .

ويذكر في هذا الصدد أن المشاركة الشعبية كانت ، وستظل ، هي الدافع الذي يحرك المجتمع نحو الصمود والنهوض ، وقد حدث هذا في مصر عندما كان الحماس الوطني والشعبي يلهب مشاعر الناس إزاء الاحتلال الغاشم ، وكم تغلبوا بفضل هذا الحماس على عقبات وعقبات ، ولكنهم لم يكتفوا بمجرد الحماس وإنما شاركوا بالفعل في صنع الأحداث والتغلب على الأزمات التي واجهت الوطن .

مشروع الجنيه :

في بداية الثلاثينيات ، كانت هناك رغبة شعبية عارمة في تحرير الاقتصاد المصري من براثن الاحتلال الأجنبي ، والنهوض بالصناعة الوطنية ، وأنشئت بغرض ذلك الجمعيات وتآلفت الجماعات .

وكان ثمة شاب مصري[1] فكر في أسلوب غير تقليدي لتحقيق هذا الغرض ، وكل فكرة عظيمة لا شك كانت في الأصل فكرة بسيطة ، فدعا إلى اكتتاب عام من جميع أفراد الشعب ، حيث يشارك كل فرد بقرش واحد من دخله كحد أدنى لبناء وتعمير المصانع الوطنية ، ومنافسة المحتل .

ووجدت الفكرة صدى كبيرا لدى طوائف الشعب الواعية آنذاك وسرعان ما انتشرت وأيدتها الصحف الوطنية ودعت إليها تحت اسم " مشروع القرش " ووزع طابع خاص بالمشروع في ربوع مصر المختلفة . ونجح المشروع نجاحا ساحقا وتم بناء المصانع الوطنية وتخطت مصر بفضل المشاركة الشعبية أزمتها الاقتصادية في ذلك الوقت .

ولا شك أن اللغة العربية اليوم أولى بهذه المشاركة الشعبية ، وتلك الروح الوطنية المتأججة ، لأن وجودها أصبح مهددا في كثير من الميادين العملية وبخاصة في مجال التكنولوجيا الحديثة التي تفوقت فيها اللغات الأخرى بمراحل بينما تقف اللغة العربية " محلك سر " ، مما قد يؤثر على استقرارها بين ذويها ويدع الفرصة للغات الأخرى لاحتلال مكانتها في نفوسهم لأن العربية في نظرهم ستكون لغة جامدة غير متطورة وغير قادرة على استيعاب تطبيقات العلم الحديث مثلما تستوعبها هذه اللغات المحتلة . وقد جاء تفوق هذه اللغات الأجنبية على اللغة العربية في مجالات التقنية الحديثة لا لمزية فيها لا تتوفر للغة العربية فاللغة العربية تتفوق بمزاياها وخصائصها على جميع لغات العالم كما سبق ، ولكن لتوفر الإمكانات المادية والبشرية والعلمية اللازمة لانتشال هذه اللغات من بؤرة الجمود والتغلب على مشاكلها الذاتية في التجاوب مع معطيات العلم الحديث فضلا عن إخلاص أهل كل لغة للغتهم كإخلاص الإنجليز للإنجليزية واليابانيين لليابانية والصينيين للصينية والعبريين للعبرية وهكذا ، وهذا الإخلاص للغة يعكس مظهرا قويا من مظاهر التحضر الذي لا يمكن أن توصف به أمة لا تحترم لغتها ولا يبذل أفرادها كل ما في وسعهم من أجل النهوض بها وهو نهوض ينعكس لا شك على حاضرهم ومستقبل أبنائهم .

---

[1] - هو أحمد حسين الذي أصبح فيما بعد زعيما لحزب " مصر الفتاة " ، انظر : " المؤلفات الكاملة لأحمد حسين - إيماني " ، دار الشروق ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨١، ص ٤٤.

ولذلك يدعو المؤلف كل عربي غيور على لغته وأمته أن يبادر إلى تنفيذ " **مشروع الجنيه** " حيث يساهم كل مواطن بجنيه واحد من دخله كحد أدنى لدعم المشاريع الخاصة بالنهوض باللغة العربية ، كمشاريع برامج تقنية اللغة العربية التي تحتاج إلى مبالغ طائلة ، لا تستطيع الحكومات وحدها أن تفي بها في ظل الغفلة التي تعيشها كثير من الأنظمة السياسية السائدة عن رعاية واحتضان اللغة العربية وفي ظل التخلف الاقتصادي الجاثم على أنفاس معظم الشعوب العربية ، وعزوف رجال الأعمال والمقتدرين عن الاضطلاع بكثير من هذه البرامج اللغوية ولا شك أن مشروعا كهذا سيكون بمثابة " الانتفاضة اللغوية الشعبية " التي تزلزل أركان التخلف اللغوي ، وتكون بداية لثورة لغوية إذا كتب لها النجاح فسوف تقتلع جذور الجمود الفكري والعلمي الذي تغط اللغة العربية في سباته وتعيش في رحابه وهو في الوقت ذاته نوع من المصالحة مع لغتنا العربية التي طالما ألهت مشاغل الحياة الناس عن القيام بدورهم الواجب تجاهها .

وخير جهة يمكن أن يثق الناس في قدرتها على تبني هذا المشروع وتجاوبها معه وحسن توجيهه هي الجهة المعنية الأولى باللغة في مصر ، أعني : مجمع اللغة العربية ، وهو مدعو لأن يفتح أبوابه لتلك المشاركة الشعبية تنفيذا لهذا المشروع وفق خطة مدروسة وبعيدا عن التعقيدات الروتينية التي يعاني منها بوصفه جزءا من المنظومة الحكومية ، ولعله ينشئ المطبعة التي يتمكن من خلالها من تسليط الضوء على إنتاجه الغزير ، وإخراجه من أضابير الظلام إلى النور ، فتتفتح عيون الناس على وضع لغتهم في خريطة اللغات العالمية ، كما يمكن أن يمثل مثل هذا المشروع نواة لمشروع شعبي تتبناه جامعة الدول العربية وتعممه على مستوى العالم العربي كله .

إن مشروعا كهذا إذا تحقق ، فسيكون عائده المعنوي على العرب كبيرا ، حيث يعد مظهرا على توحدهم في مقوم من أهم المقومات التي تجمع الشمل العربي وهو اللغة العربية ، وما أجل وأعظم أن يجتمع العرب جميعا على حب لغتنا الجميلة ، والتفاني قولا وعملا في خدمتها ! وما أصدق قول الشاعر :

لكل قوم لسانٌ يُعرَفون به
إن لم يصونوه لم يُعرف لهم نَسب
وإن موطنَ عُرْب يَرطُنون وإنْ
عَلَتْ مَبانيه لهو الموطنُ الخَرِبُ
لن يدرك المجدَ شعب ما له لغةٌ
تحوطُها دولــةٌ أسيافُها قُضُبُ

الفصل السابع

التعريـب

خطاب مفتوح إلى السيد رئيس الجمهورية

علموها كل أنواع اللغات الأجنبية
سلبوها لونـها
سلبوها زيـها
سلبوها عزها
وغداة اعتقلوها من جديد
سألوها :
ما اسمك يا بنت ؟
فردت
في هدوء وروية :
عربية
عربية
عربية

(سميح القاسم)

سيــدي الرئيس ،

إن اللغــة العربيــة اليوم ، وأكثر من أي عهد مضى ، أحوج ما تكون إليك ، إلــى إشـــارة البــدء منــك ، بعــدما جــرت ســنة الآخِـرين مــن الســادة المســئولين وأصحــاب القرار فـي الجهـات الحكوميـة ، علـى ألا ينشطوا فـي اتخـاذ القرارات المصيرية إلا بناء على استحثاث منك أو تعليمات عليا تصدر عنك . قلها سيدي الرئيس ، في أحد مؤتمراتك الصحفية ، فـي أحد حواراتك التليفزيونية ، فـي أحد لقاءاتك الجماهيرية :

" نحن دولة عربية ، لغتها هي العربية "

فلطالما انتظرها السيد وزير التعليم ليجتهد فـي تصحيح أوضـاع اللغة العربية فـي مراحل التعليم المختلفة ، وينظر بعين الاعتبار إلى معلميها الذين يترسخ مـع الأيـام إحساس الكثيـرين منهم بالدونيـة ، بـل النـدم علـى اختيـار اللغـة العربيـة – لا مـادة غيرها – لأداء رسالتهم التعليمية ، لما يرونه من امتهان عام لكرامة اللغة العربية - منهجا ودرجة - في المدارس " العامة " وحدث عن " الخاصة " ولا حرج !

ولطالما انتظرها السيد وزيــر التعليم العـالي لينشط في إيجاد الحلول الفعليـــة لمعضـلة تعريـب التعلـيم بعد أن طـال أمـدها فـي المعاهد والكليـات التـي لا يـزال الطلاب يتلقون العلم فيها بلغة غير لغتهم الأصلية وهي العربية ، فضـلا عن عجز كثير من الخريجين في مختلف الكليات بمـا فيهـا الكليـات المختصـة باللغـة العربيـة عن التعبير نطقا وكتابة بلغة عربية خالية من فحش الأخطاء .

ولطالمـا انتظرهـا السيد وزير الإعلام ليحول دون استخدام العاميـة التـي تستفحل يوما بعد يوم فـي وسـائل الإعلام المختلفـة ، وهـي المسئولة – أكثر مـن غيرهـا – عن تأكيد أهميـة استخدام اللغـة العربيـة فـي مختلـف الأنشـطة الذهنيـة ، فضـلا عن تفعيل هذا الدور بما يضمن بقاءها وتطورها .

ولطالما انتظرها السيد وزير الثقافة لينظر بعين الرأفة إلى الجهات الثقافية والعلمية المعنيـة بهـا (كمجمـع اللغـة العربيـة) ، ويـذلل العقبـات التـي توضـع أمامهـا ماديـا وتنفيذيا .(ظل مجمع اللغة العربية - وما زال – يشكـو مر الشكوى ، منذ ما يربو علـى ربـع قـرن ، مـن أجـل إنشـاء مطبعـة خاصـة يقدم مـن خلالهـا إنتاجـه العلمـي الغزير) .

ولطالما انتظرها السيد وزير الأوقاف ليصدر تعليماته الفورية بعدم اعتلاء منتهكي حرمة اللغة العربية منابر المساجد ؛ فإن أكثر من ضل من أهل الشريعة عن القصد فيها ، وحاد عن الطريقة المثلى إليها ، فإنما استهواه ، واستخف حلمه – كما يقول ابن جني في " الخصائص " – ضعفه في هذه اللغة الكريمة الشريفة .

ولطالما انتظرها السيد وزير الداخلية ليجابه بيد من حديد – كما يحدث في فرنسا وألمانيا مثلا – محاولات انتهاك حرمة اللغة في وطنها ، ويتصدى بحزم لكل من يضرب بقانون اللغة العربية اليتيم عرض الحائط ، دون أدنى رادع .

ولطالما انتظرها السادة المحافظون ، ليحجبوا ، كل في نطاق محافظته ، تراخيص المنشآت التي تصر على وضع لافتاتها بلغة غير العربية .

قلها سيدي الرئيس ، فما أكثر السادة المنتظرين !

وحتى لا أطيل عليك سيدي الرئيس ، وخير الكلام ما قل ودل ، إليك مثالا واحدا ، لقضية واحدة يعوزها تلميح – مجرد التلميح ولا أقول التصريح - منك ، حتى يرفع " السادة المنتظرون " عن أنفسهم حرج الانتظار ، فلا يتوانوا أو يتخاذلوا عن نصرة اللغة العربية ، والنهوض بها في عصر العلم و" العولمة " . وهي قضية تعريب التعليم ، بمعنى إحلال اللغة العربية محل اللغات الأجنبية في تدريس المناهج المقررة في المدارس والكليات المختلفة .

ولا يخفى عليك سيدي الرئيس ، أن ثمة فارقا بين تعلم اللغات الأجنبية و التعليم باللغات الأجنبية ؛ فالأول دون شك مطلب حضاري ، ونافذة لا بد منها للإطلال على ثقافات الشعوب المعاصرة ، وما توصلت إليه العلوم الحديثة في شتى المجالات ، (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِلْعَالِمِينَ) [1] صدق الله العظيم .

أما الثاني ، وهو اتخاذ اللغة الأجنبية دون اللغة العربية وسيلة للعلم ، فهو مظهر من مظاهر التخلف والتبعية ، وحرمان للغة القومية من أداء وظيفتها في دنيا العلوم ، وتضحية بها في سبيل لغة أجنبية غريبة عنها .

يقول النديم في العدد الأول من " التنكيت والتبكيت " : " إن اللغة سر الحياة والحد الفارق بين الإنسان والبهيم ، فهي أنت وإن كنت لا تدري من أنت ، وهي وطنك إن لم تعرف ما الوطن ، أما كونها أنت فلأنك بها تعرف أهلك ، وأنت إذا فقدتهم صرت وحيدا غريبا في الوجود لا يقول لك قائل من أنت ، وأما كونها

[1] - (الروم : ٢٢) .

وطنك فإنه إنما يعمر ويسمى وطنا بأبنائه ، ومن فقد المواطن فقد الوطن ، أسمعك تقول : إذا فقدت لغتي اعتضتُ عنها بأخرى . اعتضتَ ولكن بما أضـــاع منك الوطنية والمعتقــدات الدينية ، فتبيت وأنت وطني حر وتصبح وأنت في يد أجنبي يصرفك كيف يشاء " .

وليس ثمة أمة متحضرة في العالم ، سيدي الرئيس ، تسمح بتعليم أبنائها بلغة غير لغتهم ، بل تعد ذلك خطرا يهدد كيانها الحضاري

وحتى نكون أكثر تحديدا ، سيدي الرئيس ، نضرب مثالا باللغات التي يتم بها التعليم في كليات الطب في بلدان العالم :

فالولايات المتحدة الأمريكية ، سيدي الرئيس ، بها (١٤٢) كلية طب ، لغة التعليم في (١٤١) منها هي الإنجليزية ، أما الكلية الأخيرة ، وهي في جزيرة بورتوريكو التابعة للولايات المتحدة سياسيا ، فقد تمسك أهلها – وهذا موقف يستحق الإشادة - بأن يدرس الطب فيها بلغتهم الأصلية ، وهي الإسبانية .

وفي فرنسا (٣٧) كلية طب ، لغة التعليم فيها جميعا هي الفرنسيــة ، وفي روسيا (٨٧) كلية طب ، تدرس كلها باللغــة الروسية (ولهجاتها المحلية) ، وفي إنجلترا (٢٩) كلية طب ، تدرس جميعها باللغة الإنجليزية وفي ألمانيا (٣٨) كلية طب تدرس جميعها باللغة الألمانية ، وفي اليابان (٨٠) كلية طب تدرس جميعها باللغة اليابانية ، وفي إيطاليا (٣١) كلية طب تدرس جميعها باللغة الإيطالية .

وكذلك الحال في الصين ، والسويد ، وهولندا ، والدانمرك ، وإسبانيـــا ، وتركيـا ، وأستراليا ، واليونان ، وإيران ... إلخ ، فكل هذه الدول ، تدرس الطب بلغاتها القومية ، حتى إسرائيل ، سيدي الرئيس ، بها أربع كليات تدرس الطب فيها جميعا باللغة العبرية .

وكما ترى سيدي الرئيس ، لا تشذ دولة متحضرة واحدة عن هذه القاعدة : تعليم أبناء الأمة بلغة الأمة ولسانها ، فهذه الأمم لم تتقدم إلا لأنها اعتزت ووثقت في لغاتها ، واتخذتها لسانا لها في مضمار العلم .

وليست هذه اللغات بأفضل ، لا من حيث الخصائص والسمات ، ولا من حيث القدرة على حمل العلوم ، من اللغة العربية ، التي هي بمثابة الأم لهذه اللغات جميعا ، وليست اللغة العربية بأقل كفاءة إذا ما قورنت بها أي من هذه اللغات جميعا .

كما يشهد الواقع التاريخي بريادة اللغة العربية حيث كانت مقصد لغات العالم كله في المعرفة والتعلم و كانت اللغة العربية من القرن الثامن إلى القرن السادس عشر الميلادي - أي طوال ثمانمائة عام – لغة العلم الأولى التي تشد إليها الرحال من بقاع العالم بأسره ، وتنشط حركة الترجمة منها إلى اللغات الأخرى ، ويكفي أن نعلم أن كتابا واحدا ، وهو " القانون " لابن سينا ، الذي يمثل القمة التي وصلت إليها الحضارة العربية في فنون الطب تجربة ونقلا ، قد اشتهر في أوروبا شهرة عظيمة في القرون الوسطى ، وكان المرجع الرئيس في تدريس الطب في جامعتي مونبلييه ولوفان في أواسط القرن السابع عشر ، وقد طبعت ترجمته إلى اللاتينية ست عشرة مرة في القرن الخامس عشر ، وعشرين مرة في القرن السادس عشر[1] .

فإذا ما ارتد بصرك سيدي الرئيس ، إلى كليات الطب في بلدان العالم العربي لترى ماذا عساها أن تكون لغة التعليم فيها ، صادفت وضعا سوف أدع لك الحكم عليه بعدما عاينت كيف ينظر العالم المتحضر إلى لغته القومية ، وكيف يعاملها في أداء رسالة التعليم .

فكليات الطب في بلاد المغرب العربي تونس (٤ كليات) ، والجزائر (٤) والمغرب (٢) - تدرس جميعها الطب باللغة الفرنسية . أما في بلاد المشرق العربي (باستثناء سوريا) ، فالحال لا يختلف كثيرا ، وإن اختلفت اللغة المستعارة ففي السعودية (٤) كليات طب تدرس جميعها باللغة الإنجليزية ، وكذلك تدرس بها كليات الطب في الكويت (١) ، وفي العراق (٦) ، واليمن (٢) ... إلخ .

وهكذا سيدي الرئيس يوجد في بلدان العالم العربي حوالي ٩٠ كلية طب ، تدرس أغلبيتها بلغة أجنبية ، وكنت أتمنى أن تستثني مصر من حكمك على هذه البلدان التي تتناول التعليم بغير لغتها العربية سيدي الرئيس ، ولكن لا مناص من ذلك ، لأن بها هي الأخرى (١١) كلية طب تدرس جميعا بلغة غير لغة أهلها العربية ، وهي الإنجليزية !

فهل يرضيك سيدي الرئيس أن تمتهن كرامة اللغة العربية ، دون سائر لغات العالم ، في أوطانها ، وعلى رءوس الأشهاد من أبنائها العرب ؟ يبدو سيدي الرئيس أن هذه الدول قد انضمت إلى قائمة " المنتظرين " مبادرة مصر بتعريب العلوم ، فتحتذي حذوها ، ومصر لن تبادر إلا إذا صدرت إشارة الانطلاق منك !

[1] - تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه : د. عبد الحليم منتصر ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثامنة ، ص ٧٨ .

أرأيت يا سيدي الرئيس كيف أن قرارك " السياسي " لا ينتظره المصريون وحدهم ، بل العرب جميعا ، ألا تحب أن يضاف هذا الإنجاز لقائمة الإنجازات التي يشهدها عهدك على المستوى المحلي والعربي ؟

إن رؤساء الدول الأخرى سيدي الرئيس ، لا يألون جهدا في خدمة لغاتهم القومية ، وينظرون إلي الاهتمام بها على أنه جزء لا يتجزأ من مسئوليات الدولة ، وليست الحركة الفرنكفونية التي دشنها الرئيس الفرنسي ميتران عام ١٩٨٦م عنك ببعيد ، وغرضها الأساسي ، كما تعلم سيدي الرئيس ، نشر اللغة الفرنسية ، لحمايتها من غزو اللغة الإنجليزية ، على أوسع نطاق في العالم .

وقد أعلن الرئيس الفرنسي أن فرنسا سوف تسقط الدين العام للبلدان الإفريقية الخمسة والثلاثين الأفقر ، وهو ١٦ بليون فرنك في جملته بشرط أن تضمن هذه البلاد الدور المتفوق للغة الفرنسية في الحكومة والتعليم ! كما أعلن وزير التربية الوطنية الفرنسي في ذلك الوقت أن الاحتكار اللغوي الأنجلو-أمريكي هو بمنزلة " إفقار ثقافي " غير مقبول[1] .

ولربما قيل سيدي الرئيس : هذه دول متقدمة ، ولديها إمكانيات تجعل لغاتها متفوقة في مجالات التعليم وغيره . وكان من الممكن أن يكون التعلل بمثل هذا القول (قلة الإمكانيات) متكأ لإهمال لغة البلاد ومشروعاتها البحثية لو أن كل الدول الفقيرة في العالم قد أهملت لغاتها ، وسعت نحو اللغات " الغنية " !

ولكن الواقع غير ذلك سيدي الرئيس ، فهناك دول أصغر وأفقر منا بمراحل ولكنها أغني منا بحرصها وتمسكها بلغاتها الأصيلة أمام طوفان اللغات الأجنبية فيتنام مثلا ، بها (٨) كليات طب تدرس جميعها باللغة الفيتنامية ، وكمبوديا بها كلية طب واحدة تدرس باللغة الكمبودية . وحتى أفغانستان – ندعو الله أن يرفع عنها الغمة – التي يضرب بها المثل عالميا في المجاعة والفقر ، تدرس الطب في كليتيها بالبشتو والدارية لغتي أهل البلاد ... إلخ . فهل بعد ذلك يجوز التعلل ، والإحجام عن تعريب التعليم ، بدعوى ضعف الإمكانات ؟!

ولعلك تسأل سيدي الرئيس ، وأنت خير العارفين : فإذا كان الأمر كذلك ، فما الذي جعل تعليم الطب في بلدنا من الأساس بلغة غير عربية ؟ والحق سيدي الرئيس أن بقاء التعليم في جامعاتنا بلغة غير لغتنا ، هو أحد مخلفات الاستعمار التي ستظل وصمة عار فوق جبين كل منا ، وهو مسلك شاذ لا يتفق مع طبيعة الأمة المصرية في مسيرتها التي بدأها محمد علي نحو النهوض .

---

[1] - اللغة والاقتصاد : مرجع سابق ، ص ١٤٦ .

نعم سيدي الرئيس ، فعندما بدأت حركة النهضة العلمية في عهد محمد علي وأراد هذا الحاكم الواعي أن ينقل نظم التعليم والمناهج الأوروبية ، لم يشأ أن تنقل بلغة غير لغة أهل البلاد ، وكان في إمكانه أن يفعل ذلك ، ولكنه آثر أن يلتزم بالموقف الحضاري الذي يبنى على أساسه تقدم الأمم ، فكان يلزم طلاب البعثات بنقل هذه العلوم إلى مصر بلغة أهل البلاد : العربية ، ومن ثم بدأ تعليم الطب في مصر باللغة العربية .

ولم يكن أمام " كلوت بك " الذي يعود إليه الفضل في إنشاء أول مدرسة للطب في مصر سنة ١٨٢٦م ، إلا أن يحاول أن يتعلم هو وزملاؤه من الأجانب اللغة العربية ليلقوا بها محاضراتهم للمصريين فإذا غمض عليهم المعنى كانوا يستعينون بمترجمين !

وظل الطب يدرس في مصر ، وتوضع له المراجع ، وتصدر المجلات المتخصصة باللغة العربية ، نحو ستين عاما ، حتى جعل الاحتلال البريطاني من أهم أولوياته تحويل دراسة الطب من اللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية ، لأنه كان يدرك أن التعليم بلغة أجنبية يجرد أهل البلاد من إحساسهم بالانتماء ويجعلهم تابعين له ولثقافته .

ومنذ ذلك الحين سيدي الرئيس ، لم ينمح هذا الإحساس حتى اليوم ، على الرغم من الرحيل العسكري للاستعمار البريطاني ، فالاستعمار اللغوي ما انفك كاتما على أنفاس اللغة العربية والهوية القومية ، والنفس - كما يقول ابن خلدون – " تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه. إما لنظرة بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه ، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي ، إنما هو لكمال الغالب " فهل نطمح في أن تتخلص مصر واللغة العربية من إحباط " المغلوب " وذل العزيز على يديك ، سيدي الرئيس ؟!

لا شك أن ثمة صعوبات وتحديات سوف تجابهك ، على المستوى العالمي فيما إذا اتخذت قرارك التاريخي بـ " تأميم التعليم " في الكليات التي تدرس مناهجها بلغة أجنبية ، وعودة السيادة اللغوية للغة العربية في أرضها وبين ذويها وربما زادت الاعتراضات الخارجية شراسة عن تلك التي عارض أصحاب المصالح بها تأميم قناة السويس ، فإن قرارا كهذا يقوض الهيمنة الثقافية لهذه الدول التي تشيد على أساسها مصالحها وأطماعها في المنطقة العربية ، ولكنك سيدي الرئيس ، على المستوى المحلي ، سوف تكسب في هذه المعركة ثقة وحب شعبك والعرب والمسلمين أجمعين ، وسوف يحفرون اسمك بحروف (عربية) من نور في سجل الخالدين .

شهود من أهلها :

وحتى تكتمل جوانب الصورة سيدي الرئيس ، يحسن عرض ومناقشة حجج الذين يرون من العرب أنفسهم أن تعريب الطب ستكون له آثار سلبية تؤدي إلى تدهور المستوى التعليمي للطب في مصر .

ولكن العارض والمناقش هنا سيدي الرئيس هو" شاهد من أهلها " ، كان واحدا من أشد المعارضين لفكرة تعريب الطب ، وقد أصبح ، بعد أن أعاد التفكير بهدوء في ظل المتغيرات العالمية ، من أشد المتحمسين لها ، يقول الراحل الدكتور خيري سمره عميد كلية طب قصر العيني الأسبق :
" كان لتخوفنا من قرار تعريب الطب (الذي صدر في أوائل الستينيات إبان الوحدة المصرية السورية ، ولكنه لم ينفذ) أسباب عديدة أهمها :

أولا - أستاذ المادة الذي درس الطب بالإنجليزية ، وحصل على دراساته العليا بالإنجليزية ، ودرس علمه بالإنجليزية لعشرات السنين- هل في استطاعته بين ليلة وضحاها أن يدرس مادته باللغة العربية ، وهو فقير فيها أصلا ؟ ففاقد الشيء لا يعطيه .

ثانيا - كيف نتابع التطور العلمي المذهل ؟ والمجلات العلمية والمراجع الطبية معظمها باللغة الإنجليزية ؟!

ثالثا - كيف نشارك في المؤتمرات العلمية الدولية ، ونحن لا نجيد لغة المتحدثين بها ؟

رابعا - هناك بعض المصطلحات العلمية والطبية التي ترجمت باللغة العربية فجاءت بألفاظ فظة من الصعب استيعابها ، مثل : البنكرياس " المعثكلة "، والهيموجلوبين "اليحمور"...إلخ .

وتطورت الأحداث ، وربما زاد نضجنا فأعدنا الدراسة واكتشفنا أن ما كان ينظر إليه بالأمس على أنه المستحيل أصبح اليوم سهلا ميسورا ؛ فأعدنا التفكير بهدوء ، وتبينت لنا الحقائق التالية :

أولا - إن معظم دول العالم تدرس الطب بلغتها ؛ فالإنجليزي يدرس الطب بالإنجليزية ، والفرنسي بالفرنسية ، والألماني بالألمانية ، والأسباني بالأسبانية ، والصيني بالصينية ، والياباني باليابانية...الخ. حتى اللغات المنسية وشبه المنقرضة ، مثل: العبرية ، تستخدمها إسرائيل في تعليم طلابها بها فهل نحن أقل شأنا من كل هؤلاء ؟؟ كلا . بل يجب علينا أن نفخر بلغتنا الأم وهي لغة يعلم الجميع مدى ثرائها في التعبير، والتاريخ شاهد على ذلك- هل نسينا أن علماء

العرب القدامى قدموا للطب الحديث كثيرا من المراجع العلمية القيمة باللغة العربية وأن النهضة الأوربية الحديثة جاءت بعد النهضة العربية ؟

في الواقع لم يبق في العالم سوى عدد قليل من الدول لا يزيد عن أصابع اليد الواحدة لا تزال تدرس الطب بلغة المستعمر بدلا من اللغة الأم .

ثانيا - بعد التطور المذهل في طرق الاتصالات والترجمة والطبع ، أصبحت مشكلة المراجع العلمية يسيرة وهينة ، فكلنا نعلم أن هناك كثيرا من المجلات العلمية الدورية تظهر بأكثر من لغة ، فالمقالة التي تنشر اليوم بلغة ما يمكن أن تترجم فورا إلى اللغة العربية لتكون بين يدي الأطباء العرب في اليوم التالي ، وهنا يأتي دور جامعة الدول العربية فعليها أن تتبنى فكرة الاتفاق مع دور النشر العالمية لإضافة اللغة العربية إلى اللغات التي يترجم إليها كل جديد في العلم .

ثالثا - إن العالم العربي غني برجاله وكل قطر شقيق يضم مجموعة كبيرة من العلماء القادرين على تأليف الكتب والمراجع العلمية باللغة العربية . وأقترح أن يجتمع رؤساء الأقسام المعنيين في كليات الطب المختلفة لتأليف الكتب الخاصة بمادتهم العلمية باللغة العربية ويا حبذا لو تم تبادل هذه المراجع بين كليات الطب العربية المختلفة .

رابعا - ليس معنى أن يدرس الطب باللغة العربية أن نهمل معرفة لغة أجنبية ، لذا يتحتم تدريس اللغة الإنجليزية في جميع سنوات الدراسة الطبية ، وأن يوضع مقرر مكثف لذلك يقوم بتدريسه أساتذة متخصصون من كليات الآداب أو الألسن مثلا ، فيصبح خريج الطب الدارس باللغة العربية متمكنا تماما من اللغة الإنجليزية ، وبالتالي يمكن له حضور الندوات والمؤتمرات العالمية .

خامسا - أعلم تماما أن هناك لجانا فنية متخصصة تقوم بترجمة المصطلحات الأجنبية إلى اللغة العربية ، وأعلم أن النية متجهة لتبسيط الأمور واستخدام نفس الألفاظ العلمية الأجنبية الدارجة في عملية تعريب الطب فمثلا البنكرياس يبقي البنكرياس والهيموجلوبين هو الهيموجلوبين وهنا أجد لزاما على أن نرد على الزملاء الذين ينتقدوننا في استخدام بعض المرادفات العلمية العربية فأرد عليهم وأقول إن المسألة تعوّد لا أكثر ولا أقل فهناك في اللغة الأجنبية ألفاظ لا تقل غرابة مثل (Levator Labii Superioris alaeque nasi) المشكلة ليست في تعريب الطب بل المشكلة في التعود على تعريب الطب ، وهل نحن أقل ذهنا وقدرة من معظم دول العالم التي تدرس الطب بلغتها الأصلية .

لقد كنت بالأمس من أشد المعارضين لتعريب الطب ، واليوم أنا من أشد المتحمسين خاصة بعد أن زالت الظروف والعوائق التي كانت تواجهنا في الماضي " .

انتهى كلام الدكتور السمرة ، و هو شهادة شاهد واحد فقط من " كبار أهلها " سيدي الرئيس ، شهادة تؤكد أن تعريب الطب قد أصبح بعد أن تهيأت له الظروف مطلبا ضروريا يأتي في المقام الأول .

وقد اشترك عمداء كليات الطب العربية جميعهم في اجتماعهم المنعقد بالقاهرة سنة ١٩٩٠م ، في وضع خطة عمل واقعية انتهوا فيها إلى ضرورة تعريب التعليم الطبي والصحي في كل كليات الطب في العالم العربي خلال الفترة من ١٩٩٠م إلى ١٩٩٩م على أن تكتمل الخطوات بحلول سنة ٢٠٠٠م . وها هي سنة ٢٠٠٠ قد حلت ثم ولت ، وأتبعتها سنة ٢٠٠١ ، ثم ٢٠٠٢ ، فهل سمعت سيدي الرئيس شيئا ؟ !

ووحدها تقف التجربة السورية لتبرهن في شموخ ، وبشكل عملي وواقعي ، على أن اللغة العربية هي لغة العلم التي لا تقل كفاءة عن أية لغة ، من لغات العالم المتحضر ، في تدريس جميع العلوم ، ومن بينها علوم الطب ، (في سوريا ثلاث كليات تدرس جميعها الطب باللغة العربية) ، وهي تجربة أثبتت السنون المتعاقبة (يعود تدريس الطب في سوريا باللغة العربية إلى عام ١٩١٩م) ، وآراء المختصين في هذا المجال أنها بجميع المقاييس تجربة ناجحة ، والمثل الإنجليزي يقول : " do not argue with success" : لا تجادل ناجحا !

فقد نجح السوريون بالفعل في التغلب على جميع المعوقات التي صادفت تعليم الطب بالعربية ، واجتهدوا في توفير وصك المصطلحات العربية الأصل ، ولطالما أوقعهم غنى اللغة والعربية وغزارتها في حيرة من أمرهم ، عندما كانوا يحاولون انتقاء لفظة يرونها أنسب ، وهجر أخرى ، حتى وضعوا " معجم المصطلحات الطبية الكثير اللغات " الذي كان لبنة أتبعها اتحاد الأطباء العرب بوضع " المعجم الطبي الموحد " الذي وحد المصطلحات ، وأنشأ لغة طبية يمكن أن يعتمد عليها الأطباء والدارسون العرب .

أما الكتاب الطبي الجامعي ، فقد بدئ بتأليفه في دمشق منذ الأيام الأولى لبدء التعليم بالعربية في جامعتها. وظهرت كتب طبية ذات أسلوب قويم عبرت فيها لغتنا عن الفكرة العلمية بيسر. وتصدر كليات الطب السورية الآن كتبا جامعية بلسان عربي سليم وبمصطلحات عربية محض. وأصبح عدد المؤلفات الطبية

المتوفرة بين أيدي الطلاب والأطباء كبيرا على نحو أضحى فيه لكل مقرر عدة كتب منها المؤلف ومنها المترجم عن أشهر المراجع العالمية الحديثة.

ولم تصادف كليات الطب في سورية عقبات في تكوين الأستاذ الجامعي . فطلاب الرواد الأوائل الذين تعلموا بالعربية عادوا ليدرسوا بالعربية أيضا بعد أن أنهوا تخصصهم في البلاد التي أوفدوا إليها. وهم يحاضرون بلغة عربية ميسرة ولا يجدون غربة في الألفاظ والعبارات العلمية. وطلابهم لا يحتاجون إلى معجمات تيسر عليهم فهم الكلمات ؛ في حين يحتاج إخوانهم الطلبة العرب الآخرون إلى ذلك.

وتقدم الجامعات السورية برهانا ساطعا على مرونة العربية وتقبلها العلوم الحديثة قبولا سهلا. وتعد هذه الجامعات مجالا موضوعيا تطبيقيا بعيدا عن كل جدل حول التعريب ما يزال يدور ويتكرر منذ نحو قرن من الزمن من غير أن يصل إلى نتائج حاسمة. وإذا رحنا نتابع مآل المتخرجين من الجامعات السورية لرأينا أنهم قد تبوءوا أرقى المراكز العلمية في العالم ولا سيما الولايات المتحدة الأمريكية ؛ إذ قلما نجد مستشفى جامعيا أو مركزا للبحوث الطبية هناك إلا وفيه من خريجي هذه الكليات الذين درسوا بالعربية[١] .

وقد أجرى (المجلس الصحي الأمريكي الدولي AIHC) استطلاعا لرأي الأطباء السوريين الذين درسوا في كليات الطب السورية ويعيشون حالياً في الولايات المتحدة الأمريكية ، بغرض تقييم التجربة السورية في تعريب الطب ، وقد شمل هذا الاستطلاع حوالي خمسين منهم ، وكان من بين الأسئلة المطروحة عليهم :

١- هل واجهت أية صعوبات في سوريا في فهم المصطلحات أو التعابير الطبية المعربة ؟ إذا كان الجواب نعم ، فماذا كانت الصعوبات ؟

فأجاب حوالي ٨٠% منهم بأنهم لم يواجهوا صعوبات حقيقية في فهم واستخدام المصطلحات العربية في دراستهم ، بينما رأى ٢٠% أن السبب في الصعوبات التي واجهتهم إنما يرجع في المقام الأول إلى عدم كفاءة القائمين بالتعريب في نقل المصطلحات الطبية المستجدة .

[١] - المنظمات المعنية بتعريب التعليم الطبي : عدنان تكريتي ، من وثائق " المركز العربي للوثائق والمطبوعات الصحية " .

٢- هل تعتقد أن تعريب الطب ضروري ؟ ولماذا ؟

فأجمع حوالي ٩٠% منهم على أنه ضرورة ثقافية ، لأن اللغة جزء لا يتجزأ من هوية الأمة ، وضرورة علمية ، لأن الطالب الذي يدرس بلغته أقدر على الاستيعاب والفهم فضلا عن الإبداع ، ولكن بعضهم أكد على عدم الاقتصار بالتعريب ، وضرورة إنتاج العرب أنفسهم في مضمار الطب .

آراء الأساتذة والطلاب :

ويشير أحد أساتذة الطب المصريين [١] - ولا ينبئك سيدي الرئيس مثل خبير - عند ذكر تجربته الشخصية حينما قام بالتدريس باللغة العربية في جامعة دمشق ، بعد أن قضى سنوات حياته يدرس باللغة الإنجليزية ، إلى أن نتائج طلابه في جامعة دمشق كانت أفضل من نتائج طلابه في جامعة القاهرة ؛ لاستيعابهم محاضرته بشكل أعمق [٢]!

أرأيت يا سيدي الرئيس ، كيف أن التدريس باللغات الأجنبية في جامعاتنا لم يؤد إلى الارتقاء بمستوى الطلاب العلمي مثل أقرانهم العرب الذين يدرسون بلغتهم العربية وذلك بشهادة الأساتذة أنفسهم ؟!

ويؤيد ذلك سيدي الرئيس قول أحد أساتذة الهندسة بالقاهرة[٣] :
" إن التدريس باللغة الإنجليزية في كليات الهندسة أدى إلى ارتباك الطالب وعدم قدرته على متابعة دروسه حتى أصبح أمرا طبيعيا مرور الممتحنين في قاعات الامتحان لترجمة وتعريب ما استعصى على فهم الطالب من كلمات !

وقول أحد العمداء السابقين[٤] لكلية العلوم بجامعة عين شمس :
" إنه قد ثبت من التجارب العملية أنه عند تدريس موضوع ما لجماعتين من الطلاب العرب متكافئتين على وجه العموم، تتلقاه إحداهما بالعربية، وتتلقاه الأخرى بالإنجليزية، كانت حصيلة الطالب من المجموعة الأولى أكبر، وفهمه للموضوع أتم وأعمق ، فى وقت أقصر وبجهد أقل . ويضيف أن لغة العلم هى مركز لأربع دوائر متداخلة : الأعمال والمهن العلمية ، ونشر الثقافة العلمية ،

[١] - الدكتور عبد الملك أبو عوف ، الأستاذ السابق بكلية الصيدلة ، جامعة القاهرة .
[٢] - التدريس باللغات الأجنبية في الجامعات المصرية : محمد السيد سليم ، من وثائق " المركز العربي للوثائق والمطبوعات الصحية "

[٣] - هو الدكتور عبد الوهاب عامر .
[٤] - هو الدكتور عبد الحافظ حلمي .

وتدريس العلوم، ثم البحث العلمي ونشر نتائجه. وتدريس العلوم بالعربية يزيد من ترابط الدوائر الثلاث الأولى " [١].

وقد أجرى أحد أساتذة العلوم السياسية [٢] استطلاع رأي شمل عينة من الطلاب الذين يدرسون في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية العربية ، لمعرفة آرائهم تجاه قضية التدريس باللغات الأجنبية ، وقد خلص منه إلى جملة من النتائج ، منها :

١- لم يوافق ٨٢% من أفراد العينة على التدريس باللغات الأجنبية .

٢- أكد أفراد العينة على أن التدريس باللغات الأجنبية يكرس التفرقة بين خريجي المدارس الحكومية وخريجي المدارس الأجنبية . وقد أشار بعضهم إلى أن الفئة الأولى مثقلة وتعانى أشد المعاناة فى مجاراة الفئة الثانية.

٣- أكد أفراد العينة على أن التدريس باللغات الأجنبية لا يؤدى إلى الارتقاء بالمعرفة. فالمادة العلمية إذا كانت منطقية ومعقولة سوف تدخل إلى العقل الإنسانى ويدركها سواء كانت باللغة العربية أو الأجنبية.

٤- اتفق أفراد العينة على أن تخصيص أقسام مستقلة للتدريس باللغات الأجنبية بمصروفات أدى إلى تحقيق فجوة كبيرة بين طلاب المجموعة العربية والمجموعة الإنجليزية حتى أن كلمة "أنا من القسم العربي" أصبح شيئا مخجلا .

٥- أكد أفراد العينة على أن التدريس باللغات الأجنبية يأتى على حساب عمق وإتقان فهم الطالب لمضمون المادة ، لأنه يلهث دائماً خلف اللغة لفهمها وليس المادة لتحصيلها.

٦- اتفق أفراد العينة على أن من الأفضل تخصيص مادة بأكملها لتدريس المصطلحات بالإنجليزية أو الفرنسية أى تدريس اللغة نفسها، وليس التدريس بها.

٧- أكد بعضهم على أن إنشاء أقسام داخل الكليات والتدريس باللغات الأجنبية يخلق بعض الانشقاقات داخل صفوف أبناء الكلية الواحدة، وكذلك فهو يثير نوعاً من أنواع السخط بين الطلاب الأقل من الناحية المادية والأكثر استعداداً أو رغبة فى الدراسة بهذه الأقسام على أولئك الذين يدرسون بها .

---

[١] - التدريس باللغات الأجنبية في الجامعات المصرية : مرجع سابق .
[٢] - هو الدكتور محمد السيد سليم .

هذه يا سيدي الرئيس ، آراء أبنائك من الأساتذة والطلاب الذين يتفقون فيها سواء بسواء على أن التعليم باللغات الأجنبية يخلف آثارا سلبية سيئة فيما يخص تمكن الأساتذة أنفسهم من التوضيح والإبداع ، و قدرة الطلاب من ثم على الاستيعاب والتحصيل .

ولعل من نافلة القول سيدي الرئيس ، أن يذكر في هذا المقام ميثاق الوحدة الثقافية العربية الذي أجازه وزراء التربية والتعليم العرب ، عام ١٩٦٤م ، ثم أقرته جامعة الدول العربية ، وينص على أن :
" يكون هدف التربية والتعليم تنشئة جيل عربي واع مستنير يؤمن بالله مخلص للوطن العربي ، يثق بنفسه وأمته ، ويدرك رسالتها القومية والإنسانية ... " .

وهل من الممكن سيدي الرئيس ، أن تحقق تنشئة الأجيال العربية ، الهدف المنشود منها ، دون أن يكون تعليمها في وطنها العربي بلغتها العربية ؟

فتعليم الأمة بلغتها - كما يقول صاحب " المؤيد " – ينقل العلم بكليته إليها ، أما تعليمها إياه بلغة أجنبية عنها ، فإنما ينقل أفرادا منها إلى العلم ولا يعني الفشل في تعريب العلوم إلا أمرا واحدا " هو أننا متسولون في ميادين الطب والهندسة والكيمياء والفيزياء ... إلخ ، إننا نملك ناصية المعرفة عندما ننقلها إلى لساننا ، أما عندما ننتقل إلى ألسنة الآخرين ، فسنكون عالة عليهم ، وسنبقى أتباعا ، ضائعي الهوية ، لا قيمة لنا في الأرض ، ولا وزن لنا في السماء " [١]

لقد هللنا – سيدي الرئيس – وأقمنا الأفراح (والليالي الملاح) عندما أعاد أحد المصريين وهو الدكتور أحمد زويل إلى العرب ثقتهم التي كادوا يفقدونها في أنفسهم في ميدان العلم باكتشافه أصغر وحدة يمكن أن يقاس بها الزمن وحصوله على أرقى الجوائز العلمية العالمية ، ولكن اللغة العربية وحدها سيدي الرئيس ، كانت تقف حزينة كسيفة البال تغمس وجهها في حمرة الخجل ، لأن الكشف العلمي الذي قدمه أحد أبنائها إلى العالم كان من نصيب لغة أخرى غيرها ، وكان انتصاره العلمي الذي رأى النور بلغة غير لغته العربية انتصارا لهذه اللغة واندحارا للغته الأصلية ، وزادت حسرة اللغة العربية عندما لم يأبه أحد ، بعد أن انفض المولد لخطورة أن يتقاعس عنها أبناؤها ، وهل غير أبنائها من يحملون لها رايتها ويخفقون بها ؟!

ومن جهة أخرى سيدي الرئيس ، فإن هيمنة اللغات الأجنبية في أوطاننا ، تجعل لغتنا تنزوي إحساسا بضعفها ، وتجعل أبناءها لا يثقون فيها ، وينظرون

[١] - فلسفة التعليم باللغة العربية واللغات الأجنبية : د. صابر عبد المنعم محمد ، معهد الدراسات والبحوث التربوية ، جامعة القاهرة .

إليهـا نظرة دونية ، ومن ثم ينظرون إلى ثقافتها نظرة دونية ، وهي ثقافتهم ، فتنهار فيهم مقومات الشخصية العربية في الوقت الذي يعجزون فيه عن بناء شخصياتهم منتمية إلى ثقافات اللغات الأجنبية فيحسون بالضياع[1] .

فعندما نلتمس المبادرة بإزكاء الاهتمـام باللغة العربية ، فإنما نربأ بك سيـدي الرئيس ، عن أن تكون رئيسا لدولة " ضائعة " ! واستخدام العربية وحدها لغة للتعليم يولد روح الانتماء للأمة ، ويمنع التغريب الفكري والسلوكي ، ويقف حائلا دون هجرة أبناء المجتمع – وهم الصفوة – إلى مواطن الحضارة الأجنبية ، مما يحافظ على مستقبل البلاد ويمكنها من تنفيذ خططها التنموية [2] .

وقد أوصت منظمة اليونسكو جميع شعوب الأرض (ألسنا من شعوب الأرض ؟ !) باستخدام اللغة الأم في التعليم حتى أعلى مرحلة ممكنة ! أما سياستنا التعليمية سيدي الرئيس فهي تسيـر بالعكس : استخدام اللغة الأجنبية في التعليم حتى أدنى مرحلة ممكنة !

وهذا ما صرح به بالفعل وزير التربية والتعليم الحالي ، حيث أعلن – ويا شين ما أعلن – أن الأجهزة الفنية بوزارته " تدرس إمكانية تدريس اللغات الأجنبية خاصة الإنجليزية بدءا من الصف الثاني الابتدائي بدلا من الرابع كما هو متبع الآن ، وأضاف الوزير أن الوزارة أعدت خطة لتدريب معلمي اللغة الإنجليزية وتعزيز دورهم في الخطط الجديدة . جاء ذلك عقب استقباله لوفد المعونة الأمريكية المشرف على مشروع البرنامج المتكامل لتعليم اللغة الإنجليزية ، وقال الوزير : إنه تقرر التوسع في هذا البرنامج ليشمل مختلف محافظات الجمهورية "[3] . وسوف أدع لك سيدي الرئيس أن تكمل الخبر بنفسك ، ولن أتوقف عند السبب الظاهر الذي دفع الوزير إلى التصريح بذلك ، وهو زيارة وفد المعونة ولا عند إشراف هذا الوفد على برنامج تعليم لغته الأجنبيـة في المدارس المصرية (العربية) ، ولكنني سأتوقف عند تصريح السيد الوزير بأن وزارة التعليم قد أعدت بالفعل خططا لتدريب معلمي اللغة الإنجليزية ، أليست اللغة العربية أولى في ظل أوضاعها المتردية بمثل هذا الإعداد والاهتمام بمعلميها ؟

سوف أضع بين يديكم سيدي الرئيس هذا التقرير من تقارير المجلس القومي للثقافة والفنون والآداب والإعلام وهو أحد المجالس القومية المتخصصة التي تعرض تقاريرها السنوية عليكم ، حيث أجريت فيه دراسة على طلاب السنـة النهائيـة في أقسام اللغة العربيـة لكليات التربية في مصرنا المحروسة ، فوجد أن

---

[1] - تعليم اللغة العربية والتحديات الثقافية : محمود كامل الناقة ، من وثائق المؤتمر التربوي العشرين لجمعية المعلمين الكويتية ، سنة ١٩٩٠م .

[2] - فلسفة التعليم باللغة العربية وباللغات الأجنبية : د. صابر عبد المنعم محمد ، مرجع سابق .

[3] - جريدة الأهرام ، عدد يوم ٢٠٠٢/٣/١٣ .

نسبة من يخطئون في استخدام قواعد اللغة العربية منهم ، قد بلغت – ويا للهول – (٨٤,٣%) [١] !

فإذا كان هذا هو شأن من سيعهد إليهم تعليم الأبناء الاستخدام الصحيح لقواعد اللغة العربية ، وتخصهم الوزارة – ويا للعجب - بالأفضلية عند التعيين ، أفلا تعد هذه النسبة مؤشرا خطيرا يستحق من سيادتكم التوقف الجاد لمحاربة هذا الخطر الداهم على أهم مقومات الأمة وبناء شخصية أبنائها ؟ ومن وزارة التعليم لأن تولي اهتمامها الأساسي لإعداد ورعاية مدرس اللغة العربية ؟

وإذا كانت اللغة العربية تجد هذا الجفاء والنفور عن تعلمها والحماس لها من أبنائها ، ومن الوزارة المشغولة عن إعداد معلمي اللغة العربية بإعداد معلمي اللغات الأخرى ، فهل من الحكمة أو الإنصاف أن نغور في جرحها ، ونتوسع دون مبرر علمي واحد في التعليم باللغات الأجنبية ، وطرح اللغة العربية جانبا ، في المدارس والكليات ؟

ولا أحد يماري ، سيدي الرئيس ، في أن المجتمع المصري قد تأثر بتحولات سياسية واجتماعية متلاحقة أدت إلى تفاقم المشاكل التي تركت دون حل جذري حتى استشري وباؤها واستفحل خطرها ، وبات من اللازم اللازب اتخاذ الخطوات الضرورية للتصدي لها ، حتى لا نبدو كمن يحرث في البحر .

وإن من أهم أسباب ضعف اللغة العربية – كما يقول الدكتور طه حسين – أن التلميذ لا يكاد يدخل المدرسة حتى تتلقفه اللغة الأجنبية ، فتستغرق من وقته وجهده ونشاطه ما هو خليق أن ينفق في تعلم اللغة الوطنية ، وإتقان غيرها من المواد التي تتصل بالثقافة الوطنية [٢]، ثم يقرر أن " كل ثقافة لا تعتمد على اللغة الوطنية ليست إلا ثقافة مستعارة ، والذي لا يعرف لغة وطنه غير مثقف ، وأخشى أن أقول : إني أشك في رجولته شكا كبيرا " !

وبعد سيدي الرئيس ،

فنحن في انتظار كلمتك من أجل النهوض بلغتنا العربية ، ورد اعتبارها السليب في أوطانها ، ورب كلمة منك أسعدت أمة ، ولكن أخشى ما نخشاه أن يطول الانتظار كالعادة سيدي الرئيس ؛ فلا تظفر اللغة العربية في النهاية إلا بضيف جديد يحل على قائمة " السادة المنتظرين " !

---

[١]- تقرير المجلس القومي للثقافة والفنون والآداب ، الدورة الثامنة عشرة ، (١٩٩٦ – ١٩٩٧) ، ص ٢٧ .
[٢] - مستقبل الثقافة في مصر : طه حسين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٣م، الجزء الثاني ، ص ١٩٢ .

أكثر ما يضير اللغة
عدم إخلاص أهلها لها

(جورج أورويل)

خـاتمـة :

نتيجة النتائج التي خلصت إليها هذه الدراسة أن اللغة العربية اليوم ليست في حاجة إلى توصيات واقتراحات بقدر ما هي في حاجة فعلية إلى قرارات تنفيذية تتوازى مع " انتفاضـة " من أبنائها لرفع الأغلال التي تعوق مسيرتها على جميع المستويات الشعبية والرسمية .

وأول هذه الأغلال الحاجز النفسي الذي يزداد منعة كلما أغرقنا في إهمال اللغة وإيثار غيرها عليها في الحياة العلمية والعملية ، وتحطيم هذا الحاجز لا يكون إلا بالاعتزاز باللغة العربية شكلا وجوهرا .

وعلى الجهات الرسمية وفي قمتها رئاسة الجمهورية دور لا يمكن تجاهله في إزكاء هذا الاعتزاز باللغة العربية في نفوس الناشئة والشباب وذلك باتخاذ بعض المبادرات الفعلية والقرارات التنفيذية التي تدل على اهتمام أجهزة الدولة باللغة العربية مما ينعكس على اهتمام وسائل الإعلام والمواطنين بها . ومثال ذلك أن يتفضل السيد رئيس الجمهورية شخصيا بافتتاح ورعاية المؤتمر السنوي الذي يعقده مجمع اللغة العربية لمناقشـة قضاياها الحيوية الملحة ، فذلك أدعى لاهتمام وسائل الإعلام والجهات المعنية بما تسفر عنه أعمال هذا المؤتمر وغيره من المؤتمرات والندوات التي تعقد بغرض النهوض باللغة العربية في سائر المجالات من مناقشات وتوصيات ترتقي بوضع اللغة العربية وتحد من مظاهر الإسراف بل الإسفاف في تجاهلها .

فضلا عن إصدار القرارات التي تحول بالفعل دون زعزعة مكانتها بين أبنائها ، وموالاة تنفيذها في الواقع ، ويأتي على رأس هذه القرارات الضرورية - على كثرة ما تحتاجه أوضاع اللغة العربية منها - قرار منع تدريس اللغة الأجنبية في مرحلة التعليم الإلزامي (الابتدائي) ؛ فاللغة العربية أولى بالجهد والوقت الذي يبذله الطفل في هذه المرحلة لتعلم اللغة الأجنبية حتى يتقن لسان قومه فلا يصير مسخا مشوها لا يحسن نطق الكلمات العربية أو استخدام قواعد اللغة ، وعلى وزارة التربية والتعليم أن تصرف جهودها في سبيل إعداد مدرس صالح لتدريس اللغة العربية ، والاهتمام بوسائل العلم الحديثة في تقديم محتواها للناشئة .

وقد أثبتت التجارب العملية أن تفريق دم اللغة على أقسام الكليات المختلفة يؤدي إلى اضطراب وبلبلة في طرق عرض وتقديم محتوى المنهج اللغوي من خلال تباين مستوى المعلمين واختلاف طرق التدريس التي تناولوها كل في نطاق كليته . فالمتخرج في قسم اللغة العربية بكلية التربية يقدم اللغة للتلاميذ على نحو يختلف عن طالب الأزهر أو الآداب أو دار العلوم ، وقد تتعارض طرق الشرح وطرائق فهم القواعد اللغوية من خريج لآخر ؛ مما يؤدي إلى تشتت أذهان التلاميذ بين مدرس قوي وآخر لم يؤهل جيدا فيفتقر إلى التعمق في عرض المادة العلمية ، ومن الأولى أن تتوحد أقسام تدريس اللغة العربية في كلية واحدة ذات منهج واحد في تقديم اللغة العربية بحيث تؤهل المتخرجين فيها على نحو واضح لا على أنحاء متعارضة ، وتنشأ لهذه الكلية التي تعنى وحدها بتدريس اللغة العربية فروع في مختلف الجامعات وتكون مسئولة وحدها عن إعداد مدرس اللغة العربية من منظور عصري .

إن تعلم اللغة العربية قد أصبح يعامل – في ظل وضعه المتردي – معاملة تجارية بحتة : ما ذا أحصد من درجات ؟ وكيف أحصل عليها من أيسر السبل دون عناء أو مشقة ؟ ومن جهة أخرى يتزايد الاهتمام بتعليم اللغات الأجنبية ، على حساب اللغة العربية ، فيفرض على النشء تعلمها في سني التعليم المبكرة ، فيعوج لسانهم العربي ، وتنقطع الصلة شيئا فشيئا بينهم وبينه ، كلما صرفوا هممهم إلى تناول غيره .

وعلى الرغم من الاقتناع بأن درجة اللغة العربية في مراحل التعليم لا بد أن تتناسب مع مكانة اللغة العربية والوعي بأهمية تعلمها ورعايتها ، فإن القضية لا يجب أن تنحصر في مسألة ارتفاع هذه الدرجة أو انخفاضها ، بقدر النظر إلى الكيف والمحتوى الذي تقدم هذه اللغة الجليلة به في عصر " الكمبيوتر والإنترنت " ، حيث التركيز على وظيفة اللغة في تنمية القدرات الذهنية والعقلية للمتحدثين بها ، وإزكاء ملكة التحليل والنقد لديهم .

ولن يتأتى ذلك دون الالتفات إلى إعداد معلم اللغة العربية لينهض بالدور المنوط به في الارتقاء بمستوى اللغة العربية مع الأخذ في الحسبان أهمية اللغة نفسها في بناء الفرد وتلبية متطلبات العصر الذي يعيش فيه . فحاجة طالب اللغة - كما يرى المنفلوطي في النظرات – إلى أستاذ يفيض عليه روح اللغة ، ويوحي إليه بسرها ، ويفضي له بلبها وجوهرها أكثر من حاجته إلى أستاذ يعلمه وسائلها وآلاتها . فلا فرق بين أستاذ الأخلاق وأستاذ البيان ، فكما أن طالب الأخلاق لا يستفيدها إلا من أستاذ كملت أخلاقه وسمت آدابه ، كذلك طالب البيان لا يستفيده إلا من أستاذ مبين .

ثم تأتي أهمية القرار بتعريب التعليم في المعاهد والكليات التي ما زالت تدرس مناهجها بلغة غير العربية ، فإن التأخر في إصدار هذا القرار وتطبيقه له أضرار خطيرة ، حيث يرسخ الوضع الحالي ، وهو النشاز ، ويصبح الوضع الطبيعي (إحلال اللغة العربية محل الأجنبية في مناهج التعليم) منفرا وغير مألوف .

ولكن هذه القرارات وغيرها لكي تحقق فاعليتها لا بد أن تأتي في منظومة من العمل الجماعي العربي ، وهذا دور الجامعة العربية ، ويستلزم النهوض باللغة العربية إصدار قانون عربي موحد تشترك في سنه جميع البلدان العربية ، يكون الغرض منه التصدي لمحاولات تشويه اللسان العربي ، من خلال نصوص جامعة مانعة وعقوبات رادعة تطبق دون تهاون أو تقصير، وفي الوقت ذاته تلتزم بتطبيق هذه النصوص الشعوب العربية من المحيط إلى الخليج ، كمظهر من مظاهر توحدها وارتباطها بأمتن رابطة تجتمع عليها أمة من الأمم ، وهي رابطة اللغة .

ويجب أن تتطرق نصوص هذا القانون إلى معالجة كافة جوانب استخدام اللغة العربية على جميع المستويات الشعبية والرسمية ، وبخاصة في مناهج التعليم في مختلف المراحل الدراسية ، فامتهان كرامة اللغة في التعليم ، بإحلال غيرها محلها في تدريس هذه المناهج قد جعل بعض الذين أفرزهم هذا النظام التعليمي يتهاونون من ثم في التمسك بها والحفاظ عليها ، في حياتهم العملية ، فاستباحوا لأنفسهم أن يستبدلوا بها لغة أخرى في أحاديث بعضهم ومكاتباتهم ، وتزداد الفجوة كلما ارتبط استخدام اللغة بوسائل العلم الحديثة .

ومن خلال نصوص هذا القانون أيضا ، تلتزم وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية في جميع البلدان العربية ببث موادها باللغة العربية الفصحى التي يفهمها العرب جميعا ، دون مزاحمة من اللغات الأجنبية أو اللهجات العامية التي استشرى وباؤها وكادت تطغي على كثير من وسائل الإعلام العربية . كما تلتزم وسائل الإعلام العربية في ظل بيئة عالمية يغلب عليها توجهات " العولمة " ونمو الاتصال بين الجماعات اللغوية المختلفة ، بتنمية الشعور بقيمة اللغة القومية وأهمية حفاظ الشعوب العربية عليها ، وليكن ذلك من خلال احتفالها بعيد اللغة ، وهو العيد الذي حددت له " منظمة اليونسكو " يوم الحادي والعشرين من شهر فبراير . إننا نعاين تكالب وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية على الاحتفاء بمختلف الأعياد والمناسبات على كل شكل ولون ومنها ما يعد غريبا على تقاليد المجتمعات العربية ، أفلا يكون لعيد اللغة العربية في أوطانها وبين أبنائها نصيب من هذا الاهتمام ؟!

الملاحق

ملحق رقم (١)

قـــرار
اعتما د اللغة العربية ضمن اللغات الرسمية
ولغات التخاطب في الجمعية العامة للأمم المتحدة ولجانها الرئيسة

الجمعية العامة للأمم المتحدة :

إدراكـا للـدور المهـم للغـة العربيـة ، فـي نشـر حضـارة الإنسـان، وثقافتـه وتطويرهما ، والمحافظة عليهما .

وتقديرا للغة العربية كونها لغة تسع عشرة دولة عضو في الأمم المتحدة ،
وإحدى اللغات المستخدمة في المنظمات المتخصصة التابعة للأمم المتحدة ، مثل منظمة التربية والعلوم والثقافة ، ومنظمة الأغذية والزراعة ، ومنظمة الصحة العالمية ، ومنظمة العمل الدولية ،

وأيضا كونها إحدى اللغات الرسمية ، ولغـات التخاطب في منظمـة الوحدة الإفريقية .

وتطلعا إلى تحقيق تعاون دولـي أكبر ، وتناسق أعمق للمواقف بين الدول ، وهما من ضمن الأهداف الواردة في ميثاق الأمم المتحدة .

وإشارة ، بكل التقدير ، إلى تعهد الدول العربيـة الأعضـاء فـي الأمم المتحدة بتحملها مجتمعة كافة نفقات تنفيذ القرار الحالي خلال السنوات الثلاث الأولى ؛

فقد تقرر أن تصبح اللغة العربية إحدى اللغات الرسمية ولغات التخاطب ، فـي الجمعيـة العامـة ولجانهـا الرئيسية ، علـى أن تعدل البنـود ذات الصلة بقواعد الإجراءات المعمول بها في الجمعية .

(صدر في الاجتماع رقم ٢٠٦٦
في ١٨ من ديسمبر ، سنة ١٩٧٣ م) .

الملحق رقم (٢)

قرار رئيس الجمهورية العربية المتحدة
بالقانون رقم ١١٥ لسنة ١٩٥٨م
بوجوب استخدام اللغة العربية في المكاتبات واللافتات
في إقليمي الجمهورية[١]

باسم الأمة
رئيس الجمهورية
بعد الاطلاع على الدستور المؤقت وعلى القانون رقم ٦٢ لسنة ١٩٤٢ الصادر في الإقليم المصري بإيجاب استعمال اللغة العربية في علاقات الأفراد والهيئات بالحكومة ومصالحها المعدل بالقانون رقم ١٣٢ لسنة ١٩٤٦ ، وعلى ما ارتآه مجلس الدولة ، قرر القانون الآتي :

مادة ١ – يجب أن يحرر باللغة العربية ما يأتي :
المكاتبات والعطاءات وغيرها من المحررات والوثائق التي تلحق بها والتي تقدم إلى الحكومة والهيئات العامة . وإذا كانت هذه الوثائق محررة بلغة أجنبية وجب أن ترفق بها ترجمتها باللغة العربية - السجلات والدفاتر والمحاضر وغيرها من المحررات التي يكون لمندوبي الحكومة والهيئات العامة حق التفتيش أو الاطلاع عليها بمقتضى القوانين أو اللوائح أو عقود الامتياز أو الاحتكار أو التراخيص - العقود والإيصالات والمكاتبات المتبادلة بين المؤسسات أو الجمعيات أو الهيئات ، أو بينها وبين الأفراد . ويجوز أن ترفق بها ترجمتها بلغة أجنبية - اللافتات التي تضعها الشركات والمحال التجارية أو الصناعية على واجهات محالها ، على أن ذلك لا يمنع من كتابة هذه اللافتات بلغة أجنبية إلى جانب اللغة العربية بشرط أن تكون اللغة العربية أكبر حجما وأبرز مكانا منها .

مادة ٢ – يستثنى من حكم الفقرات الثلاث الأولى من المادة السابقة الهيئات الدبلوماسية الأجنبية والهيئات الدولية وكذلك الأفراد الذين لا يقيمون في الجمهورية العربية المتحدة والهيئات والمنشآت التي لا يكون مركزها الرئيسي في الجمهورية العربية المتحدة ولا يكون لها فرع أو توكيل فيها .

مادة ٣ - تكتب باللغة العربية العلامات التجارية التي تتخذ شكلا مميزا لها ، والأسماء والإمضاءات والكلمات والحروف والأرقام وعنوان المحل والأختام والنقوش البارزة .
ولا يجوز طلب تسجيل علامة تجارية تتخذ أحد هذه الأشكال والمميزات إلا إذا كتبت باللغة العربية . على أن ذلك لا يمنع من طلب تسجيل علامة مكتوبة بلغة أجنبية إلى جانب اللغة العربية بشرط أن تكون اللغة العربية أكبر حجما وأبرز مكانا منها .
أما العلامات التجارية التي تم تسجيلها طبقا للقانون ، فيجب على مالكها التقدم بطلب جديد لتسجيلها بعد تعديلها وكتابتها باللغة العربية وذلك في خلال سنة من تاريخ العمل بهذا القانون .

---
[١] - الجريدة الرسمية في ١٢ من أغسطس سنة ١٩٥٨م – العدد ٢٢ مكرر .

ولا يجوز تجديد تسجيل أية علامة انتهت مدة حمايتها القانونية إلا إذا تم تعديلها وكتابتها باللغة العربية .

مادة ٤ - تكتب باللغة العربية البيانات التجارية المتعلقة بأية سلعة يتم إنتاجها بالجمهورية العربية المتحدة ، أما المنتجات والبضائع التي تستورد من الخارج فتلصق عليها بطاقة باللغة العربية ، تتضمن تحديد البيانات التجارية التي لها دخل في تقدير قيمتها ويصدر بتحديد هذه البيانات قرار من وزير الاقتصاد والتجارة .
ويجوز أن تضاف لغة أجنبية إلى جانب اللغة العربية فيما يتعلق بالبضائع المعدة للتصدير إلى الخارج .

مادة ٥ - كل من يخالف أحكام المادة الأولى والثالثة والرابعة من هذا القانون يعاقب بغرامة لا تقل عن عشرة جنيهات ولا تزيد على مائتي جنيه .
وتحدد المحكمة للمخالف مهلة لا تجاوز ثلاثة أشهر لتنفيذ ما أوجبته المادة الأولى فإذا انقضت المهلة ولم يقم بتنفيذ ذلك عوقب بالحبس مدة لا تزيد على ستة أشهر وبغرامة لا تقل عن خمسين جنيها ولا تزيد على خمسمائة جنيه أو بإحدى هاتين العقوبتين .
فإذا وقعت الجريمة من إحدى الشركات أو المحال التجارية أو الصناعية ترفع الدعوى العمومية على مدير الشركة أو صاحب المحل أو مديره أو الشخص المشرف على العمل

مادة ٦ – يلغى القانون رقم ٦٢ لسنة ١٩٤٣ المشار إليه وكل نص يخالف أحكام هذا القانون .

مادة ٧ – ينشر هذا القانون في الجريدة الرسمية ، ويعمل به في إقليمي الجمهورية بعد أربعة أشهر من تاريخ نشره .

صدر برياسة الجمهورية
في ٢٥ من المحرم سنة ١٣٧٨ هـ
(١١ من أغسطس سنة ١٩٥٨ م) .

قائمـة المراجع

١. أشـتات مجتمعـات فـي اللغـة والأدب : عبـاس محمـود العقـاد ، دار المعارف ، القاهـرة ، الطبعة السادسة ، ١٩٨٨ .

٢. أصول الصيـاغة القانونية بالعربيـة والإنجليزيـة : د. محمود محمد علي صبرة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠١ .

٣. الإمـلاء والترقيـم فـي الكتابـة العربيـة : د. عبـد العليم إبـراهيم ، مكتبـة غريب ، القاهرة

٤. الإيضاح في علل النحو : أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي ، تحقيق مازن المبارك ، القاهرة ، ١٩٢٩ .

٥. البحر المحيـط : أبو حيـان الأندلسي ، مطبعـة السعـادة ، القاهرة ، ١٣٢٨هـ

٦. بحـوث ألسنيـة عربيـة : د. ميشـال زكريـا ، المؤسسـة الجامعيـة للدراسـات والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٢ .

٧. البلاغة العصريـة واللغة العربية : سلامة موسى ، المطبعة العصرية ، الفجـالة ، القاهرة ، الطبعة الثانية .

٨. بهجة المجـالس وأنس المجـالس : ابن عبد البر القرطبي ، تحقيـق محمد مرسي الخولي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨١ .

٩. تـاريخ آداب اللغـة العربـية : جورجي زيدان ، مراجعة وتعليق الدكتور شوقي ضيف ، دار الهلال ، القاهرة .

١٠. تاريـخ العلم ودور العلمـاء العـرب في تقدمـه : د. عبـد الحليم منتصر ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثامنة .

١١. تـاريخ اللغة العربية في مصر والمغرب الأدنى : أحمد مختـار عمر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٢

١٢. تجـارب في نقـد الشعر : محمد شفيع السيد ، مكتبـة الشباب ، القاهرة الطبعة الثانية ، ١٩٩٠ .

١٣. تطور الأدب الحديـث في مصر: د. أحمد هيكل ، دار المعـارف ، القاهرة ، الطبعة الخامسة ، ١٩٨٧

١٤. الثقافـة العربيـة وعصـر المعلومـات : د. نبيـل علـي ، المجلس الوطني للثقافة والآداب ، الكويت ، العدد ٢٥٦ ، يناير ٢٠٠١ .

١٥. جوتـه والعـالم العربـي : كاتارينـا مـومزن ، ترجمـة عدنان عباس المجلس الوطني للثقافة والآداب ، الكويت ، العدد ١٩٤ ، ١٩٩٥ .

١٦. الحروف اللاتينيـة لكتابة العربية : عبد العزيز باشـا فهمـي ، دار العرب ، القاهرة .

١٧. الحصيلة اللغويـة(أهميتهـا – مصـدرها – وسـائل تنميتهـا) : د.أحمـد المعتـوق ، المجلـس الـوطني للثقافـة والآداب ، الكويـت ، العـدد ٢١٢ ، أغسطس ١٩٩٦ .

١٨. خصـائص اللغـة العربيـة - : د. محمـد حسـن جبـل ، دار الفكـر العربي ، القاهرة ، ١٩٨٧ .

١٩. الخطابة (أصولها وتاريخها) : الإمام محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي ، القاهرة .
٢٠. دراسات لغوية : د. عبد الصبور شاهين ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ١٩٧٨ .
٢١. دراسات مقارنة بين العبرية والعربية : د. سلوى ناظم ، دار الثقافة العربية ، القاهرة .
٢٢. الدر المنثور في التفسير بالمأثور : جلال الدين السيوطي ، دار الفكر العربي ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٣ .
٢٣. الزينة في الكلمات العربية الإسلامية : أبو حاتم الرازي ، تحقيق الدكتور حسين الهمداني ، القاهرة ، ١٩٥٨ .
٢٤. شعرنا القديم والنقد الحديث : د. وهب أحمد رومية ، المجلس الوطني للثقافة والآداب ، الكويت ، العدد ٢٠٧ ، مارس ١٩٩٦ .
٢٥. الشعر واللغة : لطفي عبد البديع ، دار المريخ ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٠ .
٢٦. العرب وعصر المعلومات ، د. نبيل علي ، المجلس الوطني للثقافة والآداب ، الكويت ، العدد ١٨٤ ، أبريل ١٩٩٤ .
٢٧. العربية لغة العلوم والتقنية : د. عبد الصبور شاهين ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٩٨٦ .
٢٨. علم الترجمة وفضل العربية على اللغات : إبراهيم بدوي الجيلاني المكتب العربي للمعارف ، القاهرة ، ١٩٩٧ .
٢٩. عن بناء القصيدة العربية : د. علي عشري زايد ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ، ١٩٩٥ .
٣٠. العين : الخليل بن أحمد الفراهيدي ، تحقيق الدكتور عبد الله درويش ، بغداد ، ١٩٦٧ .
٣١. غرائب اللغة العربية : رفائيل نخلة اليسوعي ، دار المشرق ، بيروت ، الطبعة الرابعة .
٣٢. الفرنسية أصلها عربي (المعجم الفرنسي ذو الأصل العربي) : د. توفيق عزيز عبد الله ، دار مواقف عربية ، لندن ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٤ .
٣٣. فصول في فقه العربية : د. رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجي القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٩٤ .
٣٤. فقه اللغة وأسرار العربية :أبو منصور الثعالبي ، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري ، وعبد الحفيظ شلبي ، مطبعة الحلبي ، القاهرة ، ١٩٣٨ .
٣٥. في التطور اللغوي : د.عبد الصبور شاهين ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ١٩٩٠ .
٣٦. في شرف العربية : إبراهيم السامرائي ، كتاب الأمة ، الدوحة ، العدد ٤١٠ ، ١٤١٥ هـ .
٣٧. في اللغة والأدب : تأليف الدكتور إبراهيم بيومي مدكور ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧١ .
٣٨. قصة الكتابة العربية: إبراهيم مصطفى ، دار المعارف ، القاهرة الطبعة الرابعة ، ١٩٨٤ .

٣٩. كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس : الإمام إسماعيل العجلوني ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٥١ هـ .
٤٠. كنز العمال : علاء الدين المتقي الهندي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٩ .
٤١. لسان العرب : ابن منظور (جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثالثة .
٤٢. اللسان العربي (الهوية – الأزمة – المخرج) : عبد الوارث مبروك سعيد ، دار النشر للجامعات المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٨ .
٤٣. لغة آدم عطاء أبدي للبشرية : محمد رشيد الذوق ، جروس برس ، طرابلس ، لبنان ، ١٩٩٥ .
٤٤. لغة الإدارة في صدر الإسلام : عبد السميع سالم الهراوي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٦ .
٤٥. اللغة الباسلة : د. فتحي جمعه ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ، ١٩٩٩ .
٤٦. اللغة الشاعرة : عباس محمود العقاد ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٩٥ .
٤٧. اللغة العربية أم اللغات ولغة البشرية: إسماعيل العرقي ، دمشق ، ١٩٨٥ .
٤٨. اللغة والاقتصاد : فلوريان كولماس ، ترجمة د. أحمد عوض ، المجلس الوطني للثقافة والآداب ، الكويت ، العدد ٢٦٣ ، نوفمبر ٢٠٠٠ .
٤٩. لغتنا والحياة : د. عائشة عبد الرحمن ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧١ .
٥٠. محاضرات عن اللغة العربية : د. محمد أحمد حماد ، دار الثقافة العربية ، القاهرة ، ١٩٨٨ .
٥١. محاضرات في الأدب القضائي: المستشار أحمد فتحي مرسي ، المركز القومي للدراسات القضائية ، ١٩٨٩ .
٥٢. مستقبل الثقافة في مصر: د. طه حسين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٣ .
٥٣. معجم مفردات المشترك السامي في اللغة العربية: د. حازم علي كمال الدين ، مراجعة وتقديم د. رمضان عبد التواب ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٤ .
٥٤. المعرب : موهوب بن أحمد الجواليقي ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، ١٣٨٩ هـ .
٥٥. مع العقاد : د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الخامسة ، ١٩٨٨ .
٥٦. من أسرار اللغة : د. إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة السابعة ، ١٩٩٤ .
٥٧. من غيب اللغة والتاريخ: تحية عبد العزيز إسماعيل ، سنة الإيداع ١٩٩٥ .
٥٨. موجز النحو العربي: د. محمد عبد البديع ، دار الأمين للنشر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦ .

٥٩. الموسوعة العربية العالمية: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ، الرياض ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٩ .
٦٠. موسوعة مصر القديمة: سليم حسن ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠١
٦١. وسائل الإعلام لغة الحضارة : د. عبد العزيز شرف ، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع ، القاهرة ، الطبعة الثانية .

دوريات مختلفة :

- تقارير المجلس القومي للثقافة والفنون والآداب ، الدورة الثامنة عشرة ، ١٩٩٦ – ١٩٩٧ .
- السجل العلمي لندوة استخدام اللغة العربية في تقنية المعلومات ، مكتبة الملك عبد العزيز العامة ، الرياض ، ١٩٩٣ .
- مجلة " إبداع " القاهرية ، السنة العاشرة ، العدد الرابع ، إبريل ١٩٩٢ .
- مجلة جامعة قسنطينة للعلوم الإنسانية ، الجزائر ، العدد التاسع ، ١٩٩٨ .
- مجلة العربي الكويتية ، العدد ٤٠٣ ، السنة الخامسة والثلاثون ، يونيو ، ١٩٩٢ .
- مجلة فصول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، أعداد مختلفة .
- مجلة " PC magazine " ، النسخة العربية ، دبي ، أعداد مختلفة .
- منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، الرباط ، ١٩٨٧ .
- وثائق المؤتمر التربوي العشرين لجمعية المعلمين الكويتية ، الكويت ، ١٩٩٠ .